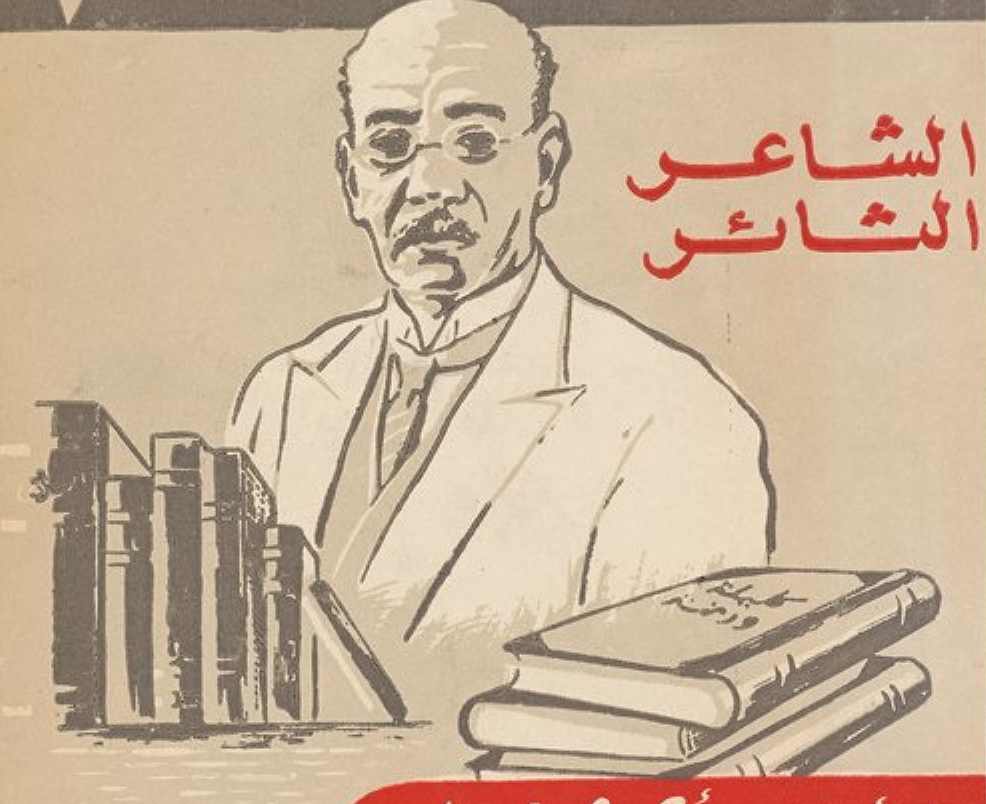
حياة

# حافظ ابراهيم



## الشاعر الثائر


بقلم الأستاذ : أحمد محفوظ

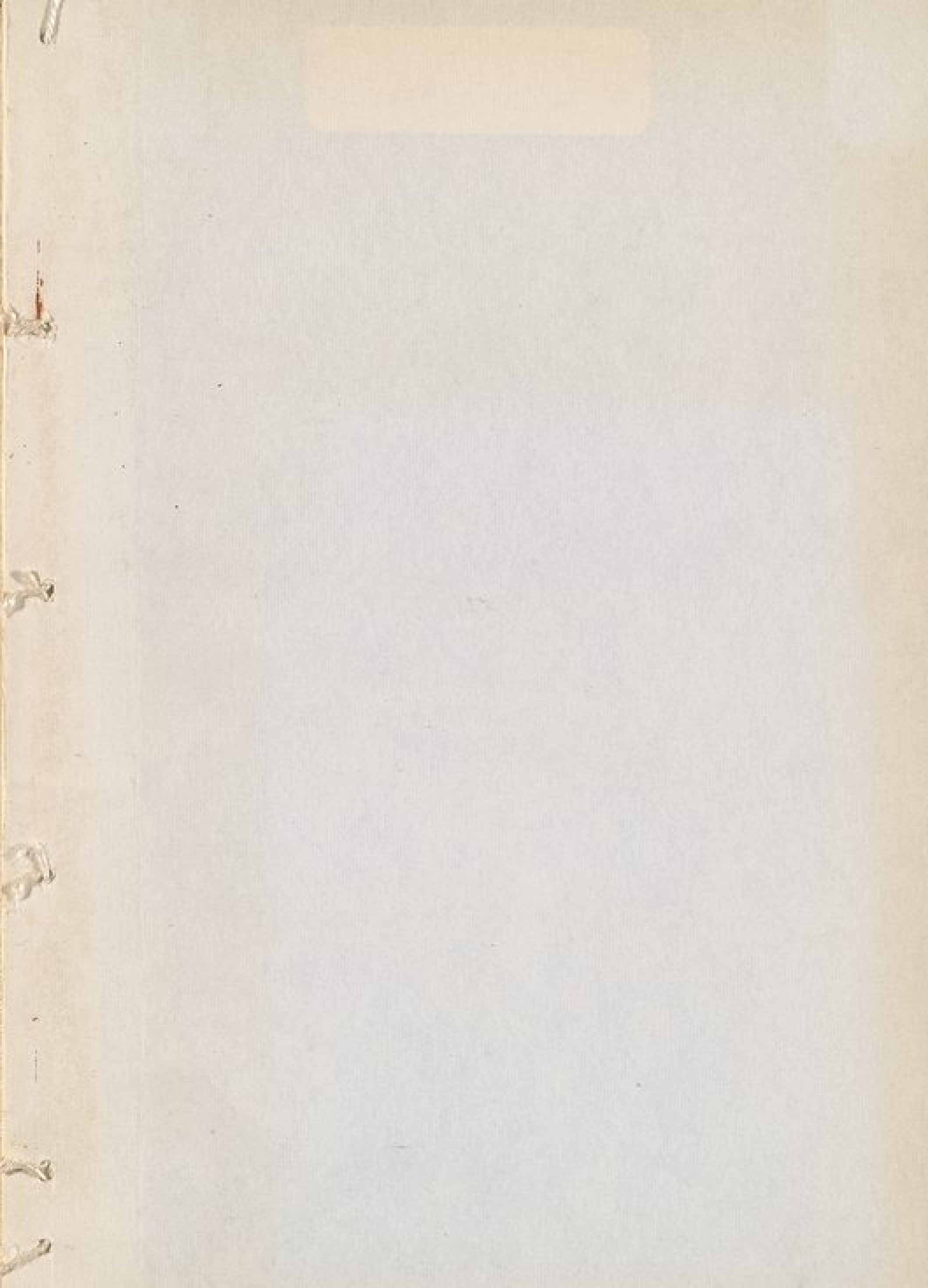
تقديم الأستاذ : عزيز أباظة



الناشر : [illegible] ٥٤ شارع عبد الخالق ثروت القاهرة

| DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE |
|---|---|---|---|
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |


Princeton University Library
32101 072538281



# حياة



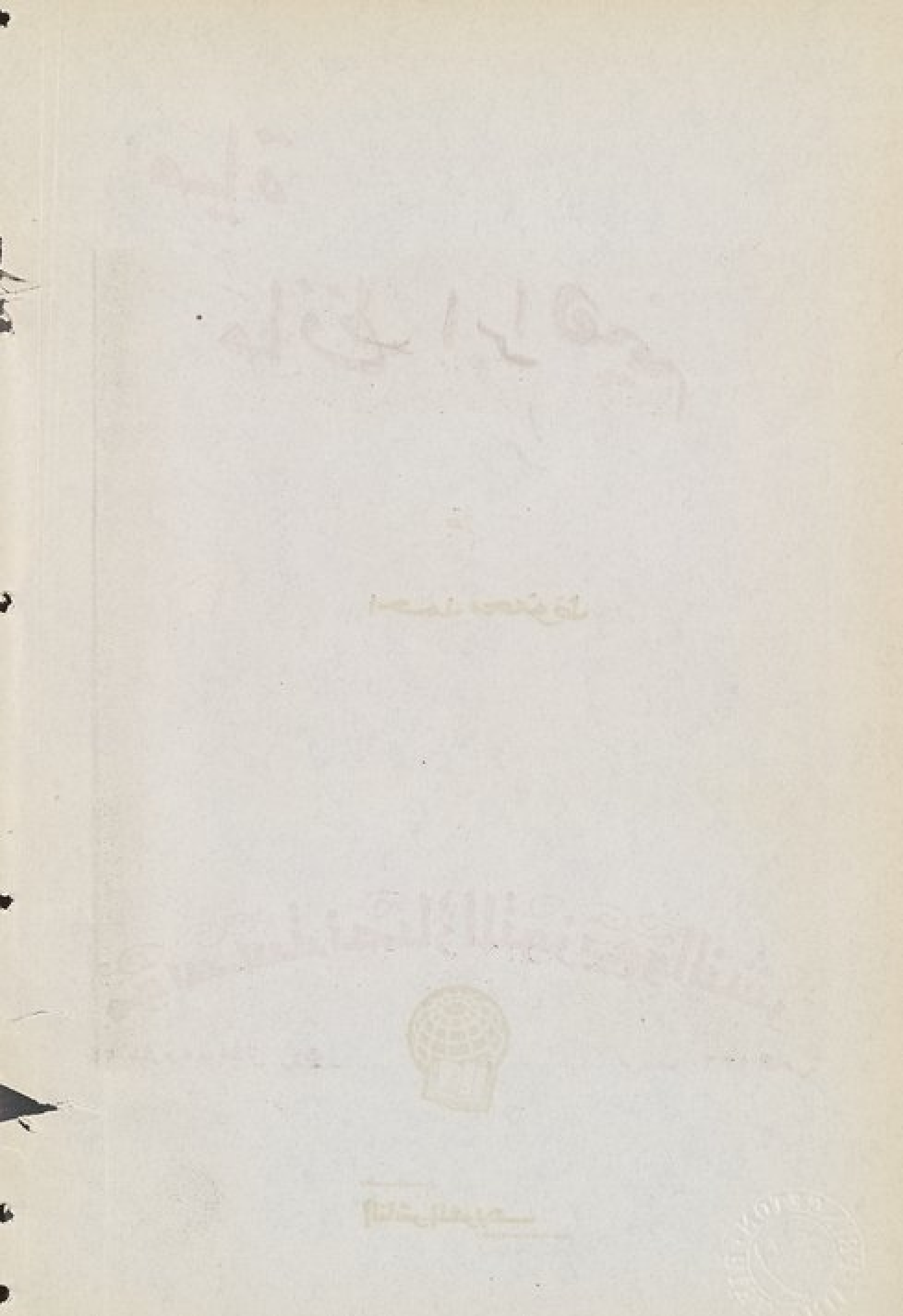
# حافظ إبراهيم

بقلم

احمد محفوظ

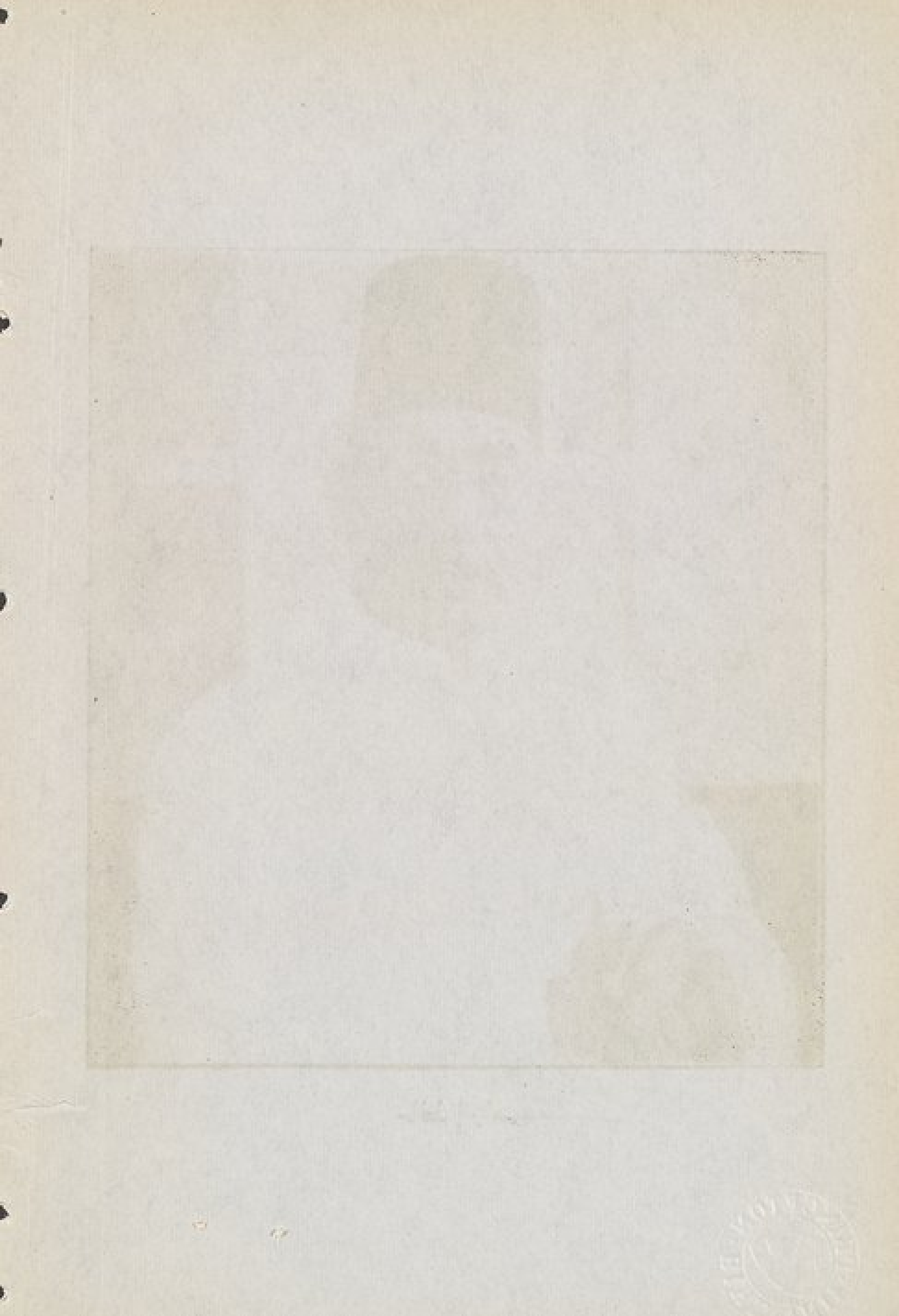



مطابع
الناشر العربي





حافظ إبراهيم



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا حافظ ابراهيم . أجلوه للقارئ . بمولده

وطفولته . وشبابه . وكهولته . وشيخوخته . وموته .

ودرسه . وبيئته . وأصدقائه . وظرفه . وبؤسه

وغدواته . وروحاته . وفنه . ملتمساً من الله التوفيق

راجياً من القراء الاغضاء عن هفوات غير متعمدة

احمد محفوظ

# مقدمة

## بقلم : عزيز أباظة

لا تزال أطياف من أيام الطفولة البعيدة تعاودنى كلما سنحت ذكرى من الذكريات العابرة الطائفة التى تمس تلك الأيام . وذكرى حافظ إبراهيم من تلك الذكريات الحلوة السعيدة .

كان لأبى وأعمامى رحمهم الله صداقة وثيقة بفضلاء من العلماء والفنانين والأدباء . وكانوا يحتفون بهم إذا اختلفوا إلى دارنا بالربعاية فى أشهر الصيف ويأنسون إليهم ، وربما أكرمونا ، وظلوا الأيام وهم فى ضيافتنا ، وكنت وأنا فى طفولتى وغرارتى .. أختلف إلى هؤلاء الأفاضل فأجلس إليهم الفينة بعد الفينة . وكنت لا أعى ما يقولون إلا قليلا لحداثتى وصغر سنى . ولكنى لا أزال أذكر ذلك الرجل الضخم الطوال الأجش الصوت ، الذى كان ينصت إليه الجميع وهو يهدر بكلام ، ينتهى فى كل مقاطيعه بحرف من حروف المعجم يظل يدور بعينه حتى ينتقل إلى غيره ، وكان لهذا الكلام جرس غير مألوف فيما عداه من الكلام الذى كنت أسمعه من سائر الناس ، وكنت أعجب من هؤلاء السادة المنصتين المعجبين بكلام ليس فيه تطريب المغنين ، الذين كنت أسمعهم أيضاً فى الدار ، بين أدوات صاخبة تارة .. هامسة آونة أخرى . وكان الرجل الضخم الطوال الأجش الصوت ، إذا فرغ من هذا الكلام المنغوم ، أخذ فى حديث آخر ، ينتهى فى ضجة من ضحك عال مدو . لا أعرف مأتاه ولا سببه .

وكان روحي الصغير يعجب بهذا الرجل ويأنس إليه ، فسألت أبي عنه في خلوة ، فقال لي : هذا حافظ إبراهيم الشاعر . فعجبت لأن الرجل لا يحمل أداة الشعراء التي كنت أستمع إليها وهي تعوى إذا أمر عليها صاحبها عصاه العالقة بها خيوط مشدودة ، والتي كنت أشهدها مع الخدم في الموالد وأفراح القرى أنا وبعض أترابي من الأسرة .

وكنت أسمع أن صاحب هذه الأداة وتلك العصا : إنما هو شاعر ، فنفضت على سمع أبي عجبي هذا ، وحاورته في مدلول لفظ الشاعر وكنهه ، فابتسم رحمه الله وقال : ستعلم الفرق بين شاعر الربابة وشاعر الأدب يوماً من الأيام .

وتطرحت السنون ، وأخذت في الدرس . وزادت معرفتي . وهفت نفسي إلى ذلك الكلام المنغوم وتذوقته وقرأت منه بعضا ساذجا ، فزاد اهتمامي بالرجل الضخم الطوال الأجش الصوت ، ولما كان لا يزال يؤثرنا بزياراته ، فقد كنت أحب الجلوس إليه ، والسماع عنه . وكان يلقى على سمعي شعره وشعر غيره . وكنت حريصا على الاختلاف إلى المجامع التي كان يقف فيها خطيبا منشدا . وذلك عند نزولي القاهرة للدرس ، ثم تأكدت المودة بيننا ، فكان صديقا لي وأستاذاً موجهاً إلى الأدب الرفيع . والشعر الجزل من تراث الفحول من شعراء العرب وأدبائهم .

وقد طلب إلى الأستاذ أحمد محفوظ أن أقدم له كتابه في (حياة حافظ). ومحفوظ صديق قديم أيضا ، يعلم تلك الأواصر التي تجمع بين حافظ وبين بيتنا .

وطالما جلسنا جميعاً إلى الشاعر نتحدث ونتناشد الشعر ، في جلسات حلوة تتضمخ بالفكاهة والأدب . وقد رجوت أن يعافيني الأستاذ محفوظ

من تقدمة كتابه ، ذلك لأن إجلالى لذكريات حافظ أبلغ من إجلالى لشعره ، ولكنه أبى فأطعت .

والكتاب الذى أقدمه اليوم قيم حوى الكثير الجم من عصر حافظ وأحاط بطرائف منوعة عاشها حافظ مع الصحافة ، والسياسة ، والعلماء ، والأدباء ، والظرفاء ، والشعراء . فهو طريف فى صياغته وأسلوبه ومراميه . وأروع ما فى الكتاب أنه يكشف لنا عن حياة القاهرة فى مفتتح القرن العشرين فى نواديها ، ولياليها ، وسهراتها ، ومواصلاتها . كما يكشف لنا عن ظرف حافظ وأصدقاء حافظ ، وحياته كلها من لدن مولده حتى موته ، وهو يستعرض أيضا أدب حافظ شعراً ونثراً . وقد تعرض المؤلف لضروب شعر حافظ بالنقد . فأنصفه فى بعضها ، وتجنى عليه فى البعض الآخر . والنقد قبل كل شيء ذوق خاص للناقد لا يلتزم به إلا هو . وقد يخالفه فيه بعض ، ويشايعه بعض آخر ، ولكن الذى لا شك فيه أن حافظ ابراهيم : هو أحد تلك العمد التى قام عليها ذلك الصرح العالى الذى أرسى قواعده البارودى الشاعر الأشهر ، وأقامه على الجزالة وجمال الاسلوب . بعد أن اندثر هذا الطراز من الشعر الفحل فى الشرق العربى من مئات السنين .

وحافظ إبراهيم كما يقول المؤلف : جاهد وثابر وزاحم حتى اعترف به الوسط الشعرى ، وعده فى طليعة الشعراء الذين ازدهر بمقدراتهم الشعر الفخم الجليل فى مستهل هذا القرن . فقد كان حافظ يذكر بالتقدير والإعجاب فى نسق مع البارودى والشاعر الخالد شوقى .

وقد ساهم الشاعر رحمه الله فى مواقف رائعة جليلة فى الوطنية والاجتماع . ولعله كان أبرز شاعر عرفته المواقف الوطنية ، فقد كان

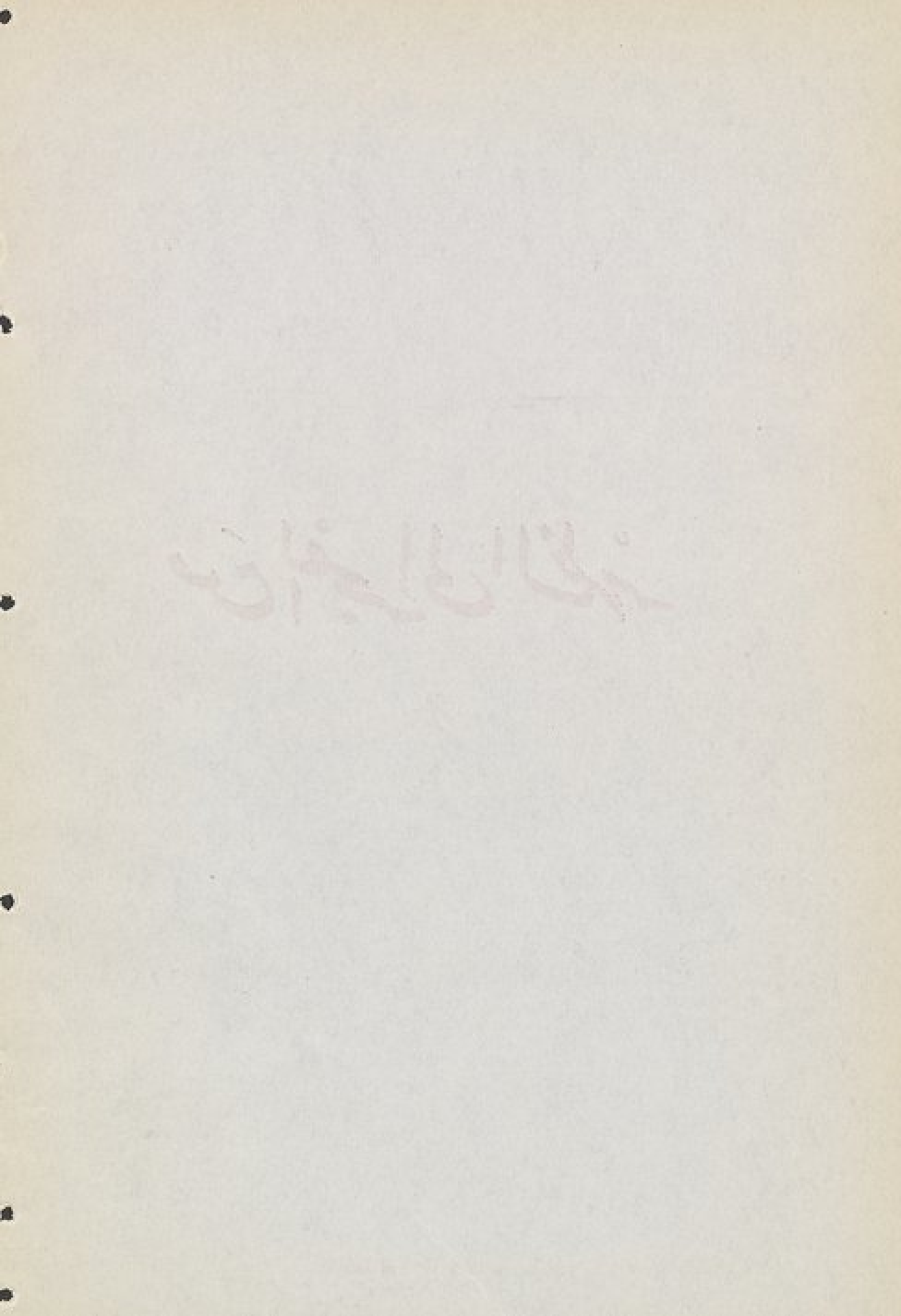
حراً منطلقاً لا تحجزه قيود كالتى كانت تحجز شوقى فى تبعيتـه للقصر . وتلك التى كانت تقوم بين إسماعيل صبرى وبين واجبه الوطنى . فقد كان هذا الشاعر الرقيق موظف دولة . فرضت عليه قوانين ولوائح تعترض سبيل انطلاقه إلى حيث كان ينطلق حافظ إبراهيم ، العائد من السودان مفصولا عن وظيفته .

وحافظ كما يقول المؤلف قريب إلى قلوب قراء شعره . ففى هذا الشعر طلاوة وبداوة ونسمات طيبة من روح حلوة صادقة . وإن كان هذا الشعر يقصر عن التحليق فى سماوات الخلق الواسعة المدى . كما كان يفعل شوقى مثلا . ولـكنه كان يستعيض عن ذلك بسهولة شعبية . اكتسبها الشاعر من طول اندماجه فى طوائف الشعب المختلفة ، وتشرب روحه من تلك الأرواح الخالصة المصرية ، فكان رحمه الله شاعراً مصرياً قحاً ، كان الشعب مدرسته ، فمنها اكتسب غالبية ثقافته ، وفى هذه المدرسة تخرج حافظ إبراهيم شاعراً كبيراً ، وكاتباً عظيما ، وأديباً لا أعرف أحفظ منه لروائع الأدب ولا أقدر منه على التميز بين أقدار الكلام .

عزيز أباظة



# من الفجر إلى الظهر



كان الإقطاعيون فى ظل بيت محمد على تطرقهم موظفو الدولة فى قراهم ومدنهم فيلقون فى بيوتهم الشراب والطعام والمأوى والسمر المشبوب الصاخب بالخمر والغناء. وكان هؤلاء يرحبون بهم ويأنسون إليهم. وكان ما يبذلونه لهم من متاع إنما هو رشوة تلقاء ما يقدمونه لهم من خدمات فنية أو قيام بتأمين أراضيهم الواسعة من السلب والنهب. وكان الفنيون منهم أقرب إلى قلوب هؤلاء الإقطاعيين، لما تدره عليهم خبرتهم من خير يزيد فيما يحرزونه من غنى واسع.

فكان المهندسون كثيرا ما يغفلون شئون الدولة ومنافعها. تلك الدولة التى تكفلت لهم بالراتب المضمون المحدود. فليس لها أن تستفرغ الجهود لخدمتها بعد أن ضمنت الراتب. وحاطته بالضمان الذى يوجبه عليها فى مستهل كل شهر. فالخوف من حرمان أرزاقها غير واقع. بعد أن كفلته وضمنته. والنفس نزاعة إلى المزيد تواقة إلى الترف. ولكن أين هذه البغية كيف الحصول عليها؟. الراتب قليل والحكومة ضنينة بأرزاقها لا تستطيع أن تكفل هذا الترف المقصود.

حسناً! هناك الإقطاعيون. أصحاب المصالح التى تحتاج إلى الخبرة. والخبرة وافرة. والحكومة لا تستطيع أن تمسك يدها عن البذل لموظفيها وإن تراخت عقولهم فى خدمتها. إلا بمجالس التأديب. وهذه أشياء لا تستطيع

إثباتها إلا بصعوبة . والتحايل مستطاع فى دفعها . ولكن السادة الأغنياء لا يبذلون المال والشراب والطعام بغير مقابل . فلا بد من الجهد وهو موجود فلنضن به على الحكومة ولا نعطيها منه إلا القليل الذى يصلح تمويها لاستدامة الراتب الشهرى .

ولنبذل لهؤلاء الإقطاعيين منه ما يرضيهم .

إن محمود باشا سليمان سيد ساحل سليم فى الصعيد والغنى الواسع الغنى الذى يحرز الأراضى الواسعة فى البدارى وأبى تيج . لابد له من صنيعة من هؤلاء المهندسين المشرفين على قناطر ديروط . فلا بد لهذه الأراضى أن تروى بحق وبغير حق . ولكن الأمر بيد هؤلاء المهندسين . فليتخذ من هؤلاء واحداً يصطفيه ويسميه صديقاً .

فوقع الاختيار على إبراهيم أفندى فهمى أحد المشرفين على هذه القناطر .

قرب الرجل إليه وأحضره طعامه وألطفه بألطافه . ووجد أنه لا يليق لمهندس أن يسكن منازل هذه القرية المشيدة بالطين وأعواد الأذرة ، فلوح له بذهبية أنيقة فى النيل لينزلها المهندس وأسرته ويتخذ منها دار مريحة .

وهذا النوع من مراكب البحر كان متعالم الشهرة فى أواسط القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين يتخذه السادة الأغنياء للترويح والتنزه .

اغتبط إبراهيم أفندى فهمى المهندس الخارج هيئة العمال بهذه الهبة التى ستسترد يوماً . لأن صاحبها قد وقر فى نفسه أن يسترد هذه الهبة عند نقل المهندس إلى مكان آخر أو إلى ذهابه إلى المعاش أو عند الاستغناء عن خدماته . واغتبطت أيضاً زوجه السيدة هانم بنت أحمد البورصه لى أمين صرة الحاج الملقب بالصروان — نسبة إلى هذه الصرة — فأمسى الرجل وزوجه ينعمان بالليالى الهامسة فى الصيف على ظهر هذه الذهبية الجميلة .

ويطول المدى وهما يسكنانها لأن صاحبها فى حاجة إلى السا كن المهندس .

وفى هدأة من الليل تهب السيدة هانم وقد ضربها الطلق وأوسعها أوجاعاً — فقد كانت حبلى — فاستغاثت . فأسعفها زوجها الذى بادر يشق دروب القرية الضيقة وبصحبته خفير ليدله على بيت الداية .

رجع إبراهيم أفندى ومعه القابلة . التى أخذت تداور وتحاور هذا الطارق الصغير الذى لم ير الدنيا قبل ليلته هذه حتى نزل .

وقامت السيدة عن طفل يصيح بصوت أجش يستنكر عادة من أمثاله من الأطفال الذين يستقبلون الدنيا بصراخهم . وكان غير وسيم وكان عريض العظام ضخما .

ويشاء القدر الذى يتدخل دائما فى مصائر نا أن يولد هذا الطفل مولدا شعرياً . فقد حملته أمه وهى على هذه الألواح الخشبية فوق هذا النهر الخالد وهى

تستمع إلى خرير أمواجه المنسابة برفق إلى جانب تلك الألواح المتأرجحة .

وقد اختار له أبوه أو اختارت له أمه اسمين هما « محمد حافظ » ، واختيار اسمين معروف إلى أيامنا هذه .

ولعل اسم حافظ التابع لمحمد قد تدخل فيه القدر أيضاً . فقد ظل صاحبه يحمل مدلوله حتى موته . فقد ظل محمد حافظ ابراهيم أكثر الناس حفظاً . وسنعرض لهذا عند ذكر حياته الفنية .

وتاريخ الميلاد كما ذكره صاحبه بعد أن عقل سنة ١٨٧٢ فى شهر فبراير . وليس له وثائق رسمية تثبته . ولكننا نشك فيه كما ذكره صاحبه .

وعندنا دليلان : الأول أن حافظ ابراهيم ذكر تاريخ ميلاده عند التحاقه بالخدمة فى دار الكتب المصرية . وذلك واضح . رجاء أن يطيل أيامه فى الوظيفة لينعم بالراتب المربوط عليها .

والثانى شعره فقد نظم وهو فى العشرين من سنه ـ فيما زعمه ـ قصائد رصينة الأسلوب غنية بالألفاظ المنتقاة .

وهذا لا يتأتى إلا لإنسان قرأ كثيراً واستوعب ما قرأه ثم أودعه منظومه . والموهبة إن سمت فهى تسمو فى الخيال والالتفات الشعرى عند صاحبها . وليس للأداة التى تعبر بها عن ظهورها مكان يساويها فى الرفعة ولا يمكن لها أن تقهر اللغة الرفيعة على المطاوعة . إلا بعد الممارسة الطويلة والنظر فى كتب الأدب نظراً طويلا يستغرق السنين الطوال . فليس من

الجائز لفتى فى العشرين أن ينظم بهذه الرصانة فى الأسلوب مهما أوتى من موهبة . لأن الريشة شيء والألوان التى يستعين المصور بها فى أداء الصورة شيء آخر .

فهو لايتقن مزجها إلا بعد العناء الطويل والخبرة المكتسبة من السنين والدرس .

وقد بعثت الحكومة كعادتها . تسأل ديروط فى صحة ادعاء « محمد حافظ ابراهيم أفندى » فبحثت إدارة قيد المواليد عن هذا الإسم فى دفاترها فلم تجد لابن المهندس اسماً ثابتاً فى أوراقها حتى ولو رجعت سنتين عن السنة المحددة فى ادعاء الموظف المذكور .

فأسعفه طبيب التسنين كالعادة ووافق على السنة التى تشبث بها صاحبها فكانت سنة ١٨٧٢ .

لعب الطفل الوحيد فى دائرة من التدليل تحدها مقدرة ابراهيم أفندى المهندس الموظف الصغير . وأعقبته أخت أنس بها الطفل الذى بلغ الثالثة من عمره .

ولم تلبث الحادثات أن دهمته وهو فى الرابعة بموت أبيه الكافل والمعيل . فبكت الأرملة المسكينة أم الطفلين اليتمين وشقت جيوبها وندبت ذلك الزوج الذى غادرها إلى الأبد ولم يترك لها مالا لتربية اليتيمين . لأنه كان موظفاً خارج الهيئة . من هؤلاء الموظفين الذين ظلمتهم اللوائح

الموضوعة فى الحكومة . تلك التى تترك الموظف كالليمونة المعصورة تقذف به بعد أن تستفرغ عصيره فى مهب الأقدار ، إن ظل حياً بعد طول الخدمة . أو تترك أولاده يتكففون الناس أو يلجأون إلى عون غيرهم من الأقرباء إن وجدوا هذا العون .

فكان لابد للسيدة هانم أن تحمل طفليها البائسين و تلجأ إلى أخيها محمد نيازى المهندس أيضاً .

وكان الرجل على شىء من الرحمة فقد بذل المأوىء للأرملة و ولديها واستقر الجميع فى حى المغربلين بشارع الجنابيسكية قريباً من تحت الربع .

ورأت السيدة بعد أن استكمل ابنها السن التى تؤهله لتلقى الدرس أن تسأل أخاها فى الحاق الغلام بمدرسة فاختار له المدرسة الخيرية . واسم مدرسة يطلق عليها مجازاً فهى أقرب إلى الكتاب منها إلى مدرسة نظامية .

وضاق الغلام بمدرسته فهجرها والتحق بأخرى ثم بأخرى . فليس له من مرشد وموجه . فخاله لاينظر اليه الا كما ينظر إلى غلام يتيم تحتم عليه التقاليد الموروثة فى الأسر المصرية القديمة أن يطعمه ويكسوه ويأويه . وليس له عليه بعد ذلك من حق التفقد والرعاية وملاحظة الغلام فى درسه والاختلاف إلى المدرسة .

فأهمل الغلام نفسه وطاوعته السن الصغيرة على العبث والتكاسل . فكان يهرب من المدرسة . ولم تكن الأنظمة الجارية اليوم فى معاهد الدرس

من تنبيه أولياءأمور التلاميذ إلى غياب أبنائهم أو أقاربهم سارية فى ذلك العصر السالف .

فهل تنشط هذه الكتاتيب التى لايهمها الا ماتحصله من تلاميذها من أجور إلى هذه الأمور . التى تعنى بها نظم التربية اليوم . لا إنها كلما طال مكث التلاميذ فيها . كسبت بذلك المكث أموالا أخرى .

فقد تعاونت الكتاتيب مع محمد أفندى نيازى فى إفساد الغلام محمد حافظ . وظلت الست هانم الأم فى حيرة من خيبة إبنها وفشله فى درسه فتضرعت إلى أخيها أن يدفع بالغلام إلى مدارس الحكومة . فقبل الرجل كارها لأن نفقات تلك المدارس تتطلب أموالا أكثر .

فقذفوا به إلى مدرسة القربية ثم إلى المدرسة الخديوية . ولكنه ظل كاهو لا يعنى بالدرس ولا بتحصيله . ولكن عنى بشىء واحد فى هذه الدروس . عنى باللغة العربية . فكان يعنى بالانشاء ويتذوق قصائدبشر بن عوانة فى ملاقاته الأسد وعنترة بن شداد فى الفروسية . وغير ذلكمما كان يتلقاه التلاميذ من محفوظات الأدب العربى .

ولمتقنع نفسه الموهوبة المتطلعة إلى الأدب العربى بما كان يتلقاه فى المدرسة . فسعى إلى الوراقين فى حى الأزهر يسأل عن دواوين الشعراء المطبوعة فى أوراق صفراء طبعاً رديئاً . فكان يشتريها بأثمان بخسةمما كان يحصله من أمه أو من خاله من دراهم معدودة .

وانكب عليها يستوعبها . وقام هذا الولع الجديد بالشعر معوانا فى صد الغلام عن دروسه الأخرى . التى لابد له منها ليقتحم الامتحان ثم الفوز بالإجازة التى تؤهله لوظيفة فى الحكومة يرزق منها .

وكان الفتى محقاً فى إرسال نفسه على سجيتها . وان ظهر ذلك عند محمد أفندى نيازى عبثاً وخيبة .

كان حافظ فى هذا كأبى يوسف قاضى قضاة الرشيد .

كان أبو يوسف غلاما يتيماً كحافظ ابراهيم . وكانت أمه قد بعثت به إلى رجل يصنع الغزل ليتعلم منه الصناعة وليؤجره بدرهم فى الأسبوع ليسد شيئاً من خلته .

فكان الغلام يهرب من المصنع ويلم بحلقة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان يتعلم عنه. فكانت المرأة تتفقد ابنها فى عمله فلاتجده فتأثرته فكانت تلقاه يختلف إلى درس أبى حنيفة . فتغضب وتضرب الغلام الخائب وتعاتب أبا حنيفة .

فلما ألحت فى عتاب الإمام وتقريعه نهرها قائلا : « إذهبى يا حمقاء فوالله ليأكلن بهذا العلم اللوزنج بدهن الفستق » . وهو صنف من الحلواء لاتأكله إلا الملوك لفداحة ما يتطلبه من نفقة فى اعداده .

فسخرت المرأة من هذه النبوءة . وعصى الغلام أمه وواصل الاختلاف إلى درس أبى حنيفة حتى تخرج فقيها .

ورحل إلى بغداد لطلب الرزق . فصادف حسن طالعه حادثة للرشيد الخليفة الأشهر .

فقد حلف فيما يروى بتطليق نساءه وعتق جواريه أنه من أهل الجنة فلفته وزراؤه من البرامكة أن يمينه هذه يقع فيها الشك . لأنه ليس لإنسان أن يعلم حظه فى الآخرة وهذا شيء غائب ومحجوب .

فارتاب الرشيد وهجس فى نفسه بطلان يمينه . فاستعان بالفقهاء العظام من أركان دولته فكل عاون شكه . فحزن وهم بتطليق النساء وتسريح الجوارى . ولكن جعفر بن يحيي البرمكى وزيره الألمعى ابتدره قائلا: « لاتعجل يا أمير المؤمنين فقد جاء بغداد فتى من تلاميذ أبى حنيفة فليأمر الخليفة بإحضاره » . فأمر بإحضاره

فلما مثل بين يديه سأله الرشيد فى صحة هذه اليمين . فقال له الفتى : «هل خفت مقام الله مرة ياأمير المؤمنين؟» فقال : « كثيرا مافعلت » . فقال الفتى: «أبشر بالجنة . فقد قال الله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان ) »

فسر الخليفة بهذه الفتوى التى تحتمل من الحيلة أكثر مما تحتمل من الحقيقة . وقرب الفتى ألذى ألف كتاباً فى الحيل بعد ذلك . حتى بلغ مرتبة قاضى القضاة .

وحضر موعد الغداء يوما وهو بين يدى الرشيد . فأمره أن يحضر غدائه فلما تتابعت الصحاف جيء بصنف وضع على المائدة . فقال الخليفة :

«كل يا أبا يوسف من هذا اللون وأكثر لأنه لا يقدم كل يوم لغلاء إعداده».

فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟» قال: «هذا اللوزنج بدهن الفستق»

فضحك الرجل. والضحك فى حضرة الملوك ـ من غير سبب بين ـ سوء أدب يستوجب صاحبه القتل فى آدابهم. فالتفت الرشيد اليه غاضبا واستنكر ضحكه فقص عليه نبوءة أبى حنيفة. فترحم عليه الرشيد وذكر فراسته بالثناء.

كذلك حافظ. لوساير خاله وأمه وأكب على الحساب والجغرافيا وغيرهما من العلوم التى تؤهله للاجازات المدرسية. لخرج كاتباً فى الحكومة أو على الأكثر مهندساً كأبيه وخاله. اللذين لم يعرفا إلا به ولعاش ومات كما يموت هؤلاء لا يحس بهم أحد ولا يلتفت إليهم إلا ذووهم أو معارفهم فقط.

ولما تكلم الناس فى شاعر النيل ولما اختلف فى أدبه الشرق العربى كله ولما وطأ أعتاب الملوك والوزراء والوجهاء. وأكل عندهم اللوزنج بدهن الفستق كما فعل أبو يوسف.

يئس خاله من صلاحه كما يئست أمه. وانتقل الى مدينة طنطا تحمل الأرملة وابنها. وقد آلى على نفسه أن ينفض يديه من تعليم الغلام. فتركه عاطلا بغير درس ولا صناعة. ولكنه ضمن له الكفالة فى الطعام والثياب والمأوى ارضاء لأخته السيدة هانم.

فلم يهمل الفتى تثقيف عقله على طريقته؛ فقد أخذ يقرأ الشعر والأدب المنثور ويختار الجيد منهما.

واتخذ أصدقاء من طلاب المعهد الأحمدى فى طنطا .

فكان يجلس اليهم ويطارحهم الشعر ويلقى عليهم أبياتاً ساذجة من نظمه. ويمازحهم بنوادره .

فقد كان كلفا بهذا الضرب من الظرف . وقد لازمه حتى موته .

ولكن هؤلاء الأصدقاء لايتفرغون فى كل وقت لملازمته . لأن لهم شأناً يسعون اليه . كانوا يطلبون العلم للارتزاق ، فهم فى شغل عنه صدر نهارهم . فأين يذهب هذا الشاب العاطل . الذى كان يضيق به بيت خاله لتعطله وثقل مؤونته .

كان يذرع الطرقات ويجلس على الترع وبيده كتب الأدب التى أحبها فى شبابه وهجرها فى شيخوخته . كان يجلس على هذه الشواطىء النائية عن المدينة. لأن المتنزهات العامة لم تكن تعرف فى ذلك الوقت فى مدن الريف كان يجلس ويقرأ . حتى اذا مل ذهنه الاطلاع أطبق الكتاب وتطلع الى الماء المنساب أمامه فى هوادة . ولعله كان يذكر تلك الذهبية التى كان يشرف من سطحها على النيل المقدس. فى أيام طفولته الناعمة الحادبة يوم أن كان يرعاه أبوه فيها لأنه صبيه الوحيد .

وقد رسبت تلك الذكريات الحزينة فى قرارة نفس حافظ يوم كان صبياً ملحوظاً من أبيه وأمه . ثم موت هذا الوالد ويتمه هو وفجيعة الأم فى زوجها . وزهد خاله فى كفالته والانفاق عليه .

ويقول علماء النفس: إن مايرسب فى نفس الطفل وهو فى الرابعة من عمره لايبرح خاطره أبدا فهو لايزال تساوره أطياف تلك الرواسب حتى يبرح هذه الدنيا .

وكان حافظ يوم مات أبوه فى الرابعة من عمره . وما زال يتلقى آثار هذا اليتم حتى تلك الجلسة المنفردة على هذه الشواطىء . ثم إلى ما بعدها يوم أن كان محامياً ثم ضابطاً محالا إلى المعاش . وقد غالى رحمه الله فى هذا الأسى مغالاة بعيدة . وسنتكلم عن هذا فى باب آخر .

وكان إذا بلغ به السأم من تلك الجلسات البعيدة عن الناس . نهض يتسكع فى الطرقات . كما كان يفعل نابليون يوم أن فصلته حكومة الثورة وهو لا يزال ضابطاً مغمورا .

ولا بد أن يشغله شىء ليستعين به على طرد هذا الملل الجاثم عليه فى تلك البطالة المعدمة . فهو لا يستطيع أن يسلخ يومه كله فى القراءة . لأنه ملول لا يستقر .

فكان يذرع الطرقات للتلهى وطرد السأم . ويعجبه أن يطيل الوقوف أمام حديقة مدرسة الفرير بطنطا . وكانت حديقة واسعة . فقد حمل الجزويت هذا الذوق عن الريف الفرنسى .

وكان طائر (أبو قردان) يقع فى هذه الحديقة إلتماساً للديدان التى تندس فى أبسطة النبات الأخضر فيتخذها طعاماً .

وكان حافظ الفنان الصغير الحالم الرأس والطفل الكبير يعجبه أن يعبث بهذه الطيور البيضاء المنشورة فوق تلك الأبسطة الخضراء وكأنها أزهار الأراولى . ويعجبه أن يراها وهى تحلق مذعورة باسطة أجنحتها تلتمس الفرار . فكان يهيجها بتحريك حلقة الباب الحديدى الموصد .

وكأن إفساد هذه الصورة الشعرية . وحب هؤلاء الفرنسيين للطير والحيوان والتظاهر بالعطف عليها . جعل المشرفين على المدرسة يعدون كميناً لأخذ هذا الشاب العارم العابث . واستطاعوا أن يأخذوا بأثوابه ويسلموه للشرطة .

فاعتذر هناك . وقدر كبيرهم نيته الحسنة . ثم أسلمه لخاله ليأخذ عليه موثقاً ألا يعود لإزعاج الطير والمشرفين على المدرسة .

فضاق به خاله . ولوح له بالطرد من داره . فحزن الفتى . وبعث له ببيتين من الشعر الساذج ينبأه فيهما أنه ذاهب عنه فى داهية . كما يفعل المنتحرون . وكانت الداهية هى صناعة المحاماة .

وكانت فوضى لا نظام لها ولا ضابط . كانت تسمى هؤلاء الذين يمتهنونها بالمزورين وبالعرضحالجية وبوكلاء الأشغال . وحسب المشتغل فى هذه المهنة أن يكون قادرا على رص الجمل وصف الكلام .

قال الأستاذ عزيز خانكى فى كتابه المحاماة قديماً وحديثاً : «إن أحد العظماء شكى أحد المزورين ( المحامين ) إلى المرحوم محمد على باشا . فكان

لشكواه رنة فى الديوان العالى . وجاء فى هذه الشكوى بلغة العصر هكذا :

فى ضمن دعوة توجهت إلى المحكمة فشاهدت ما لا يتوهم العقل أن يقع فى بلاد الكفار من خصوص التزوير الحاصل . وصرنا فى غاية العجب من أن هذه الأمور تصدر فى محكمة ولى الأمر الذى شهر عدله فى كل القرى وصار أوضح من الشمس . ولكن لا تطرق مسامعه الكريمة هذه الأحوال. تجاسر الناس على فعل ما لا يرضى الله ورسوله . إن لم تسعفوا المحروسة بإزالة التزوير منها . وإلا يصبح الغنى فيها فقير . لأن الإنسان إذا شاهد أمور بمثل ذلك . فلا يأمن على نفسه ولا على ماله . الله تعالى يجرى إزالة هذا المنكر على يديكم . ومن حيث أن هذا الأمر فاض وزاد . وصار بعض الناس يتخذونه صنعة وأبطلوا كارهم به لزمنا أن نفيد سعادتكم بما هو حاصل . وأنهم بيصيروا الحق باطل والباطل حق » .

فلما عرضت هذه الشكوى على محمد على باشا . أمر رئيس الديوان الخديو بتحقيقها وأمره بتأديب المزورين قائلا :

— كونوا متنبهين فى قطع دابرهم وانظروا فى طريقة فى قطعهم واقطعوهم .

ولما حقق رئيس الديوان رفع قائمة بأسماء هؤلاء المزورين ورد فيها ما يأتى :

«أحمد أبو زيد ـ من أهالى بنى عدى وكان عطار بالصنادقية واستبدل العطارة بالشطارة ( اللصوصية ) صنعته يتوكل ويشهد فى الدعاوى .

محمد عبد الغني القباني — والده كاتب بالمحكمة وله شهرة بالتزوير ومن حيث قد نظر من والده ذلك . ترك القبانة واستبدلها بالشطارة فيتوكل ويشهد فى الدعاوى .

عبد الهادى القربى — ذو معرفة بالتزوير فارباب ذلك يراجعوه ويعملوا صورة لإجراء تزويرهم .

عازر القسيس — له مقارشة فى دعاوى الأقباط مع بعضهم ، كذلك يقارش فى الدعاوى الذى لهم مع سائر الملل ويتوكل ويشهد ويحضر بالمحكمة .

محمد أغا الرزاز — يتوكل ويشهد فى الدعاوى الزور . وله علاقة فى ورود الشهود وخاطره معدود .

على مسعود — تاجر بالنحاسين له علاقة بالتزوير ويحب التوكيل ووجود الشهود .

الشيخ يوسف البرندى — من المعدودين خاطرهم فى الدعاوى فعمله التوكيل ووجود الشهود » .

ولما عرضت القائمة على محمد على أمر بنفى البعض إلى بلاد السودان والبعض إلى بلاد المغرب .

وذكر الأستاذ عزيز خانكى هذه القصة عن المرحوم الأستاذ ابراهيم الهلباوى المحامى قال :—

« تزوجت لأول مرة وأنا لا أزال محامياً شاباً فى مدينة طنطا. وكان

ذلك حوالى سنة ١٨٨٧ — السنة التى بعدها بسنتين توجه حافظ إلى الداهية كما ذكر لخاله — وكانت زوجتى ( كلفا ) أى وصيفة من الجوارى الشركسيات اللواتى يعشن فى السراى ويبقين بين جدرانها لا يعرفن غير سادتهن ولا يختلطن بأحد من العالم الخارجى عن السراى مطلقاً . عقدت على زوجتى ثم سافرت بها إلى مقر أعمالى فى طنطا ، وبقيت حينا معى قبل أن تعود إلى القاهرة لتقوم بواجب الشكر لصاحبات السمو الأميرات سيداتها السابقات .

وحدث أن علمت زميلات زوجتى فى السراى أنها تزوجت ، وأنها سافرت مع زوجها ، فسألن عمن عساه يكون ذلك الزوج . وعلمن أن زوج الزميلة أبوكاتو . فلم يفهمن معنى هذه الكلمة . ولا زلن يستقصين حتى اتصلن بباش أغا سراى القصر العالى فسألنه : « ومن عساه يكون صاحب مهنة الأبوكاتو ؟ » . وكان جواب الباش أغا : « مزور أو نصاب » .

وذهبت زوجتى بعدئذ إلى السراى تشكر صاحبات السمو الأميرات نعمت هانم مختار وأمينة هانم اسماعيل . فلما علمت الجوارى بمقدمها جئن إليها باكيات نادبات سوء طالعها معزيات فيما صادفها من نكد الطالع فى تلك الزيجة . لماذا ؟ لأنها تزوجت « مزوراً نصاباً » .

وأول ما دخل حافظ هذه الداهية . كان لا يشترط فى داخلها إلا أن يكون عمره ٢١ سنة على الأقل ، وأن يكون حسن السير والسلوك

وألا تكون قد صدرت ضده أحكام وأن يكون ذا كفاءة تامة فى فن المحاماة [١] .

فهل كان حافظ ذا كفاءة تامة تؤهله لأن يندس فى غمار طائفة المحاماة . وهل شاب فى مثل تجربته ودرسه يستطيع أن يأخذ للناس بحقوقهم . وهو لا يعرف كيف يدافع عن هذه الحقوق . إنه يحسن النكات و السفسطة فى غير طائل . ولكنه لا يحسن المنطق و العرف الذين كانا يقومان مقام القانون فى ذلك العصر ، عصر الفوضى فى المحاماة.

ذهب إلى الشيخ الشيمى وسأله العمل عنده . فرضى الرجل وغره حديث حافظ الطلى . لأنه كان يحسن الحديث فى المجلس . وظن أنه قد وقع على مدره يستأجره بأجر قليل ليفيد منه الكثير فى قضاياه . ولكن صاحبنا لم يصنع شيئاً . كان يذهب إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا فيخسر القضايا . ولم يكن يكسبها كما قال الأستاذ أحمد أمين . حتى ضاق به صاحبه وتجهم له . فتركه وعاتبه حافظ بهذين البيتين .

جراب حظى قد أفرغته طمعاً ببباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء فقلت له مما ؟ فقال : من الحسرات واحربا

بهذين البيتين الركيكين عاتب حافظ أستاذه الشيمى . رجاء أن

---

(١) أنظر لائحة المحامين الصادرة فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٨ .

يقعا فى نفسه موقعاً يبلغ منه مكمن الرحمة . فهو قد عرف مما قرأه فى كتب الأدب أن الشعر وسيلة طيبة لاستدرار الرحمة .

ولـكن الشيمى الذى لمس فشل المحامى المدعى ، لم يلتفت إليه .

فقصد إلى المرحوم أبى شادى بك . وسأله العمل فى مكتبه فقبله . وهنـا شفعت موهبة حافظ وهوايته فى الالتحاق بمكتب أبى شادى . فالرجل أديب . وحافظ أديب .

والبين لنا من سرعة هذا القبول : أن هذه المهنة فى ذلك العصر كانت محفوة من الناس بغيضة إليهم . وكأنها صناعة البناء أو عمل الدريسة فى مؤسسة السكة الحديد فى عصرنا هذا . تستوعب كل متقدم إليها ليعمل . لا ترد فاعلا ولا عسكرى دريسة .

وعاد حافظ ففشل فى عمله عند أبى شادى فسرحه الرجل . فلجأ إلى مكتب عبد الـكريم فهيم فقبله ، وهو فى علمه قد خاب عند اثنين من زملائه ، ثم تركه لأنه فشل أيضا عنده .

فذهب إلى الهلبـاوى فرضى به . والظاهر أنه قد وقع بين الاثنين عداوة قاتلة . فالهلباوى رجل حاد اللسان بعيد السخرية لايرحم ولا يحنو ، والظاهر أيضا أنه قد وقعت ملحمة كلامية خرج بعدها حافظ مطرودا .

فرسب فى نفسه الحقد على الهلباوى . وحمل له الموجدة حتى إذا كانت

حادثة دنشواى وموقف الهلباوى منها معروف : فهو قد أقام نفسه مدعياً عمومياً يناصر الإنجليز على بنى وطنه . فاغتنم حافظ الفرصة وصب ذلك الحقد وتلك الضغينة فى هذه الأبيات .

أيها المدعى العمومى مهلا * بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصر * وضمنا لنجلك الإسعادا
فاذا ما جلست للحكم فاذ كر * عهد مصر فقد شفيت الفؤادا
لاجرى النيل فى نواحيك يامصـ * ـر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصـ * ـر فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقاً قام بالأمـ * ـس فأدمى القلوب والأ كبادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا * قد لبسنا على يديك الحدادا

وكنت أداعب صديقى المرحوم حسن الهلباوى بهذه الأبيات فكان يضحك ويقول :

— إنى كلما غضبت من أبى لم أجد أمامى الا هذه الأبيات أقذفه بها .

وماذا يفعل حافظ بعد هذا البلاء المتساقط عليه فى فشله الدوار فى مكاتب الأبوكاتية الذين زهدوا فيه وأبوا عليه أن يعمل معهم ..

رأى أن يلوذ بالمدرسة الحربية وكانت فى أيامه مفتحة الأبواب لكل قاصد مادام لائقاً طبياً وما دام يستطيع أن يدفع لها خمسة عشر جنيها فى العام .

وقد أسعفه قوامه الفارع الضخم فى القبول كما بادرت السيدة هانم فى تدبير المال المطلوب له .

قال الأستاذ أحمد أمين فى الكلام على حافظ ابراهيم فى مقدمة ديوانه الذى باشر الأستاذ طبعه ، يصف المدرسة الحربية فى ذلك الزمن :

« كانت المدرسة الحربية قد نظمت فى عهد الخديوى توفيق باشا ، عقب الثورة العرابية ، وأدخل عليها تعديلات جديدة وعين لها ( البكباشى هوليوت) الإنجليزى قومندانا وكان ناظرها اللواء (لارى باشا) الفرنسى وزادوا عدد تلاميذها إلى بضع وتسعين ، وكان ذلك سنة ١٨٨٧ ، وجعلت الدراسة فيها نوعين : دروساً مشتركة لجميع التلاميذ ودروساً خاصة للأقسام . فالمشتركة هى القوانين والتعليمات العسكرية والجغرافيا واللغة الأجنبية والطبيعة والكيمياء والرسم .

والخاصة هى الطبوغرافيا والاستحكامات والتمرينات فى الطوبجية والسوارى والجمباز والشيش .

وعين (المستر براين ) الإنجليزى أيضا فى وظيفة معلم أول بالمدرسة سنة ١٨٨٩ . وأصدر السردار أمراً ببيان اختصاص القومندان والمعلم الأول . فكان اختصاص القومندان .. النظر فى كل شىء يتعلق بادارة المدرسة واختصاص المعلم الأول .. النظر فى البرامج وبذلك سلب من الناظر الفرنسى كل شىء .

لم يستفد حافظ من هذه العلوم شيئا بعد تخرجه ، كما اعترف هو فى كتابه ( ليالى سطيح ) .

ونحن طالما جلسنا إلى زملاء حافظ فى تلك الأيام فكنا نجلس إلى جماعة لاتطيف الثقافة برءوسهم ولا بألسنتهم . لهم أجسام ضخمة مترهلة وعقول خواء .

وحدثنى صديق من الجيش قال :

« لما جاءت البعثة العسكرية البريطانية عقب معاهدة سنة ١٩٣٦ أراد رئيسها أن ينظر فى ملفات بعض كبار الضباط فاجتهد الصديق أن يخفى عنه ملفا لعظيم فى الجيش خشية ألايقع فيه على أية إجازة مدرسية حتى ولا الشهادة الإبتدائية » .

خرج حافظ بعد تسعة شهور عام ١٨٩١ يجر سيفا ويحمل نجما يتألق فوق كتفه . وظفر المحامى الفاشل بالمرتب الثابت المضمون الذى لم يظفر ببعضه فى كل جولاته بين مكاتب المحامين التى جاس خلالها .

ولسنا ندرى كيف احتمل حافظ تلك الشهور التسعة . وهى شهور كلها مشقة . والرجل كان يكره المشقة دائما ولا يعرف إلا التراخى. كيف كان يستطيع حافظ أن ينهض الساعة الخامسة صباحا على نفخة البورى ثم ينتظم فى الصف ثم يعالج تلك التمرينات العنيفة ثم الطاعة المطلقة ثم القسوة فى الأوامر .

الشاب مضطر ليحتمل مافوق طاقته ليعيش ، فهو قد فر من النار ليقع في الرمضاء التي سيعقبها الخبز والاستغناء عن من ذوى القربى .

رسم حافظ ملازما ثانيا وبقى فى القاهرة ثلاث سنوات لايعمل شيئا إلا الزهو بالثوب العسكرى فى مسالك الأزبكية ، حيث كانت دور اللهو والمرح للشبان والشيوخ من أهل القطر كله .

وكان السودان مغلقا فى تلك الأيام لغلبة المهدية عليه . فلم يكن لهؤلاء الضباط عمل إلا النزهة والاستحواذ على راتب الوظيفة .

وتسأل نظارة الداخلية فى طلب ضباط لها من نظارة الحربية . فبعثت لها بحافظ وآخرين رأت فيهم التراخى والتهاون فى أعمالهم لأن الاستغناء عن الأكفاء غير جائز فى دنيا الدواوين .

وكانت من عادة نظارة الداخلية أن تتخذ ضباطها من نظارة الحربية لأن مدرسة البوليس لم تكن قد أنشئت يومئذ .

عمل ملاحظ بوليس فى بني سويف ثم ملاحظا فى الابراهيمية ثم لم تحتمله نظارة الداخلية بعد ذلك فردت الى الحربية عاريتها شاكرة أو ذامة هذا الاختيار .

ويحال حافظ الى الاستيداع أول مرة وهو ملازم أول . ولا شك أن الإحالة كانت مسببة بإهماله وتراخيه فى واجبه .

ويحتاج الجيش المصرى إلى ضباط يرافقون ( كتشنر ) فى ذهابه لفتح السودان سنة ١٨٩٦ . فينشل حافظا من الإستيداع ويرده إلى الخدمة العاملة ليصحب ذلك القائد الإنجليزى العبوس الصارم الذى لم يبتسم قط والذى ألجأ عباساً الثانى بصرامته إلى وساطة فارس نمر أحد أصحاب المقطم ليتخلى عن العرش بشروط ذلك القائد الذى قذفته غواصة ألمانية بالطوربيد عند ذهابه إلى روسيا سنة ١٩١٧ فغرق .

وقد وصفه حافظ فيما بعد فى ليالى سطيح فقال :

« قائد الجيشين. ورافع العلمين . الحاكم بالإرادتين ووكيل الدولتين. فاتح أم درمان . وحاكم السودان وصاحب جزيرة أسوان (جزيرة كتشنر) رافع ارم ذات العماد . وقريع فرعون ذى الأوتاد . واصل أعصاب الفيافى والقفار بأعصاب المدائن والأمصار . ساكن القصر ونابش القبر . ( قبر المهدى ) ناسف القبة ( القبة المنصوبة على القبر ) والجاعل قبته مربطا للجياد . ومسجده ملعباً لحمر الأجناد . الناقل تلك الكنوز والدفائن . الى تلك المصارف والخزائن . المغربى الذى يكتشف أحشاء الخبايا بسحر السياسة وطلسم الفراسة . ويفك ما عليها من الأرصاد . بدماء أبناء البلاد بعد تبخيرها ببخور التمويه. تحت ملاءة الترفع والتنزيه . ذلكم اللورد الخ .. » .

دخل حافظ السودان . وكانت آثار المهدية لاتزال ماثلة فى الفوضى والفقر والمرض والذل . فقد انهكت البلاد وسامت الناس الخسف .

وأتت على الأرزاق والأخلاق وأفشت الظلم والقسوة .

ذكر الجنرال النمساوى سلاطين باشا فى كتابه السيف والنار فى السودان ـ فقد مكث هناك أسيرا أحد عشر عاماً ـ الحالة الاجتماعية والارهاب الذى كان يقاسيه السودانيون قال :

« أما السجن فكان فى الناحية الجنوبية الشرقية من أم درمان على مقربة من نهر النيل مسور بحائط ضخم . وللسير إلى السجن يمر الإنسان بردهة خارجية فسيحة يحرسها نهارا وليلا جنود سودانيون مخيفون . فإذا ما عبر المرء تلك الردهة وصل إلى ساحة داخلية مكونة من غرف مطينة صغيرة لإقامة المسجونين المنكودى الحظ الذين اقتادوهم فى السلاسل والأصفاد الثقيلة فظلوا سحابة اليوم فى ظل ذلك البناء وهم فى سكون وجمود كاملين لاتتخللهما من الأصوات سوى رنين السلاسل والأوامر القاسية الصادرة من الحراس الغلاظ القلوب . وصراخ وتأوهات بعض المسجونين المضطهدين من جراء ماينزل على أجسامهم من سياط الجلد والتأديب . والويل كل الويل لمن تعرض لسخط الخليفة ومخالفة أمره . فان أولئك يرسفون فى أثقل الأغلال . بعد أن يحتم عليهم مراقب السجن البقاء فى أصغر الغرف والامتناع عن الاختلاط بباقى المسجونين . وكان ما ياخذونه من طعام لايكاد يكفى بقائهم أحياء .

وقد بثت المهدية كراهة مصر وشعب مصر بالدعايات المغرضة

المسمومة فى الوسط السودانى . وكانت ترمى المصريين بالمروق من الدين . والشعب السودانى فى ذلك الوقت كان شعباً فطرياً سليم الطوية يصدق كل ما كانت تدعيه المهدية من أكاذيب .

وكانت الحالة الاقتصادية سيئة بالغة السوء وكانت المجاعات تنهك هذا الشعب المضلل من هؤلاء المشعبذين » .

ذكر إبراهيم فوزى القائد المصرى الأسير عند المهدية تلك الفترة فقال : « كنت لما أسرت قد اتخذت التجارة فى البطيخ . وكانت المجاعة تنهك الناس وتذيقهم ويلات الجوع . فرأيت أن أقتصد بعض الدراهم لأشترى بها قطعة من اللحم الذى طال هجرانه لى . فدبرت ذلك سراً وابتعت اللحم . ثم أكلته سراً أيضاً خشية الناس.

فلما ذهبت إلى المسجد الجامع للصلاة . فار الطعام فى بطنى فتجشأت . فشم جيرانى من المصلين رائحة اللحم المنبعثة من فمى . فانهالوا على ضرباً وهم يصيحون : يابن الريف — وهذا لقب كانوا يطلقونه على المصريين — تأكل لحماً ونحن جوعى » . فلم يتركوه حتى أدموه ورضوا عظامه .

فى هذه الأحوال البالغة السوء . دخل حافظ السودان فلا رفاهية ولا أمن . ولا رخاء . ولا صداقة .

وحافظ الذى ألف الراحة فى البطالة والتجوال فى الشوارع والإختلاف إلى مشارب القهوات والجلوس مع الظرفاء من أبناء النكتة .

والنظر إلى الجمال فى الشباب الرائح والغادى أمامه فى طريق جسر قصر النيل وشوارع الجزيرة ، والتسكع فى الأزبكية حيث النساء الجميلات المتبذلات اللواتى كن يذبن شوقاً لاصطحاب الضباط الشبان لأنهم كانوا عندهن عناوين للسلطة التى يرهبنها فى رجال الشرطة الذين يسومونهن القسوة فى الأوامر والحجز فى الأقسام البوليسية لأقل بادرة تافهة تصدر من هؤلاء التعيسات البائسات .

كل هذا تفاعل فى نفس حافظ مخلوطاً بالحنين الى هذه المواطن المحبوبة لنفسه .

فلم يكن فى السودان الشرقى الذى نزله حافظ الا الوحشة لروحه التى كانت تألف الأنس دائماً .

كان ينزل الخيام المضروبة . أو البيوت المطينة ولم ير فى النهار الا الصلف من رؤسائه الضباط الإنجليز . ولم يسمع فى الليل إلا عواء الكلاب أو الذئاب الجائعة تلتمس فريسة . ورصفاؤه فى الجيش ليس من شكله ولا من مزاجه . فروحه غير روحهم ومزاجه مختلف عن أمزجتهم . فلا هم يفهمونه ولا هو يفهمهم . وطباعهم طبائع الجنود وطبيعته شاعرة حساسة . فلولا السعى للخبز وفراره من الذل لما قذف بنفسه الى المدرسة الحربية التى صبت عليه كل هذا البلاء فى تلك الغربة النائية .

ولم يكن الجو بأرحم من تلك الأحداث المجتمعة عليه . فقد كان القيظ

يذيب رأسه ويهد بدنه . ويعمل فى نفسه عمل السم . وهو بعد ذلك ليس بالصبور ولا بالجلد وإن كان شامخ البنيان .

حدثنى يوماً قائلا : « لما كنت فى السودان كنت أكتب الإستقالة من عملى فى الجيش ظهرا ، حتى إذا أقبل الأصيل بنسائمه مزقت الإستقالة » .

وقد استأثر الإنجليز بالرفاهية فى تلك البلاد وتركوا المصريين وإخوانهم يعانون الشظف والخشونة ، فلو عرف حافظ شأن السودان اليوم وكان حياً لمحا كل ما سطره عنه فى كتابه ( ليالى سطيح ) وفى خطابه إلى الأستاذ محمد عبده . الذى سطر فيه حرقته من هـذه الوحشة وضيقه بهذا البلد . ثم التشنيع بالسردار كتشنر وبغضه له .

ولا شك أن حافظا كان يهزأ بكتشنر ويعيبه بين أصحابه من الضباط لأن عبثه وتراخيه لا يطيقان جد كتشنر وحزمه .

ولا شك أيضاً أن فى هؤلاء الضباط عيوناً على أمثال حافظ من العابثين المتسخطين يبلغون رآستهم كل ما يسمعونه ويرونه .

وقد بلـغ حنق كتشنر من حافظ أنه كتب أمام ملفه الخاص : « لا يرفت ولا يرق » . ليمسكه تحت سلطانه للتنكيل به وتعذيبه .

ومن عرف أخلاق حافظ يدرك تماماً أنه كان لا يستطيع أن يمسك لسانه عن ذم من يبغضه . وأن صدره يضيق بكل سر . فإذا أحب انسـاناً أراه ذلك بغير مواربة . ولو كره واحداً أبدى له صفحته ظاهرة

واضحة من غير لبس ولا مداراة . وقد غفلت طيبة حافظ عن سعى هؤلاء العيون التى لاتغفل عن الدس لإخوانهم فى معظم البيئات المصرية . أولئك الذين يصعدون على أشلاء ضحاياهم ليرتقوا فى أعمالهم أو ليغنموا مالاحراماً.

وهؤلاء كانوا دائماً عدة المستعمرين الإنجليز فى كل بلد ينزلونه ، يتخذون منهم بطانة يغدقون عليهم الأموال ، ويقلدونهم أسمى وظائفهم ، ولكنهم يحتقرونهم فى أنفسهم .

وكان حافظ لا يكتم دفائن صدره كما قدمت . فقد كانت فيه سذاجة وفيه دعابة . وهما خلتان بارعتان فى التشنيع والتشهير . وهما إذا اجتمعتا كانتا بلاء على صاحبهما وعلى الناس . ولم يقف حافظ عند تشنيعه بكتشنر والسخرية منه فى المغيب . بل جاوز ذلك إلى رئيس فرقته وهو مصرى . كان يجوز أن يقف معه فى التنصل من الذم الذى يبلغ مسامع كتشنر فيه منه .

لقد أحنق الرجل بما كان يقوله فيه من قول منطوق ومكتوب

كان حافظ يقرأ فى كتب الأدب ودواوين الشعراء هجو ابن الرومى وبشار بن برد والحطيئة وغيرهم للرؤساء فشحذ موهبته ليطمئن عليها فى اجادة هذا الفن فقال فى رئيسه المصرى :

تراه اذ ينفخ فى المزمار * تحسبه فى رتبة السردار

يجتنب العاقل والنبيها * ويعشق الجاهل والسفيها

هل كان حافظ يرجو من رفعت بك الذى يساويه فى خيبة الدراسة ولا يلحق به فى تذوق الأدب العربى وقول الشعر أن يقربه هو لأنه أديب قرأ المتنبى وأبا العلاء والشريف الرضى .

وهل يظن أن هذا الأفق الضيق فى رأس رفعت بك كان يجب عليه أن يتسع ليسمع منه نوادره ومحفوظاته الأدبية ثم لا يسأله بعد ذلك عن نظام ولا فوضى .

ولا تزال هذه الأمانى المغرورة تطيف برؤوس بعض الأدباء الذين يظنون أن كل إنسان لا يحسن أدبا ولا يقرأ شعراً دونهم فى المنزلة مهما أجاد فيما وجه له .

وقد كانت هذه العلة سبب بؤس هؤلاء وإخفاق حظهم فى دنياهم ثم البكاء بعد ذلك والشكوى والتنديد بغباء الإنسانية .

قد اجتمع الرئيس الأعلى والرئيس الأدنى على ارهاق حافظ واذلاله وهو مفرد مسكين لا واسطة ولا موئل يسندانه. وأين يذهب هذا الضابط الصغير ابن المهندس الصغير الذى دخل الجيش ليأكل الخبز لا ليخدم الوطن ؟أين هو من اللورد كتشنر الذى بلغ من هيبته أن مجلس الوزراء البريطانى كان لا يقف فى وجهه . ولو كان رأيه الخاطىء قد كلف الإمبراطورية البريطانية عشرات الآلاف من الجنود والملايين من الجنيهات فى حرب الدردنيل سنة ١٩١٥ كما يقول لويد جورج .

وأين هو من رفعت بك رئيس فرقته الذى مرن على الدس والطاعة الذليلة لرؤسائه من الإنجليز وغيرهم من المصريين. فهو إذن قد وقع بين شقى الرحى كما يقول المثل العربى .

وتهب عاصفة من التمرد بين الضباط فتلف حافظا حتى تكبه على وجهه . قال فى ليالى سطيح :

« صدرت مشيئة القائم بالأمر فى السودان بجمع ذخيرة البنادق من أيدى الجنود . فتساءل الناس عن هذا النبأ ؟ ومشى بعضهم إلى بعض وقد أرجفوا يومئذ بسقوط الوزارة وانحراف الأمير عن القوم فكثر التأويل كما كثر القيل والقال. فتنبأت طائفة أن سبب هذه المشيئة هو التحرز والتوقى ضد انتقاض الجيش وقد نما خبر خذلانهم فى أوليات الحرب الترنسفالية .

وظنت طائفة أخرى: أن سببها هو ذلك الفتور الذى زعموا أنه واقع بين الأمير والقوم . وقال ذو الأسنان منهم : إنها محنة من محن السياسة يبلون بها طاعة الجيش » .

وبعد أن ذكر حافظ اتهام الإنجليز للمصريين فى ولائهم لهم وغضب السودانيين إذا مسوا بسوء . قال قائل منهم :

« أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنود ونحن فى بلد غير أمين على دمائنا ــ يعنى بث الدعاية المهدية بغض المصريين فى نفوس السودانيين .

وكان بقرب ذلك النادى رهط يسترقون السمع ويتسقطون الخبر وكانوا ممن بايعوا وشايعوا مع القوم فهم يعبدون الرداء الاحمر — يعنى الانجليز — والفارس الاصفر — يعنى الدينار الذهب — فلم يجدوا شيئا يلقون صاحبهم به — يعني كتشنر — هو أقرب زلفى من نقل ما سمعوه فاستبقوا بابه . ورفعوا اليه الامر على غير وجهه فوقع كلامهم فى نفسه ووعدهم خيراً . »

ثم تحدث حافظ بعد ذلك عن فرقة سودانية غاظها أن تجرد من ذخيرتها . فارتجعتها بالقوة بعد أن اعتدت على ضابطها بالضرب والأذى.

ثم يتحدث حافظ عن جزع كتشنر من هذا الحادث فيقول :

« فعظم الامر على صاحب الأمر . وكادت تخلع شعبة مهجته هلعاً . ويقطع نياط قلبه جزعا . وتمثل له شخص واشنجتون . وفى يده علم الاستقلال وطار به الوهم إلى لاديسمث فانحلت منه الأوصال . فجمع نفرا من قومه وشاورهم فى الأمر . فأشاروا عليه بالتماسك وأن يتراءى للجنود فى هيئة المتفقد للشئون المستخف بالكوارث .

فخرج وهو مقلقل الشخص على جواده لا يصحبه حرس ولا يماشيه أحد من قومه . وكان يكون معه عند جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته وامضاء أمره .

فما زال يستقرىء الوجوه والأبصار . وهو كلما مر بقوم تراصت

أقدامهم والتصقت أيديهم بجباههم وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع .

حتى إذا صار بمكان الموقعة وقد طرح عن منكبه رداء الفزع . فإذا جيش من النسوة يموج بعضهن فى بعض وفى يد كل واحدة منهن هراوة .

فما هو إلا أن طلع عليهن حتى عطفن عليه يعبسن فى وجه جواده . فأشفق أن يصيبه عنت منهن . فلوى رأس جواده وأخذ يحثه هربا ومازال يركضه ملء فروجه حتى وصل الى دار حكمه .

فلما آمن فى سربه أصدر مشيئته ثانية بابقاء الذخيرة فى أيدى الجنود حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود » .

ويقتضينا الانصاف ألا نساير حافظاً فى النيل من شجاعة كتشنر . فحافظ موتور والموتور مهدور الحكم على واتره .

فكل من عرف كتشنر يشيد بشجاعته فقد كان رجلا شجاعا لايهاب شيئا ثابت الجأش عند الروع . وقد رأيت هذا الرجل فقد كان فارع الطول ضخم الشارب له عينا صقر ترد عليك منه سحنة رهيبة وشخصية ساحقة . تخاله أحد أبطال طراودة رجع به الزمن القهقرى بعد أن خلع عنه جلود النمور وألبسه ثياب العصر .

ويقول حافظ فى شأن هذا التمرد :

« ولما اهتدى المحقق الى مالا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة

الغيب وجمع فى خريطته مايربو على الثمانين اسماً . خف الى كبيره وقد حمل ظالما . فو الذى علم آدم الأسماء كلها ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه .

فقال له كبيره وقد نظر فى الأمر نظرة الحكيم : إنى لا أرى رأيك فى عقاب هؤلاء الثمانين وما جرت الثورة العرابية الى ما يقارب ذلك العدد ولكن نضرب عليهم القداح ( القرعة ) فمن صادف النحس سهمه حق عليه العقاب ولا تجاوز تلك القداح أنامل الكفين عدا .

فإذا فعلنا ذلك أمنا شر العاقبة و فزنا بالغاية من إرهابهم وما أحسبهم بعد ذلك الا وقد صدقت قلوبهم وانصرفت وجوههم عن بعضهم بعضا ومتى انتهى فصل العقاب عمدنا الى النظر فى وجوه مطالبهم فأدخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم وحبونا بعضهم بالنياشين » .

هكذا يصف حافظ أنباء هذه الثورة التى قدمت ثمانية عشر ضابطا وفيهم حافظ الى العقاب .

وقد ذكر هذه الحادثة اللورد كرومر فى كتابه عباس الثانى قال :

« عندما شبت حرب جنوب أفريقيا عاد كثير من أفضل الضباط البريطانيين الذين كانوا يقودون فرق الجيش السودانى الى فرقهم الأصلية فى الجيش البريطانى . ونظراً لبعض الملابسات التى لا حاجة الى ذكرها والتى ما كانت تقع لو لم يضطر هؤلاء الضباط الخبيرون الى السفر .

وحدث أثناء ذلك استياء فى الجيش وجاهرت فرقة من فرق الجيش السودانى بالعصيان . وقد كثرت الاشاعات .. بان الخديو قد قال أقوالا تجعل الثائرين يعتقدون أنه راض عنهم عاطف عليهم . على أن الثورة أخمدت بدون إراقة الدماء . وحوكم عدد من الزعماء أمام المجالس العسكرية وحكم عليهم بالسجون مددا مختلفة . وأرسلوا الى مصر ليقضوها بها . ولما حادثت الخديو فى هذه المسألة رأيت من الحكمة أن أتجاهل ما كان يقال عن اشتراكه فى الثورة لأن ذلك لاسبيل الى إثباته . واقتصرت فى حديثى على وصف الحادثة والخيانة العظمى التى ارتكبها بعض جنده نحو سموه . واقترحت عليه أن يرى المحكوم عليهم ويخاطبهم بكلمات اخترتها وعربتها له . فوجد الخديو نفسه فى مأزق حرج وموقف لا يدرى كيف يخرج منه لانه اذا رفض — يعرض نفسه للشبهة فى أنه حرض على الثورة فى جيشه . كما فعل جده من قبله — واذا قبل يتضح للثائرين ألا أمل لهم بمساعدته . وبذلك يفقد كثيرا من احترامه ونفوذه فى الجيش . على أنه كما كنت أتوقع اختار الامر الاخير .

هذه قصة هذه المؤامرة كلها . وقد نفى حافظ أن يكون أحد أفرادها كما نفى المؤامرة عن الثمانية عشر ضابطا الذين ظلمتهم القرعة وساقتهم الى السجن أو الطرد من الخدمة .

وكأن هذه القرعة التى ذكرها حافظ قصة قاضى قم . يوم أن عزله الخليفة ببيت من الشعر وضعه هو فقد قال :

أيها القاضى بقم * فقد عزلناك فقم

فقال الرجل : والله ما عزلتني الا القافية .

وحافظ ولا شك كان على شاطىء هذه المؤامرة . وربما لم يدخل فى الاعماق . ولكنه كان يكره كتشنر ويكره الانجليز لبغضه فى كتشنر الصارم .

فلابد أنه كان يثرثر وكان ينقد الانجليز ويشجع على التمرد . ولكن خوفه على ذاته الذى لازمه دائما تركه لايقتحم حومة المؤامرة . ولكنه أخذ بلسانه لانه لا يعرف كيف يمسكه . وكان عقابه أهون من عقاب غيره من المتمردين . فقد اكتفوا باحالته الى الاستيداع سنة ١٩٠٠ .

فاعتزل وراتبه فى الاستيداع أربعة جنيهات شهريا .

وفى يقيني أن حافظا لم يحزن لتركه الخدمة فى السودان فقد كان ضائقا بها أشد الضيق فهو يقول :

وما اعذرت حتى كان نعلى * دما ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتني الشمس عبدا * صبيغاً بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الإملاق ظفرى * وحتى حطم المقدار نابى
متى أنا بالغ يا مصر أرضاً * أشم بتربها ريح الملاب

وكتب أيضاً الى صديقه يشكو فى العام الذى بارح السودان فيه الى غير عودة :

سلام الله يا عهـــد التصابى * عليك وفتية العهد القـــديم
أحن لهم ودونهم فـــلاة * كأن فسيحها صدر الحليم
كأن أديمهـا أحشاء صب * قد التهبت من الوجد الأليم
كأن سرابهـا اذ لاح فيها * خـــداع لاح فى وجه اللئيم
تضل بليلها ( لهب ) فتحكى * بوادى التية .. أقوام الكليم

ولهب : قبيلة من اليمن كانت على معرفة تامة بالنجوم تسرى على ضوئها وتتعرف بها السبل .

وتمشى السافيات بها حيارى * اذا نقـل الهجير الى الجحيم
فمن لى أن أرى تلك المغانى * وما فيها من الحسن القـديم
فما حظ ( ابن داود ) كحظى * ولا أوتيت من عـــلم العليم
وما أنا مطلق كالفكر أسرى * فأستبق الضواحك فى الغيوم
ولـكنى مقيـــدة رحالى * بقيد العـدم فى وادى الهموم
نزحت عن الديار أروم رزق * وأضرب فى المهامـة والتخوم
وما غادرت فى السودان قفرا * ولم أصبـــغ بتربته أديمى
وها أنا بين أنيـــاب المنايا * وتحت براثن الخطب الجسيم

والقصيدة طويلة وفيها غير الشكوى فخر ومديح .

والغالب أن لورد كرومر كان صادقاً فيما نسبه الى الخديو من أنه هو المحرك لهذه الثورة فى السودان . ويسند هذا الترجيح قول حافظ .

وقد أرجفوا يومئذ بسقوط الوزارة — يعني الضباط — وانحراف الأمير عن القوم .

ولا شك أن عباسا الثاني . كان يمقت الإنجليز ويكره احتلالهم . وكان ينقم على أبيه ممالأتهم ويحتقره لأنه مكن للقوم في البلاد . وليس ذلك حباً في مصر . ولكن رغبة منه في الاستقلال بالإمرة ليسير على هواه وشهواته .

وكان يود أن يعوض على المفصولين بعض مالحقهم من أذى .وليكن هذا التعويض من غير ماله كعادته في إسداء المعروف الى الناس .

فقد أمر شوقي أن يمشي بحافظ الى صحيفة الأهرام ليعمل فيها ولكن صاحبها اعتذر .

وكان يستطيع عباس الثاني الواسع الغنى والمتنظر على أوقاف تبلغ مساحتها عشرات الألوف من الفدادين أن يمد يده الى هؤلاء بالمعونة ولكنه لم يفعل لشحه .

فكيف يستطيع رجل ضرب أحد عمال حدائق قصر القبة ضرباً متلفاً لأنه وجده يأتدم بحبة من الطماطم مقطوفة من الحديقة .

كيف يستطيع أن يهب الهبات لثمانية عشر ضابطاً نصلوا عن أعمالهم وتعطلت أرزاقهم في سبيله . لا ، انه لن يفعل ذلك وليذهبوا الى الشيطان والى التبطل والتسكع في الطرقات .

نزل حافظ القاهرة محالا الى الاستيداع براتب لايزيد كما قلنا على أربعة جنيهات · وآوى الى بيت خاله فى حى المغربلين حيث كانت أمه التى لم تبرح دار أخيها قط ·

وتضيق الدنيا فى وجهه · ويبث شكواه ويملأ الاسماع ضجة بأنه بائس · وأنه أديب أصابته حرفة الادب · ويقعد به كسله عن السعى الى الرزق · وقد كانت أبواب الارزاق فى هذا العهد مفتوحة للمكافحين فى سبل العيش · ولم يكن الزحام الذى نراه اليوم فى المنافسة وضيق الابواب فى الوجوه موجودين فى مفتتح القرن العشرين · وذلك لقلة الناس ولهبوط المستوى العلمى ·

كان يستطيع حامل الابتدائية وساقطها العثور على أعمال فى يسر وسهولة · ولكن هل يرضى الشاعر المغرور والضابط الذى يتلقى الايدى المرفوعة الى الجباه من جنوده وغير جنوده بايماءة من رأسه او بغير ايماءة من رأسة ·

هل يرضى · أن يعمل كاتباً فى متجر أو موظفاً فى مؤسسة أهلية او مصححاً فى صحيفة يومية او اسبوعية او تاجراً صغيراً يجلس على ناصية شارع من الشوارع أمام دكان من خشب صغير يضم علب السجاير او أنواعا من الملبن والحلوى تباع للاطفال وغير الاطفال ·

هل يرضى ان يكون كالميرالاى حسين شاكر الضابط الذى وقف

امام سراى مصطفى باشا فى الاسكندرية يحرس توفيقاً بامر عرابى خشية هروبه واتصاله بالاسطول البريطانى .

هذا الضابط الذى دعاه توفيق وأمره أن يفك حصاره فأبى الا أن يأمره عرابى بذلك . ثم هزم عرابى وفصل حسين شاكر ففعل مالم يفعله حافظ . فقد افتتح متجراً متواضعاً للدخان فى زقاق ليعيش . ولكن حسين شاكر لم يكن شاعراً . يرفعه الخيال الى قمة عالية ينظر منها الى الناس الكادحين نظرة احتقار ثم يشكو بعد ذلك دهره ويلعن الزمن وأهل الزمن ويقول :

سعيت الى أن كدت انتعل الدما * وعدت وما أعقبت الى التندما
لحى الله عهد القاسطين الذى به * تهدم من بنياننا ما تهدما
اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم * فلا تك مصريا ولا تك مسلما
سلام على الدنيا سلام مودع * رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختها * وان ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبى رياح الموت نكباء واطفىء * سراج حياتى قبل أن يتحطما
فما عصمتنى من زمانى فضائلى * ولكن رأيت الموت للحر أعصما
فياقلب لاتجزع اذا عضك الأسى * فانك بعد اليوم لن تتألما

وهى قصيدة طويلة .

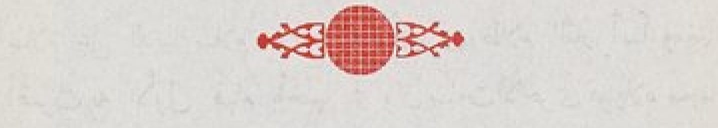
ولم يكتف شاعرنا بهذا بل قال أيضاً فى قصيدة عنوانها الاخفاق بعد الكد .

لـكننى غير مجدود وما فتئت * يد المقادير تقصينى عن الأرب

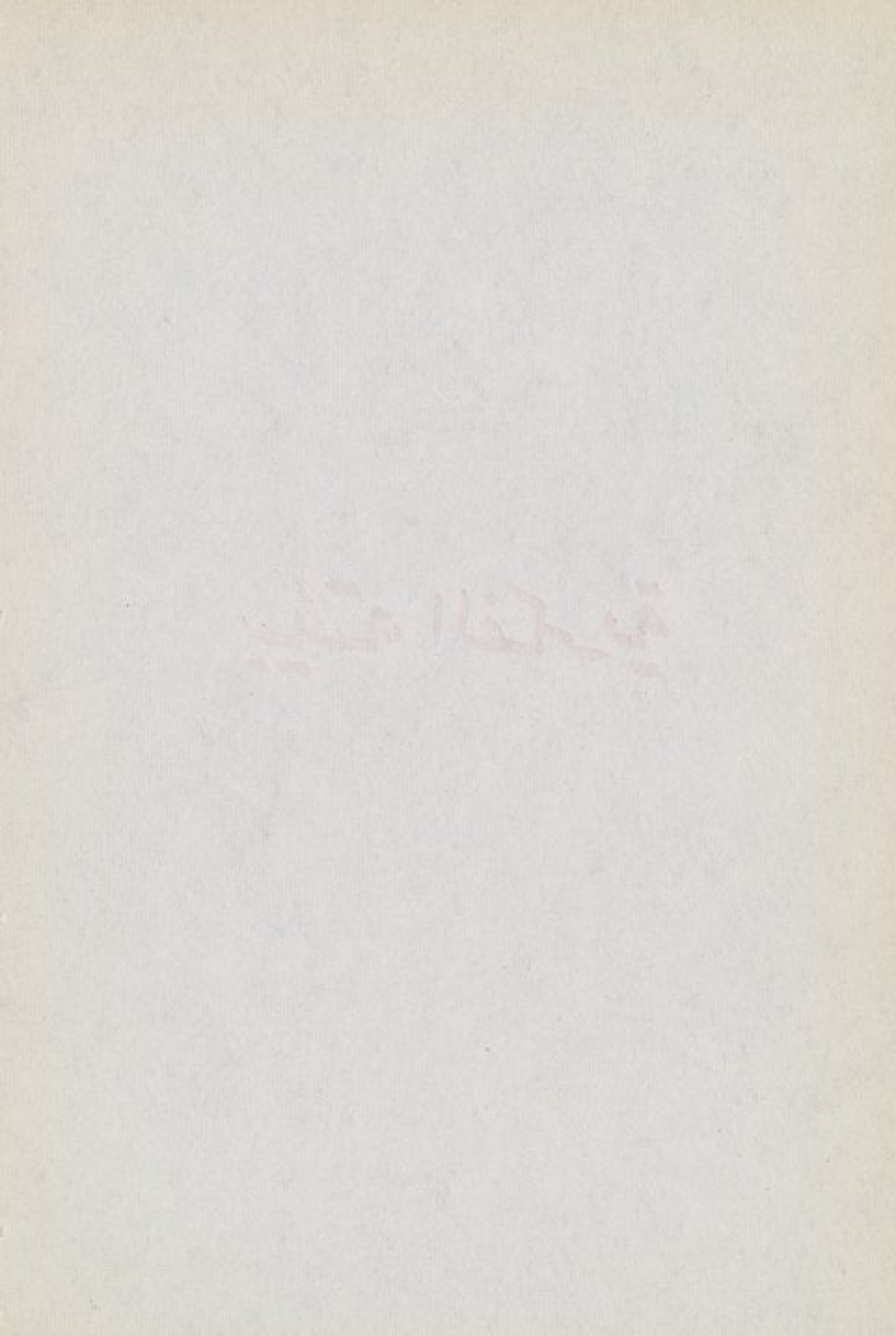
وقد غدوت وآمالى مطرحة * وفى أمورى ما للضب من ذنب

فان تكن نسبتى للشرق ما نعى * حظا فواها لمجد الترك والعرب

والواضح فى ديوانه أن غالبية شكواه قد بثها فى شعره سنة ١٩٠٠ وهى السنة التى ترك فيها السودان الى مصر محالا الى الاستيداع · فلنتركه هنا ونذهب معه بعد ذلك فى باب آخر · وسنتعرض فى سياق هذا الـكتاب فى لهذه الشـكوى وذلك البؤس اللذين أراد أن يلصقا به دائما ·



# بيئته الفكرية



لابد لنا قبل التعرض لبيئته الاجتماعية التى جعلت منه شاعرا اجتماعيا . وللأماكن التى كان يرتادها وأصدقائه الذين تاثر بهم وأخذ عنهم ظرفه وأخلاقه وتوجيهه .

لابد لنا أن نعرض قبل ذلك لبيئته الفكرية التى أفاد منها أدباً شعبياً تاركين ثقافته عند الكلام عن فنه .

نزل حافظ القاهرة مطرودا من السودان سنة ١٩٠٠ وكانت أشهر الصحف العربية وأقدمها صحيفة : الاهرام .

وقبل أن تظهر الاهرام أول ما ظهرت فى الاسكندرية سنة ١٨٧٥ كانت الصحافة قبل ذلك فى حقبتها الاولى .. ثلاث صحف حية — الوقائع المصرية — مجلة وادى النيل — ومجلة يعسوب الطب .

وكان صاحب امتياز الاهرام ورئيس تحريرها..سليم تقلا ومديرها.. بشارة تكلا . وكانت أول عهدها أسبوعية صغيرة الحجم .

وكانت تبتكر طريقة طريفة فى الفن الصحفى أخذتها عنها سائر الصحف المصرية والعربية .

ثم تطورت وصارت يومية . وفى سنة ١٨٧٩ سجن أحد صاحبيها لانه ندد بالخديو اسماعيل .

وبعد حدوث مذبحة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ هجم الثائرون على مطبعة

الاهرام فاحرقوها . فقد وقع فى وهمهم أنها كانت تناصر توفيقا عليهم .

وبعد وفاة سليم تقلا سنة ١٨٩٢ استقل أخوه بشارة بالصحيفة . ثم رأى سليم أن يذهب بصحيفته الى القاهرة فزاد فى حجمها وجعلها من كبريات الصحف العربية كما يقول فيليب دى طرازى صاحب كتاب تاريخ الصحافة العربية .

وكانت سياسة الاهرام تساند الدولة العثمانية وسياستها وتؤيد سلطانها فى مصر . كما كانت تميل الى فرنسا وتشيد بامجادها . ويبرر هذا العمل فيليب دى طرازى فيقول :

وكانت سياستها الخارجية تميل الى فرنسا لعدة أسباب ذاتية وعامة . فأما الاسباب الذاتية فهى أن فرنسا حمت أحد مؤسسى الاهرام من اسماعيل الخديو أيام سجنه . وكان على وشك أن يأمر بقتله . وأما الاسباب العامة فهى أن الخطة التى جرت عليها فرنسا وجدت مطابقة للمرام من حيث صداقتها التاريخية للباب العالى ومناظرتها لانجلترا فى وادى النيل واهتمامها بمصالحه .

فكانت خطة الاهرام : الدفاع عن مصر والذود عنها . تفعل ذلك فى مقالات تنشر فيها .

وقدقرر ذلك أعيان المصريين فتألف وفد من نواب شورى القوانين والمجالس العمومية فزار الاهرام وأهدى كلا من صاحبيها ساعة ذهبية .

فغضبت الحكومة وعطلت الاهرام . ثم اعتذرت الحكومة للاهرام بعد ذلك . وأذنت لها بالصدور .

ووقفت الاهرام للثورة المصرية سنة ١٩١٩ . موقفاً رائعاً . وكتبت فى عناوينها ( جريدة مصرية للمصريين ) وقد اتخذت هذا الشعار عن جريدة المحروسة التى أسست سنة ١٨٨٠ لصاحبها سليم نقاش. وكانت الاهرام ولا تزال منبرا للفنون والتاريخ والعلوم والادب . فقد كتب فيها أعلام الشرق العربى كلهم . وكان حافظ ابراهيم يخصها بقصائده فى أغلب الاوقات .

وكان هناك جريدة المقطم ، وقد أسسها ثلاثة هم : يعقوب صروف ، وفارس نمر ، وشاهين مكاريوس . والأولان يحملان لقب دكتور ، وقد حصلا عليه من الجامعة الأميركية فى بيروت . والثالث كان عامل مطبعة ثم ثقف نفسه حتى أصبح صحافياً ثم أديباً . وهو جد كريم ثابت .

وحدثني توفيق حبيب رحمه الله وهو الصحافى العجوز . وكان حجة ثبتاً فى تاريخ الصحافة وفى غير تاريخ الصحافة من الشئون الإجتماعية . قال: نزل القاهرة ثلاثة من الرجال ليس بينهم قرابة إلا صلة المنفعة وتصيد الرزق .

وكان نمر وصروف يصدران فى بيروت مجلة المقتطف المعروفة فحملاها معهما الى مصر بغية إصدارها فيها . وأما الثالث فاللإنتفاع به فى هذه الشركة المهاجرة لإتقانه فن الطباعة .

نزل الثلاثة القاهرة . واتخذوا دكانا صغيراً فى شارع أولاد عنان[1] وسموه : دار المقتطف . وأخذوا يصدرون هذه المجلة .

ثم نمى اليهم أن اللورد كرومر . كان قد فاوض أحد الصحافيين اللبنانيين فى إصدار صحيفة تدافع عن الإحتلال البريطانى فى مصر . فاستمهل الصحفى اللورد حتى يذهب الى بلده لينهى أعماله هناك ثم يحضر لإصدار الصحيفة المتفق عليها .

وكان من حسن حظ الرجال الثلاثة إن شئت أن تسمى الكسب من أذى الناس حسن حظ .

كان من حسن حظهم أن صاحبنا الصحفى عاقته أمور عن الإسراع فى تلبية طلب اللورد وتأخر فى بلده .

فاغتنموها فرصة سانحة واجتمع ثلاثتهم وتوجهوا الى الوكالة البريطانية كما كانوا يسمونها يومئذ . والتمسوا مقابلة اللورد . فأذن الثعلب البريطانى لهم . فقال كبيرهم فارس نمر — الذى زوج ابنتيه بعد ذلك من زوجين انجليزيين أحدهما : مستر سمارت السكرتير الشرقى فى دار المندوب السامى الذى مكث يسىء الى مصر إساءة بالغة أعواماً طويلة .

وثانيهما الدكتور استيفن : الذى كان يعمل مديرا لمستشفى

---

(١) شارع الجمهورية .

الدمرداش بوصية من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحيم الدمرداش حفيد محبوب النبي كما يقول العامة .

وقد يئس الدكتور من موت فارس نمر لطول عمره فطلق زوجته ، بعد أن أصبح مسلماً . فراراً منها .

تقدم الدكتور فارس وقال للورد : « علمنا أن جنابكم السامى قد تفاوضتم مع أحد الصحافيين فى اصدار جريدة تدافع عن الإحتلال البريطانى . وأن الصحفى قد تأخر عن الحضور ونحن نقوم بما تريدون ونؤيد سياسة الإحتلال الإنجليزى فى مصر الذى هو حق » .

نظر ذلك اللورد بعينيه الغائرتين العميقتين اللتين يظللهما حاجبان كثيفان . ومسح الرجل البدين القصير الضخم الأنف الذى يحمل سحنة أسيوية تجمع بين الدهاء والجشع ، وصدقته الفراسة فى الرجل.وقال: « إن شروطى ألا تزجوا باسم الوكالة البريطانية إذا أخطأتم فقدمتم للقضاء . ثم توهمون الناس أنكم إنما تدافعون عن الاحتلال البريطانى للعقيدة وللإحسان إلى مصر . ثم لكم بعد ذلك من الأموال ما تشاءون » .

وهذا هو الغرض الذى سعى إليه فارس وصاحباه . ذلك الغرض الذى بلغ مليونين من الجنيهات تركها هذا الرجل التاجر .

رضى الفرسان الثلاثة بهذا العرض السخى فى مادته والمعدم فى

آدميته . ونصبوا أنفسهم مدافعين عن الاحتلال ، يسبحون بحمده ويجأرون بشكره .

وساندهم المحتل بريحه القوية . وفطن وزراؤنا صنائع المحتل لتلك القوة المستمدة من كرومر فآمنوا بالمقطم ، وصانعوا المقطم وكتبوا فى المقطم . وآثروه بأخبارهم وأخبار السياسة المصرية ، وأخبار دواوينهم . وفيه كان يكتب نوبار وكان يكتب رياض ، وفيه كان يكتب مصطفى فهمى .

ولم يكتف الفرسان الثلاثة بصحيفة المقطم وحدها للدفاع عن المحتل . فقد حولوا مجلة المقتطف إلى الإشادة بعلماء الإنجليز وأدباء الإنجليز ومخترعى الإنجليز .

ونهض المطبعجى القديم مكاريوس ، فتفتق ذهنه عن مجلة اللطائف ، فوقفها للدفاع عن الإنجليز وحشاها بأحاديث قصار فيها طلاوة وفيها متعة للقارىء الفارغ . ثم جاء إبنه من بعده وأدخل عليها فن التصوير . وسماها اللطائف المصورة ، وقدم جورج الخامس والملكة مارى والبرنس أوف ويلز فى صور ملونة رائعة .

وأقبلت الدنيا على تلك الصحف ، تغدق على أصحابها الأموال . فقد اختصتهم حكومة السودان الإنجليزية بطبع ما تحتاجه من أوامر

ولوائح وتعليمات مالية وغير مالية ، وكل ما تحتاجه حكومة من أعمال تحتاج إلى مطبعة .

وظلت المقطم سادرة فى غلوائها ومعها صاحبتاها لاتستحى ولا تخاف ولا تأبه لغير السادة الإنجليز . فقد حاربت مصطفى كامل ، وحاربت على يوسف ، وحبذت التنكيل بالمواطنين فى دنشواى ، واقترحت أن ينزل السير مكماهون أول مندوب سامى بريطانى سنة ١٩١٦ عابدين ، ويتخذها ديوانا لحكمه . ولكن الإنجليز ، كانوا أكثر حياء منها ، فأنزلوه قصر الدوبارة ، حيث كان ينزل من جاء قبله من السادة الإنجليز .

وظلت المقطم وأصحابها حرباً على مصر حتى سنة ١٩١٩. حيث هبت الثورة المصرية ، وقبض على سعد زغلول ومحمد محمود وحمد الباسل واسماعيل صدقى ، وطوحت بهم السلطة العسكرية الإنجليزية إلى مالطة .

وثار طلبة المدارس يوم ٩ مارس سنة١٩١٩ يهتفون باسم سعد وصحبه، ويلعنون الإنجليز . فانبرت المقطم تسفه أحلام هؤلاء الصبية فى زعمها ، وتحض على أخذهم بالشدة .

فتحول القطيع الثائر إلى مهاجمة المقطم وتمزيقها أينما ثقفوها .

وامتنع عمال التوزيع عن حملها ، فطلبت الحماية من سادتها ، فأقاموا على أبوابها حراساً منهم يحملون المدافع والبنادق . فلم تستطع الثبات ، ورأت

أن أصحاب الأمس لن يغنوا عنها شيئاً أمام هذه الثورة المتدفقة الجامعة . فانحنت للعاصفة ، واتجهت سفينة سياستها إلى النهر الجديد النابع من الثورة . فحاسنت مصر ، وانحرفت عن نهر التايمز بقدر يحمل عذرها فى هذا الاتجاه الجديد .

ومن الإنصاف : أن هذه الصحيفة كانت ترفض فى أنهرها التعريض بالأعراض . كما كانت ترفض حمل الإعلان للخمر . وكانت تجامل فى أدب .

زرتها مرة عندما أنشأنا جمعية الشبان المسلمين . وأنا أحمل إعلاناً مأجوراً عن الجمعية لنشره ، فأبت أن تتقاضى الأجر ، ونشرت الإعلان مرتين متعاقبتين .

وكنت قد حملت هذا الإعلان إلى صحف تتشدق بالدفاع عن الإسلام. فأبت إلا أن تأخذ الأجر عنه مضاعفاً ، عما تقاضاه قسم الإعلان فى صحيفة الأهرام .

وكان رئيس تحريرها الأستاذ خليل ثابت لايغلق بابه فى وجه أحد، ولا يقيم الحجاب . فيكفيك أن تدفع الباب فى رفق ، فإذا به جالس على مكتب متواضع وتحته كرسى من الخيرزان الحائل اللون .

وكان خليل ثابت فى إبان الحرب الأولى يكتب خلاصة أخبار الحرب.

وكان ملهماً ثابت النظرة ، يكاد يعلم ما يأتى به الغد حصافة وصدق رأى .

ونشر حافظ فى المقطم رثاء الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١ وتهنئة المقتطف بعيده الخمسينى . واستقبل فيه السير مكماهون سنة ١٩١٥ معتمد بريطانيا . ثم رثى فيه أحد الفرسان الثلاثة يعقوب صروف سنة ١٩٢٨ ، ومدح فيه أدوارد ملك الإنجليز .

وكان حافظ يعمل فى الحقل المضاد . كان صنيعة الشيخ على يوسف صاحب المؤيد عدو المقطم . وشاعر اللواء الذى كان صاحبه مصطفى كامل الذى كان يريد أن يقذف بالإنجليز إلى جزيرتهم فى بحر الشمال ، والناعب فى جنازة دنشواى ، التى كان يقف فيها المقطم فى جنبة الإنجليز ضد المصريين .

وكان هناك المؤيد ومؤسساه : الشيخ أحمد ماضى والشيخ على يوسف . الذى عمل رئيساً لتحريره ، وهو الشيخ على يوسف الأزهرى الصعيدى . كان رجلا أديباً ملهماً . حتى أن بعض الأدباء ، الذين قرأوا كتب الغرب واستوعبوها ، كانوا يتهمونه أنه ينقل أفكار كبار الفلاسفة وكبار العلماء إلى مقالاته التى كان ينشرها فى المؤيد .

وكتب مرة مقالا فى الفقه الدولى . فاتهموه أنه أخذه عن أفذاذ القانونيين الأجانب .. والرجل برىء ، فهو لم يعرف غير العربية ، ولم يقرأ إلا كتب العرب ، ولكن رجحان عقله وذكاء قلبه وحكمه على

الأشياء ، أقامت عنده مقام الدرس والتعمق فى علوم الغرب .

وقد بلغ هذا الرجل بعصاميته . ما لم يبلغه غيره بآبائهم وأموالهم وعصبيتهم . وكان لهذه الأمور فى عصر الشيخ على يوسف شأن بالغ الأهمية .

أراد أن يكون شريفاً ، فكان . وأراد أن يصاهر نقيب السادات فصاهر . وقامت حوله الأعاصير . وحيل بينه و بين زوجه الشريفة المنبت . فجاهد حتى رد زوجه إليه . وقد ناصره حافظ فى هذا الموقف فقال :

وقال المؤيد فى غمرة * رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول * فجن جنوناً ببنت النبى
فضج له العرش والحاملوه * وضج له القبر فى يثرب
ونادى رجال بإسقاطه * وقالوا : تلون فى المشرب
وعدوا عليه من السيئات * ألوفاً تدور مع الأحقب
وقالوا لصيق ببيت الرسول * أغار على النسب الأنجب
وزكى ( أبو خطوة ) قولهم * بحكم أحد من المضرب

أبو خطوة : اسم القاضى الذى حكم بالتفرقة بين الشيخ على يوسف وزوجه :

فما للتهانى على داره * تساقط كالمطر الصيب

وما للوفود على بابه * تزف البشائر فى موكب
وما للخليفة أسدى إليه * وساماً يليق بصدر الأبى
فيا أمة ضاق عن وصفها * جنان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا * ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم * ويكرم فينا الجهول الغبى
على الشرق منا سلام الودود * وإن طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خصباً بجدب الزمان * فأجدب فى الزمن المخصب

وقد وصل الرجل بشخصيته إلى الشجرة النبوية فاحتل فيها فرعاً ، لم يصل إليه آباؤه . لأن هذه الشجرة لم تمتد أغصانها إلى بلدة بلصفورة فى صعيد مصر . وكان أبعد نظراً من فاروق وأمكن قوة . فقد مات وهو السيد على يوسف حفيد النبى . وشيخ مشيخة السادة الوفائية ، وهى فى طليعة الهيئات الدينية الشريفة . فأما فاروق فقد تراجعت نسبته عنه ، لأنها كانت رهينة بعرشه .

أسس المؤيد أحمد ماضى بمشورة صديقه على يوسف سنة ١٨٨٩ . وهى السنة التى أسس فيها المقطم . وكان ظهور المؤيد منافسة للمقطم الذى عرف عنه أنه ظهر للدفاع عن المحتل .

وكانت سياسة المؤيد إسلامية شرقية .

ويعرض أحد صاحبيه : أحمد ماضى بعد شهور قليلة من صدور

المؤيد . فيسعى بعض المعجبين بالشيخ على يوسف فى شراء حصة أحمد ماضى ويقدمونها للشيخ هدية .

ثم يصبح المؤيد مجالا لأقلام الوطنيين الذين يناصبون الإحتلال البريطانى العداء . فهم بذلك يناهضون أصحاب المقطم المأجورين .

ويغضب الخديو توفيق من المؤيد لأن السعاة سعوا إلى هذا الخديو المتردد دائماً ، سعوا إليه : بأن المؤيد إنما هو داعية إلى حزب وطني سرى يعمل لإسقاطه عن العرش . ولكن رياض باشا كان يدافع عن المؤيد لأنه هو الذى اصطنعه وساعد فى تأسيسه .

ثم يجىء مصطفى فهمى الذى شهد قتل المفتش ويقتعد كرسى الوزارة ستة عشر عاماً لا يتزحزح . وقد استراح على هذا الكرسى . لأنه مالأ الإنجليز ، وجرى فى ميدانهم ونفذ رغائبهم ، وهو أبو السيدة التى خاصمت الإنجليز وتعرضت لهم بالإيمان ، وتعرضوا لها بالقسوة . وقذفوا ببعلها إلى صخرة فى المحيط لم تكن أقل وحشة ولا أقبح مناخا من صخرة سانت هلين .

خاصم مصطفى فهمى المؤيد . فحجب صاحبه عنه ومنع مخبريه من دخول دور الحكومة ، ولفق له التهم التى برأه منها القضاء ، وانتشرت الصحيفة المصرية انتشاراً واسعاً .

وتسوء العلاقة التى كانت ساءت بين على يوسف وتوفيق . تسوء ثانية مع عباس ابن توفيق ، ويضطهد الخديو الشاب الصحافى الملهم ، فيلجأ إلى حيلة يتقرب بها إلى أعداء هذا الخديو ، ولو كانت هذه الحيلة على حساب أخلاق الشيخ ووطنيته . فأنشأ حزب الاصلاح . وهو حزب برنامجه ماكر مطاط لين له ملمس جلود الثعابين ، ولكن الخطر واقع قريب منه هناك فى اللعاب .

أراد هذا الحزب أن يصانع ويمانع . ويحرض ويكف ويخاصم ويسالم فأنست إليه الوكالة البريطانية ، وأرادت أن تضم الشيخ إلى صفها ، ولكنه كان حذراً كيساً .

وفى الحق أن سوء سياسة عباس الثانى وطغيانه ، هما اللذان دفعا بالشيخ على يوسف إلى ركوب هذا المركب المزرى ، وهما اللذان دفعا بالأستاذ محمد عبده إلى مصانعة هذه الوكالة البريطانية . فإن حقد عباس على الأستاذ الإمام كان عظيماً . لأنه أحد أبطال الثورة العرابية ورأسها المفكر ، فلم ينس له أنه كان سيطيح بعرش أبيه الذى ورثه عنه .

وهما اللذان قذفا بالسيد توفيق البكرى إلى هذا المصير . وقد شهد اللورد كرومر للسيد توفيق البكرى شهادة مشرفة يوم قال :

« ما دخلت بيت البكرى ، إلا وخلت أن عين هذا الرجل الضيقة التى كانت تطالعني وتحدق فى ، تلعنني وتحسبني غريبا متطفلا » .

وهما اللذان دفعا بمصطفى كامل إلى الخروج على الخديو يوم صانع الخديو السير غورست المعتمد البريطانى وسايره سنة ١٩٠٧ .

ولو كان عباس الثانى واسع الأفق ولم يدركه خلق بيت محمد على، الذى يحسب أن مصر ومن فيها وما فيها ملك له لاينازع فيه ولا يشاور فى أموره لسلم من كثير من النوائب .

لقد أقصى هذا الرجل الوسيم المحب للمال والسلطة والذى كان يشبه جده اسماعيل فى الاستبداد : رجالا أفذاذاً كان يستطيع أن يتخذهم أساطين يرتكز عليها ملكه الذى كان ينازعه فيه لورد خبيث متمرس بالتجارب وله ذكاء العباقرة .

كان هؤلاء السادة الذين أبعدهم عنه عباس بخفة شبابه وغروره : أكفاء لهذا اللورد الثعلب . كان يستطيع أن يصطنعهم له ولمصر ، ولكنه لم يفعل ، فساءت أيامه وخس حظ مصر من أبنائها الأعلام .

وقد تغيرت القلوب على المؤيد . ورمت الشيخ صاحبه بالجنوح إلى المستعمر ، ولكنه ثبت وأدخل على صحيفته فناً صحفياً ، لم تعرفه صحف الشرق العربى قبل ذلك ، وزادعدد صفحاتها إلى ثمان صفحات . وهذا شيء لم يعرف قبل ذلك عن الصحف العربية .

ويحتفل على يوسف بهذا النصر الصحفى ويتقدم صنيعته وحامل اللقب

الذى خلعه عليه الشيخ وهو «شاعر النيل» ، وينشد هذه الأبيات فى ذلك الحفل المشهود .

أحييت ميت رجائنا بصحيفة * أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحت مصلى للهداية عندما * سجدت برحب فنائها الاقلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية * وعلى مؤيدك القديم سلام

ويغضب خليفة الإسلام فى الآستانة على جريدة الإسلام ، ويمنع دخولها بلاده . ثم تسوء حالة الصحيفة المالية وترهقها الديون وتضطرب ميزانيتها ، فيحتال الشيخ فى تحويلها إلى شركة مساهمة ، ولكن الكارثة تقع فيعلن عن عمارتها فى المزاد للبيع .

ويموت الرجل النحيل الضاوى البيضاوى الوجه الذى يحكى وجه وجوه أهل طيبة القدماء . فتبقى الصحيفة بعده قليلا وهى كالذبالة المحترقة، تنشط حينا وتخبو حينا آخر حتى تطفئها الرياح فتموت .

ولم ينس حافظ يد الشيخ عليه فيرثيه ويقول :

صونوا يراع على فى متاحفكم * وشاوروه لدى الأرزاء والنوب
واستلهموه إذا ما الرأى أخطأكم * يوم النضال عن الأوطان والنشب
قد كان سلوة مصر فى مكارهها * وكان جمرة مصر ساعة الغضب
فى شقه ومراميه وريقته * مافى الأساطيل من بطش ومن عطب

وهى قصيدة طويلة نظمها كلها فى مناقب الشيخ ولكنه . لم يذكر

تلك الأيادى التى أفرغها عليه الشيخ على يوسف يوم جعله قريباً لشوق .

وحافظ لايخجله الأعتراف بالجميل ، فقد اعترف بفضل الأستاذ الإمام ، وصنيع المرحوم أحمد حشمت باشا وغيرهما . فلعله قد نسى هنا أن يذكر أيادى الشيخ رحمه الله .

وقد أختص حافظ المؤيد بقصائده فى العام الهجرى ومدح خلفاء آل عثمان والإشادة بمجد الأتراك . ثم بالتنويه بفضل صاحبها فى خصوصياته ورفع شأن صحيفته .

وهناك مجلة المنار أسست سنة ١٨٩٨ وصاحبها محمد رشيد رضـا ، وهو أحد تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده ، والناشر علمه على الناس . وتكاد تكون المنار مجلة كان يصدرها محمد عبده نفسه ، ففيها غالب آرائه فى السياسة والدين والدنيا .

وقد أفاد صاحبها من هذ السبيل ، فراجت مجلته التى كان يصدرها فى أوراق كأوراق الصحف اليومية ، ثم حولها إلى مايشبه الـكتب فى حجمها وأوراقها .

ومازال الشيخ رشيد رضا يتقلب فى نعماء الإمام الذهنية حتى أصبحت مجلته أشهر مجلة إسلامية فى العالم العربى . وكان هذا الرجل يعشق آراء الإمام ويتعصب لها ويذيعها وينوه بها حتى بلغ غاية الغايات .

وكان لصاحبها خصوم عديدون ، منهم من كان يناصب الإمام العداء في حياته ومنهم من كان يحارب الإسلام ، من أشباه المبشرين أصحاب الصحف التي كانت تشيد بالمسيحية فى ذلك الحين وتكيد للإسلام ،

وظل الشيخ رشيد يقارع بمجلته هؤلاء حتى مات . فلبثت بعده قليلا ثم لحقته ، لأن الذين ورثوه عليها لم يكونوا فى حزمه وألمعيته.

وقد ذكر حافظ هذه المجلة فى قصيدة مدح بها الإمام فقال :

ثم أشرقت فى المنار علينا * بين نور الهدى ونور الصواب

وفيها كل مدائحه فى الإمام وهى كثيرة .

ثم هناك مجلة الهلال : أنشأها المرحوم جورجى زيدان سنة ١٨٩٢ ، وقد بدأها صاحبها بثمانى وأربعين صفحة ، كما يقول فيليب دى طرازى ، ثم أخذت فى النمو حتى تضاعفت صفحاتها فأصبحت ستاً وتسعين .

وكانت من أوسع المجلات العربية انتشاراً . وكان أكثر أبحاثها فى التاريخ العربى والتركى . وقد وضع صاحبها قصصاً تاريخية عربية تتضمن أشهر ما عرف عن التاريخ الإسلامى فى زمن الجاهلية وأزهى عصور الإسلام .

ثم وضع قصصاً عن التاريخ العثمانى والانقلاب العثمانى . وكانت مدرسة لحافظ عرف منها كيف أن السلطان عبد العزيز مات منتحراً بمقراض قطع به وريده

وكان جورجى زيدان صديقاً لحافظ، وهو من الذين قدموه وشجعوه ولم ينس له ذلك فقد قال فى رثائه:

دعانى رفاقى والقوافى مريضة * وقد عقدت هوج الخطوب لسانى
فجئت وما بى يعلم الله من أسى * ومن كمد قد شفنى وبرانى
مالت وقوفى بينكم متلهفاً * على راحل فارقته وشجانى
أفى كل يوم يبضع الحزن بضعة * من القلب إنى قد فقدت جنانى
كفانى ما لاقيت من لوعة الأسى * وما نابني يوم الإمام كفانى
تفرق أحبابى وأهلى وأخرت * يد الله يومى فانتظرت أوانى
ومالى صديق إن عثرت أقالنى * ومالى قريب إن قضيت بكانى
أرانى قد قصرت فى حق صحبتى * وتقصير أمثالى جناية جانى

وفى هذه القصيدة يقول، وهو شعر صادق العاطفة تحس فيه حرارة الوفاء والعرفان بالجميل:

وفى ذمتى لليازجى وديعة * وأخرى لزيدان وقد سبقانى
فياليت شعرى مايقولان فى الثرى * إذا التقيا يوماً وقد ذكرانى
وقد رميا بالطرف بين جموعكم * ولم يشهدا فى المشهدين مكانى
أيجمل بى هذا العقوق وإنما * على غير هذا العهد قد عرفانى
دعانى وفائى يوم ذاك فلم أكن * ضنيناً ولكن القريض عصانى

وأنا أشهد أنى ما قرأت هذه القصيدة لحافظ إلا وأحسست بالأسى

ينفذ إلى قلبي ، وأن روح حافظ الشاكرة تهزني فيها هزاً عنيفاً .

فإن جورجي زيدان وإبراهيم اليازجي ، كانا في رأس إخواننا السوريين الذين أنعشوا نفس حافظ وجعلوه يتطلع إلى منافسة شوقي الشاعر ويخال أنه قرين له مساو .

وهناك مجلة سركيس وصاحبها سليم سركيس . أنشأها سنة ١٩٠٥ . وكانت مجلة رشيقة طلية الأسلوب، وهي المدرسة التي تخرجت فيها المجلات الحديثة ونهجت على أسلوبها وجرت في أنحائها .

وكان سليم سركيس صاحبها أديباً ألمعياً يعرف كيف يصيب الهدف ويعرف كيف تصطنعه الرجال .

فهو الذي أطلق على بعض أعيان السوريين لقب : «جابر العثرات»، وهو الذي تشبث بلقب الأمراء يطلقه على بعض السادة . وهو الذي حشد أكثر أدباء مصر وشعراءها وأنطقهم بمدائح في أسر كان يفيد منهم أموالا جمة .

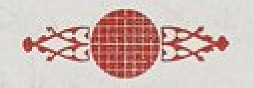
والرجل بعد ذلك كان فيه مروءة . يفيضها على فقراء الأدباء والفنانين. وكان نصيراً لحافظ وصديقاً له ، فهو أحد الصحافيين الذين روجوا له ووضعوه مع شوقي في مكان واحد . وكان طويل الباع في هذا يعرف أساليب صحفية تفضي إلى الغرض .

وكان ينشر لحافظ بعض قصـائده ونوادره فى ربورتاجات شيقة طريفة . ولـكنه بهذا كان يفيد من حافظ فى أغراضه المادية عند بعض السادة .

وقد خصه حافظ بالثناء فى حفل أقيم لمعاونة ممثل بائس أقامه سركيس. بغالبية القصيدة . وكاد ينسى الممثل المسكين .

لولا سليم لم يقل قائل ✲ ولم يجد من جاد بالأمس
لله ما أشجعه إنه ✲ ذو مروءة فينا وذو بأس
يقوم فى مشروعه نافـذاً ✲ كأنه عنـترة العبسى
تلقاه فى الجد كما تبتغى ✲ وتارة تلقـاه فى الهلس
سركيس إن راقك ماقلته ✲ فى معرض الهزل فقل مرسى
أقسم بالله وآلائه ✲ بعرشه باللوح بالـكرسى
بالخنس الـكنس فى سبحها ✲ بالبدر فى مرآه وبالشمس
بأن هذا عمل صالح ✲ قام به هذا الفتى القدسى

فأنت ترى كيف أن حافظاً صب على سليم من هزله ومن جده ألواناً براقة تقرباً له وتألفاً . لأنه كان صوتاً مسموعاً فى البيئة الأدبية فى ذلك العصر .



# التبكيت والتنكيت . الأستاذ . حمارة منيتى

هذه صحف ثلاث أفاد منها حافظ أدباً شعبياً ظريفاً وروحاً مرحة كانت تفيض أنساً فى المجاس والمنتديات وفى شعره أيضا .

والتنكيت والتبكيت : صحيفة هزلية تفيض بالنوادر الساخرة التى تمس سياسة الحكم قبل الثورة العرابية . وقيل أنها ساعدت فى شبوب تلك الثورة ، وظلت أثارها الأدبية باقية حتى أدركها حافظ ونهل من مواردها . وصاحبها المرحوم عبد الله نديم الثائر الساحر والخطيب الجوال .

وقد اضهطده توفيق حتى استخفى من بطشه ثم عاد بعد صدور العفو عنه فأنشأ سنة ١٨٩٢ مجلة على غرار صحيفته السابقة ، ولكنه زاد فيها أبواباً سياسية تعرض فيها للاحتلال . وذكر الناس بعهد عرابى . نخاف اللورد كرومر من سريان سم هذه المجلة ، و كانت اسمها الأستاذ فسعى إلى الخديو لمصادرة المجلة ونفى صاحبها .

ففعل الخديو الذى كان يرهب الوعيد ، وعطل الصحيفة ونفى صاحبها حتى مات شريدا بائساً مريضاً فى المنفى .

وقد عرف منها حافظ أبواباً كانت ذخيرة له فى أدبه الشعبى .

ثم حمارة منيتى : وصاحبها توفيق الحمارة . كان رجلا حاد اللسان جريئاً على الأعراض يتكسب من ثلبها والتشهير بها .

وظلت صحيفته بايعاز من السراى تشهر بالإمام محمد عبده وتذمه . حتى أنها دست عليه صورة توهم الناس أنه كان يشرب الخمر فى أوربا . وقد تعرض لذلك حافظ دفاعاً عن الأستاذ الإمام فقال :

إن صوروك فإنما قد صوروا * تاج الفخار ومطلع الأنوار
إن نقصوك فإنما قد نقصوا * دين النبى محمد المختار
سخروا من الفضل الذى أوتيته * والله يسخر منهم فى النار
لا تجزعن فلست أول ماجد * كذبت عليه صحائف الفجار
رسموا بذاتك للنواظر جنة * محفوفة بمكاره الأشعار
وتقولوا عنك القبيح وهكذا * يمنى الكريم بغارة الأشرار

والقصيدة طويلة.

وكانت هذه الصحيفة نهجاً شريراً جرت فى غباره صحف الصاعقة وعكاظ و الآداب و غيرها من الصحف الصفراء التى كانت بلاء منصباً على الناس فى مستهل القرن العشرين .

وأخيراً اللواء وهى مجال حافظ الأكبر . و ميدانه الأوسع . ففيها حمل لقب شاعر الوطنية الأول . ومنها عرفه الجمهور . وصفقوا له و رفعوه مكاناً سامياً . كان يسامت فيه مكان شوقى فى الشهرة .

وفى الحق : أن فضل صحيفة اللواء على حافظ إبراهيم كان عظيما . فهى التى أبرزته وقدمته وسودته . وقد وجد فيها حافظ متنفساً لحقده على

الإنجليز الذين أذلوه وأهانوه وسلبوه لقمة العيش . وتركوه بائساً يملأ الدنيا عويلا وضجيجاً ببؤسه وحرمانه .

أنشأ اللواء مصطفى كامل بن على افندى محمد المولود بدرب الميضة بشارع شيخون بالصليبة سنة ١٨٧٤ . وقد أسلمه أبوه إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد السيد كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى . فعلمه القراءة والكتابة وحفظه سوراً من القرآن الكريم .

ولما أتم السادسة أدخله أبوه مدرسة عباس الأول بالصليبة . وفى هذه المدرسة نال مصطفى كامل الشهادة الإبتدائية سنة ١٨٨٧ .

ثم انتقل منها إلى المدرسة الخديوية فى السنة نفسها .

وكان فى هذه المدرسة مثلا فى التمسك بالكرامة والاستقلال بالرأى والدفاع عن إخوانه التلاميذ .

ونال منها البكالوريا سنة ١٨٩١ ، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية فجمع بين المدرستين . وحصل على شهادة الحقوق من تولوز سنة ١٨٩٤ . وقد تشربت روحه الوطنية وهو فى المدرسة الثانوية ، فأسس جمعية وطنية أسماها جمعية الصليبة الأدبية . واختار أعضاءها من أصدقاء له نجباء . وكان يخطبهم ويحاضرهم ، ثم كان يخطب فى جمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان .

وفى خطاب لأخيه على فهمى : أنبأه أنه سيختار مدرسة الحقوق لأنها

مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم . وأنه اعتزم أن يؤسس جمعية سيسميها «إحياء الوطن».

وكان أول عهده بالصحافة : تأسيسه مجلة المدرسة . أنشأها وهو لم يزل طالباً فى مدرسة الحقوق ، وقد اتضحت فيها ميوله الوطنية فى فصول كان يكتبها فيها .

واتخذ أستاذاً من فلول الثورة العرابيــة هو عبد الله نديم الذى رجع إلى الوطن سنة ١٨٩٢ كما قدمت .

فأفضى إليه بأسرار الثورة ومكامن ضعفها التى أوردتها موارد الفشل كما بين له دسائس السياسة الإنجليزية . فوعى الشاب هذه الأخطاء التى ملوحت بالثورة إلى الخيبة ، فاجتنبها فى مستقبل صراعه الوطنى مع السراى والإنجليز فى جهاده .

ويسافر مصطفى كامل إلى فرنسا فى طلب العلم . فتنبسـط له الحرية ويدافع عن مصر فى الصحف وفى الحديث إلى رجال أحرار من الشعب الفرنسى . ثم يعود إلى الوطن فيعمل محامياً أمام المحاكم الأهلية .

ولم يهدأ هذا الشاب الطامح الذى يلمح وطنه راسفاً فى أغلاله .

فإنا نراه يعود إلى أوروبا سنة ١٨٩٥ ويحـاضر فى فرنسا فى سبيل استقلال مصر. ثم يهب إلى النمسا مناضلا مجاهداً فيلفت إليه أنظار الصحف

فنوه به وبقضيته التى ينافح عنها ، ويتخذ لنفسه شعاره الخالد ( أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا ) .

ويتعرف فى فرنسا إلى سيدة حرة من أعظم الشخصيات الفرنسية فى عالم الوطنية والسياسة والأدب هى جوليت آدم .

وقد بعثت إلى هذه السيدة العظيمة عام ١٩٢٠ بقصيدة أشكرها فيها لما قدمته لمصطفى كامل من أياد. فتفضلت وبعثت إلى برقاع بخطها تشكرنى وتثنى على ولدها مصطفى كامل كما كانت تدعوه .

وقد حرت وحارت الصيادلة معى فى قراءة خطها . ولم ينشلنى من هذا المأزق إلا المرحوم توفيق فرغلى الصحفى القديم فى صحيفة اللواء . وكان متمرساً بقراءة خط الأديبة العظيمة لكثرة ما كانت تبعث إلى مصطفى كامل من الكتب .

وفى الحق: أن هذه السيدة الكريمة كانت خير معوان للزعيم الشاب . فهى التى قدمته إلى المحافل الفرنسية الرفيعة الدرجة ، وإلى رجال صحافة فرنسا وأدبائها : أمثال بييرلوتى وكلود فرير .

ولم تكتف بذلك بل وضعت كتاباً أسمته «انجلترا ومصر» كله دفاع عن حق مصر فى الحرية .

وقد زارت هذه السيدة مصر سنة ١٩٠٤ ملبية دعوة المجاهد الشاب.

وقد تلقف الخديو عباس الثانى هذا الشاب الجرىء واتخذه سيفاً يناهض به الإحتلال الجاثم على مطامعه فى استغلال مصر التى كانت أرزاقها مباحة لأجداده ، وقد رأى أن نهضة مصطفى كامل قد تفيده فى الخلاص من هذا المنافس الجشع ، لكى ينطلق إلى هواه بغير منافس .

واهتبل مصطفى كامل الفرصة ، وقد رأى فى الخديو قوة يرتكز عليها . وليس له أن يسأل عن الغرض من هذه المؤازرة الخديوية ما دام السبيل هو طرد المستعمر عن أرض مصر .

ولكن الخديو لم يلبث أن خذل حليفه وسالم أعداء بلاده .

فقد بعث الإنجليز بالسير غورست إلى القاهرة خلفاً للورد كرومر الذى أذاق عباساً الهوان . وقد ألبسوه جلداً ثعبانياً مزركشاً أمكن أن يخدع به الخديو ، فاستلان للإنجليز ومال إليهم .

فتنبه الفتى النحيل الواسع الفم الخفيف الشارب إلى تلك الهوة التى سيهوى فيها الخديو ومعه مصر .

وقدجاهر الخديو بهذا الميل فى حديث له مع المستر ديسى سنة ١٩٠٧ حيث نفى عن نفسه الكيد للإحتلال البريطانى ، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال . وأن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر . وقد هجن مصطفى كامل هـــذا الحديث وخطأ الخديو وجاهره بالعداء .

ولم تكن هذه الوحشة الأولى التى وقعت بين مصطفى كامل وعباس . بل سبقت تلك الوحشة جفاء آخر حدث بينهما . امتد من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٠٦ . مبعثه ميل الخديو إلى الإنجليز .

ولكن الزعيم الشاب كان يرجو أن يفىء الخديو إلى مصلحة الوطن، ولكنه لم يفعل . وظل ينحدر إلى كنف القوم ، وقد خدعه ثوب غورست كما قدمت فآذنه بالحرب .

ورأى مصطفى كامل الذى كان يتنفس بالوطنية بمقالات فى جريدتى الأهرام والمؤيد : أن ينشىء له صحيفة وطنية يبثها لواعجه وتختص بجهاده ، فأسس اللواء سنة ١٩٠٠ . وهى السنة التى نزل فيها حافظ إلى القاهرة .

وصار اللواء مراحاً لأقلام أعلام المصريين الذين تجيش صدورهم بالوطنية .

ويعرف حافظ إبراهيم الطريق إلى اللواء سنة ١٩٠٦ حيث كانت حادثة دشواى فيرسل . بقصيدة مستعرة إلى الصحيفة المجاهدة يلعن الإنجليز أعداءه بالأمس فى السودان . فيرحب مصطفى كامل بالشاعر الشاب الخطيب الذى يشبه دون كوشوت أو عروة الصعاليك ، الذى لا يعرف له مأوى ولا رزقا .

ويرى حافظ أن سوق الوطنية تضج بالشهرة التى ظل يعشقها دائماً

فيغام، ويظل يعرض بضاعته مكتوبة أو مقولة على ذوائب المنابر .

وتصفق الجماهير . فيتيه الشاعر ويتمايل عجباً ، ويشار إليه فى صحف مصورة تصويراً رديئـــاً حائلا . يصورونه وكأنه ميرابو خطيب الثورة الفرنسية .

ويقف فى مدرسة مصطفى كامل يثنى على الزعيم الشاب بعد خطابه الوطنى ويقول :

سمعنا حديثاً كقطر الندى * فجدد فى النفس ما جددا
وأضحى لآمالنـــا منعشاً * وأمسى لآلامنا مرقدا

ثم يخاطب الشباب ويحثهم على الاتحاد ويثير النفوس .

ثم يعود حافظ فيشكو الإحتلال سنة ١٩٠٧ . ويرحب اللواء بقصيدة الشاعر المجاهد ويتابع حافظ الهجوم . فيستقبل كرومر معاتبا ويشيعه بالذم واللعن يوم خروجه من مصر .

ويطلق اللواء اسم شاعر الوطنية على حافظ ثم يشرفه بلقب آخر هو شاعر الحزب الوطنى .

وقد ظهر حافظ على الشعراء الذين كانوا ينافسونه فى الشعر الوطنى مستترين أو مجاهرين .

ظهر على شوقى وإسماعيل صبرى المستخفيين ، وخليل مطران

الجماهير . لأنه كان أكثرهم شعراً وأعظمهم ضجة فى الوطنية .

ويموت مصطفى كامل يوم الإثنين ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ مصدوراً ويسير حافظ حاملا عصاه مطرقاً فى جنازة كثيرة العدد لم تشهد مثلها مصر من قبل . ويقف على قبر هذا الشاب العظيم وينوح ويقول :

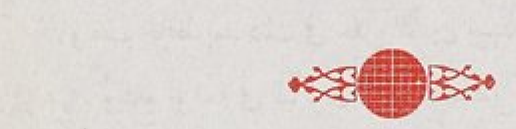
أيا قبر هذا الضيف آمال أمة * فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا

ويقف حافظ بعد ذلك فى حفل التأبين ويهدر بالشعر الجزل فى رثاء الزعيم ، ويتابع نواحه فى الذكرى السنوية لمصطفى كامل .

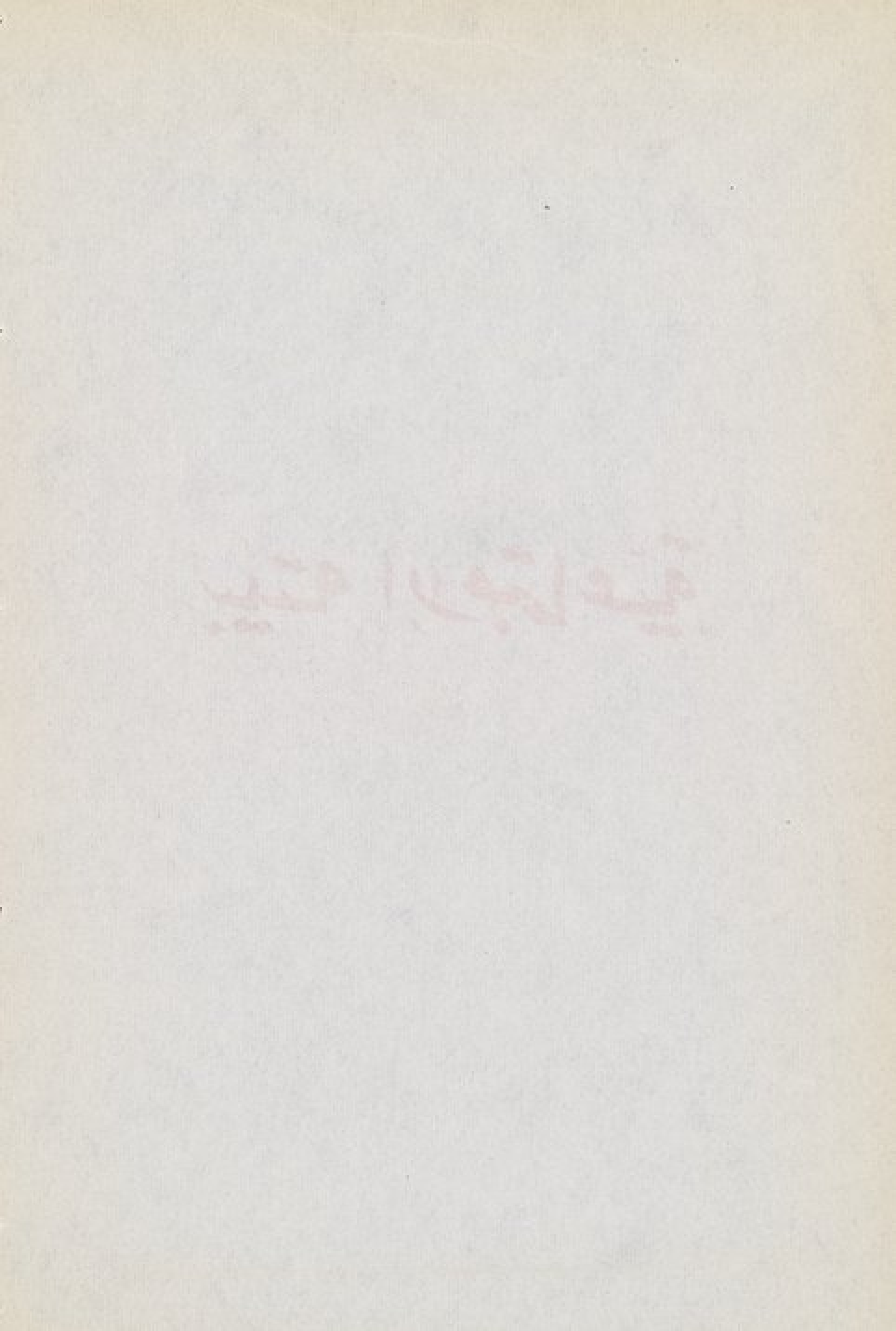
ويخلف الزعيم الشهيد: محمد فريد . وهو رجل من أنبل الرجال الذين عرفهم الشرق فى حياته الطويلة ، فإنه لم يضرب بفأسه فى حقل الوطنية ليرجو لنفسه ثمرة واحدة من كفاحه هذا ، بل حمل قذى التراب فى عينيه وأدمى يديه لتسعد مصر ويموت هو شقياً .

ويتشبث حافظ إبراهيم بلقب شاعر الوطنية ويسير فى ركاب اللواء ويقف فى المجامع خطيباً شاعراً منافحاً . ويملأ أنهار الصحيفة الوطنية بأشعاره المتأججة حماسة ، فينال حب الجماهير ، ويكتب لنفسه ذكرى لاتزال تدور فى الكتب والمحاضرات إلى يومنا هذا .

وفى الحق : إن عهد مصطفى كامل وأيام اللواء ، كان وساماً علق على صدر حافظ وشرفه وقدمه ، وما زال يبعثه حياً ، كلما هبت رياح الوطنية فى الأطوار المختلفة من تاريخ كفاح شعب مصر



# بيئته الإجتماعيّة



ثم بيئته الإجتماعية وهى التى هيأت ذوقه الفنى وخواطره الاجتماعية وإحساسه بما حوله . وكانت مدرسة درس فيها حافظ الظرف والأخلاق وفن الحديث وميوله الشهوية . وهى أيضاً التى اتخذت له أصدقاء آنسوا إليه وآنس إليهم وسنتعرض لهم بعد قليل .

وقبل أن نندس فى غمار هذه البيئة . يجمل بنا أن نبرز الحياة التى كانت تحياها القاهرة فى سنة ١٩٠٠ ، وإلى ما بعدها من السنين حتى سنة ١٩١١ ، حيث انسلخ حافظ من هذه البيئة انسلاخا جزئياً ، حين أصبح موظف دولة ، تحجزه قيود الوظيفة عن الإنطلاق إلى حيث تشاء أفكاره وميوله .

كانت الحياة فى القاهرة سنة ١٩٠٠ : حياة هينة هادئة كمياه الجداول المنسابة فى رفق ، فإن عصر عباس الثانى امتاز بالسكون والدعة السياسية ، فلا ثورات ولا حروب تمس مصر من قريب أو من بعيد .

فقد جثم الاحتلال على مصر بعد الثورة وأخذ بتلابيبها ، فتنفس الناس فى النوادى والبيوت والطرقات ودور اللهو .

وكانت المواصلات فى المدينة القديمة بدائية ، فلم تعرف القاهرة بعد الأتوموبيل ولا الأوتوبيس ولا الزحام الخانق الذى تعانيه اليوم فى كازيناتها ومقاهيها وشوارعها .

كانت المواصلات الأولى فى القاهرة للشعب : الترام وكان يزحف فى مشية : كانت تعد فى ذلك العصر مثالية فى السرعة .

وكان يسانده فى حمل الجمهور عربات سوارس ، وهى ضرب من العربات سيىء الحال ، تسحبه بغال ضامرة عجفاء لاتكاد تخطو إلا بالسوط والقرع الشديد .

وكان هناك أيضا : الحمير يتبعها المكارون بعصيهم يلهبون بها أعجازها وهم فى خدمة الركاب وكان أكثر الأوقات رواجاً لهذه الدواب هى الساعات الأولى بعد منتصف الليل حيث يكون الترام قد سكنت ضجته ، وآوت البغال المكدودة المشدودة إلى عربات سوارس إلى اسطبلاتها السيئة الحال .

وكان أكثر زبائن الحمير . من رواد حى الأزبكية : خفافيش الليل. فكان الزبون إذا فرغ من اللهو والشراب والسماع . عرج على ميدان الخازندار . فاختار حماراً يركبه إلى حيث يقطن فى العباسية أو المنيرة أو السيدة ، أو إلى غير ذلك من الأحياء الوطنية .

وتأتى بعد ذلك عربات الكارو تحمل النسوة إلى حيث مشاهد الصالحين ، حيث يزرن ويتبركن . أو إلى المتاجر المتواضعة فى الموسكى أو الحمزاوى . أو إلى حيث يتبعن الموتى إلى المقابر . ولا تزال بعض هذه العربات تقوم بهذا الغرض الأخير فى أيامنا هذه .

ثم عربات الحنطور الباقية حتى الآن .

وكان فوق هذا وقبل هذا : عربات السادة والسيدات من البيئة الأرستوقراطية .

كانت تلك العربات اللامعــة تجرها خيول فارهة مجلوبة من المجر أو من بلاد الروس ، ويطلق عليها : اسم الخيول المسكوفية .

وكان يجر كل عربة جوادان ناهضان متشابهان فى لون الشعرة مدربان على الخطو ورفع السيقان معاً فى لحظة واحدة .

وكان لحوافرها ضرب من الموسيقى الصاخبة التى تشبه موسيقى الزنوج فى ضجيجها .

وربما طغت الهوانم من بيت محمد على فركبن عربات تجرها أربعــة من الحصن تعدو فى توازن عجيب ، وفى سرعة بالغة يتقدمها واحد أو إثنان من الرجال . وفى يده أو فى يديهما عصى طويلة . وقد ارتدوا سراويل قصيرة مزركشة . وعلى رءوسهم طرابيش ، استطالت أزرارها حتى مست أكتافهم وهم يصيحون فى الشعب المسكين : أوعى ... أوعى .

وكانت عربات هؤلاء الهوانم : مقفـلة الجوانب لها نوافذ بللورية تكشف عن وجوه بضة رخصة تحت أنسجة شفافة تزيد تلك الوجوه فتنة .

وكان مسرح هذه العربات : فى الأحياء اللامعة النظيفة حيث يسكن هؤلاء الأروستقراطيات المنحدرات من أعراق تركية . كما كان مسرحها أيضاً حى الجزيرة ، حيث النيل يتماوج فى ثوبه الأدكن . والرياض

مزركشة بالأزاهر المختلفة الألوان . وكانت هذه أيضاً مسارح السادة الإقطاعيين من أصحاب العربات الفارهة .

وفى ذلك العصر : كانت المقاهى نظيفة بموائدها الرخامية وخدمها اليونانيين المرتدين الأبيض والأسود . وكانت من أشهرها : مقهى نيوبار . حيث كان يجلس عبده الحمولى الموسيقار فى رفقة من ذوات مصر وسراتها . ويجلس معه دائما صفيه وعاشق فنه والذى أنفق فى مرضاته نصف مليون من الجنيهات .

فقد كان «بسيلى عريان» صاحب حلقات السمك كلهافى مصر يتفانى فى إرضاء عبده . كان يحتجز كل ليلة المقهى الكبير له ولعبده وأصحاب عبده خاصة . ويبذل المئات من الجنيهات فى الشراب والطعام .

وقد حدثنى حافظ فقال :

كان خليل مطران صديقاً لعبده الحمولى . فكان يصحبنى إلى مجلسه فى النيوبار حيث المتعة والمجالس الظريف بين سروات مصر وظرفائها .

وكانت هناك مقهى لايزال باقياً إلى اليوم هو قهوة مشيدى قبالة وزاة المالية ، كان مقهى من الدرجة الثالثة يجلس فيه حافظ دائماً مع المرحوم إمام العبد وغيره من ظرفاء شارع خيرت وهم مغرمون بالنكتة والسخرية بعباد الله .

ومقهى متاتيا . يؤمه أدباء أوائل القرن العشرين ، منهم ولى الدين

يكن ، وخليل مطران ، وإمام العبد ، وابراهيم الدباغ ، وفؤاد الصاعقة وغيرهم ، وغيرهم .

وفى هذا المقهى : كان حافظ يتلو شعره ويعرض كل بيت يقوله على تلك الآذان الموسيقية ليتبين جماله فيقره .

ومقهى اسبلندد بار : ورواده من الأدباء السوريين . وكان حافظ يطرقه لحاجته إلى هؤلاء السادة فى الدعاية له و التعصب لشعره .

فكان يلقى هناك : الدكتور شبلى شميل، وجورج طنوس، وطنوس عبده ، وسليم سركيس ، والدكتور ابراهيم شدودى ، ووحيد الدين الأيوبى الأديب الشاذ الأسلوب الفني، فيضاحكهم وينشدهم شعره ويعرض عليهم ظرفه .

ثم ينحدر ماراً أمام الكونتيننتال مخترقاً شارع كامل [1] متخذاً شارع الساحة [2] سبيلا حتى مقهى بار اللواء حيث داود بركات وتوفيق فرغلى وغيرهما من الصحافيين .

ثم يطرق الجلساء محمد البابلى الثرى الظريف السخى. ويأمر بالكونياك الفرنسى الغالى الصنف فيشرب الجميع على الحساب .

ثم يأمر البابلى بالطعام الدسم من الحاتى فى القربية فتحضر الأطباق

(١) شارع الجمهورية .

(٢) شارع رشدى باشا .

المحجوبة بمكبات تعلوها ورود مذهبة مصنوعة من الصينى السكسونى، وينال حافظ حظه مع الجميع.

وبين ذلك تدور الأحاديث الجديه والساخرة وطرائف النوادر . والتهكم بالناس .

ويحب حافظ أن ينفرد لينظم قصيدة فيتجه إلى حديقة الأزبكية (١) هذه الروضة الجامعة بين شباب جميل، ونساء مبرقعات، وأجنبيات يبغين الصيد الحرام، وأطفال فى عربات تدفعها أمهاتهم، وعاطلين لايملكون إلا خمسة مليمات، يقدمونها إلى عامل الباب الدائرى ليسمح لهم بالدخول لإزجاء الفراغ الممل الراكد على أمزجتهم .

ويدخل حافظ إلى تلك الحديقة المغروسة من عهد اسماعيل، ليجلس تحت سرحة عاتية مظلة متهدلة الأغصان تسميها العامة «أم الشعور» ويسميها حافظ «شجرة البؤساء» .

ويأخذ فى النظم أو فى النثر، فيهجم عليه شباب من الأدباء المغمورين يقودهم صديق سيدقدرى - الوجودى الذى عرف الوجودية قبل بول سارتر - فيمازحونه آونة ويستنشدونه شعره آونة أخرى . فيضيق بهم ويزجرهم ويطردهم فيبارحونه ضاحكين

ولابد للشاعر من حياة الليل ومن لهو الليل، ولابد لنفسه الشاعرة

---

(١) اخترق هذه الحديقة الآن شارع ٢٦ يوليو، وكانت مسورة فى ذلك العهد .

أن تمرح وجسمه الضخم أن يتنفس فى تلك البؤر التى كان يؤمها كل الناس غنيهم وفقيرهم .

تلك التى كانت تشع بالأنوار القوية وبالصخب الذى لايهدأ إلا بعد الفجر وعند طلوع النهار ، والتى تزخر بالأجسام النصف عارية ، والوجوه الحائلة الألوان من طول السهر ومعاقرة الخمر ، والأفواه الداعية المارة إلى الإثم والمنفعة .

وقبل أن يرد حافظ هذا المورد الكدر ، يعرج على الشاطىء المناوح لحى الأزبكية فى شارع كامل ، حيث صفت الموائد على إفريز النافورة المدارة بالحرير ، حيث يجلس البرنس أحمد بطربوشه العالى وجسمه الضخم وصداره الفنطزية ، وحوله المتملقون والحاشية يعبون فى الخمر ويقهقهون لأدنى نادرة تافهة يتفوه بها الأمير الثقيل .

يجلس حافظ فى بار « دركاتوس » فإذا الخادم يضع أمامه زجاجة زيتية اللون ووعاء من السكر ، فيصب لنفسه كأساً أو كأسين ويمزجهما بسكر الوعاء الناعم .

فيكون قد شرب كأسى الأبسنت ، وانتعشت روحه ، ثم ينطلق ، فربما عرج على بار الكستبان الأحمر ، حيث كان يجلس محمد المويلحى إلى كأسه وندمائه ، وأبى صلاح عازف الربابة ، فيشرب كأسين تحية له من المويلحى .

ثم يتحدث الأديبان عن كتابيهما « عيسى بن هشام » و« ليالى سطيح » و« مصباح الشرق » ، وهى الصحيفة الأدبية الاجتماعية السياسية التى أنشأها محمد المويلحى مع أبيه ابراهيم المويلحى، وكان ينشر فيها حافظ بعض منتوجه.

وينصرف بعد ذلك إلى محل ساطانة ، وهى امرأة تحمل مدلول اسمها وإن كانت من الساقطات ، كانت لها سطوة كاترين الثانية . فلها من الرقيق قطيع لا تملكهن بقوة القانون ، ولكن بجبروت الأعوان الأقوياء الظامئين إلى الفتك الذين لا يحسنون عملا شريفا .

فكان يجد حافظ عندها ضرباً من المتعة فى حلقة تصف فيها كراسى يقتعدها فنانون مهذولون صفر الوجوه وبين أيديهم آلات موسيقية شرقية ، يبدءون غناءهم المبحوح بالبشارف التركية العتيقة ، ثم يتبعونها بليال أطول من ليلة الإعدام على المحكوم عليه . ويخوضون بعد ذلك فى أغان مبتذلة متهافتة اللحن والتأليف .

وقد عرف حافظ لهذه السلطانة خطرها فذكره فى شعره .

وقد يسأم حافظ من بيت سلطانة، فينهض عائداً إلى الألدرادو القديم حيث يستمع إلى أسما الكمسرية المطربة العجوز وهى تميل بجيدها المتغضن وترسل ألحاناً عاطفية مشوهة .

وتأتى بعدها الراقصة شفيقة القبطية المكتنزة الوجه المتعالمة الشهرة فى ثوب براق يكشف عن نقرة فى بطنها تلهب الحواس ، فتنهال عليها

زجاجات من البيرة المرصوصة فوق الأوانى ، فلا تنال منها إلا جرعة واحدة ، وقد دفعت أثمانها مضاعفة لصاحب الصالة الصاخبة .

وتعرق الراقصة البدينة فى الجواهر و الأموال وتركب أفخم العربات . ثم تنصرف عنها الدنيا فى الشيخوخة فتسأل الناس القوت وتموت معدمة مهجورة .

ويريد حافظ الملول أن يستبدل لهواً بآخر . فينطلق إلى شارع كلوت بك . فهناك ملهى كامل الأصلى الممثل الهزلى . حيث تدور مسرحياته حول غفلة عمد الأرياف وبلادة أهل الصعيد، ويشتهى أن يشاهد لونا آخر من الفكاهة . فيكر راجعاً إلى الشارع الذى برحه منذ قليل من الألدورادو . فيدخل ملهى سيد قشطه . حيث يجد رجلا ضخماً عريض الوجه غليظ الجوارح يحاكى أصوات الحيوان بصوته الناشز القارع . فيضحك الناس منه ويضجون .

وقد أطلقت حديقة الحيوان اسم هذا الرجل على أفراس البحر الضخمة التى تسبح فى أحواضها الواسعة تشبيها به لعظم خلقته وتنافر أعضاءه .

وقد فتن حافظ بهذه الحياة العابثة فقال :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى * بين هم وبين ظن وحدسى
يا غلام المدام والكأس والطا * س وهيىء لنا مكاناً كأمس

أطلق الكأس من غياهب هذا الد * ن واملأ من ذلك النور كأسى
وأذن الصبح أن يلوح لعينى * من سناها فذاك وقت التحسى
وادع ندمان خلوتى وتناسى * وتعجل واسبل ستور الدمقس
واسقنا يا غلام حتى ترانا * لا نطيق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها * من خدود الملاح فى ليل عرس

ثم يتابع بعد ذلك كلفه بالخمر والشراب فى قصائد أخر . ويعرف خطر الأزبكية فيقول :

كم وارث غض الشباب رميته * بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين فى حاليهما * تيه الغنى وذلة المفلوك

وقد يذهب لمشاهدة المسرح . فيرى سليمان القرداحى يعرض مسرحيات شكسبير ، وفيكتور هيجو . وقد يحب سماع الشيخ سلامة حجازى فى مسرحية روميو وجوليت ، وصلاح الدين . فيذهب إلى مسرحه ـ فى أول شارع عبدالعزيز ـ حيث يتأوه من دلال الممثلة الأولى أميليا . ومن الناحية المجاورة لهذا الشارع ، حيث يبدأ شارع محمد على[١] يطرق حافظ تلك الحانات المنثورة ، فيستمع فى بعضها إلى المغنى القصير الأبيض الوجه ، الذى أربى على المائة وهو لا يزال يغني ، فإن محمد سالم العجوز أستاذ عبده الحمولى لم يترك الغناء حتى موته .

وفى حانة من تلك الحانات . يطرب حافظ لتلك الآلة الفارسية التى

(١) شارع القلعة .

ابتدعها الفرس من أكثر من ألف وخمسمائة عام . حيث يضرب عليها رجل معمم عظيم الأنف هو الشيخ المسلوب العواد . عاش حتى فات المائة أيضاً .

وقد يضيق حافظ بكل هذا اللهو . فيخوض أحشاء شارع محمد على حتى يصل إلى حى السيدة عائشة قريباً من القلعة .

فيدخل تلك المنازل التى تكاد تتداعى من القدم . والتى تآكلت درجاتها من أقدام الصاعدين والهابطين .

ويجد الكوديا حفيظة المسترجلة ، وقد أم دارها الكبراء ، والأدباء ليشهدوا حفلة الزار التى تقيمها بمبة كشر لنفسها ولصويحباتها من العوالم .

تبدأ الحفلة بتمايل العالمة الشهيرة وهى فى ثوب قسيس . أناط بعنقه صليباً من الذهب .

ويحمى الوطيس الجنونى الهستيرى بين دقات الطبول المرعبة حتى الفجر ، حيث تمد السفر التركى تحمل الأضلع ، والطعام المطهو الغليظ ، فيأكل الجميع ، ثم ينصرف حافظ مع النظارة ، وتبقى السيدات لأن أسيادهن لا ترضى عنهن إلا بعد ثلاثة أيام فى هذا الضجيج المهلك .

وكان من الحتم عليه ليستفيد ويأتنس ويرتزق أن يؤم حى الخرنفش، ليلم بهذه الدار الواسعة الفناء ويدخل تلك الغرف المطروقة دائماً بالعلماء والظرفاء والأدباء وبالإنجليز أحياناً . فيجلس إلى صاحبها القصير الدقيق

الملتهب العاطفة . الذى أطبق عليه الجنون أعواماً طويلة وطوح به إلى مصحة العصفورية فى لبنان . ذلك الذى ينحدر من أصلاب كريمة يبدأها أول خليفة للإسلام .

وقد حف بالسيد توفيق البكرى صاحب كتاب «صهاريج اللؤلؤ» الذى عارض به كتاب « نهج البلاغة » لابن أبى الحديد .

حف به اللغوى المغربى السريع الغضب ، الذى كان قاموساً حياً فى اللغة العربية ، الشنقيطى وعبد الله المغيرة النجدى الظريف الخارج على تزمت ابن عبد الوهاب وأحمد بن حنبل ، ومعهما الشيخ الخضرى المؤرخ والمدرس ، وفتى صغير، حلو الوجه ضخم البطن،شاعر مبتدىء هو أحمد نسيم الذىصادق حافظاً بعد ذلكونزل له عن أول راتب استحقه من عمله فى دار الكتب المصرية .

وغير هؤلاء كثير. ويمدح الشاعر كتاب « فحول البلاغة » لصاحب الدار تملقاً وقربى .

ويسأل الشنقيطى حافظاً أن يحضر كتاباً من مكتبة البكرى ، ويدله على الصفحة ثم على السطر ، ففيه معنى الكلمة المختلف عليها. فينبهر حافظ من ذكاء الشيخ وقوة ذاكرته وعظمة حفظه . فيقول : « أظنك تحفظ لسان العرب» . فيقول :«دون هذا وينفق الحمار» ويشرح للجميع فحوى هذا المثل .

ويمد الخوان الشهى الدسم ، فيعبث عبد الله المغيرة النمل ، الذى كان يتغفل الحضور ، وينطلق إلى غرفة اللهو المعدة للحسيب الكبير بعد انصراف أهل الدعوة البكرية ومن يحتشمهم الشيخ .

ينطلق إليها ويختاس الكأس بعد الكأس . ثم يعبث بنسيم على المائدة فيغضب الشاعر الصغير المليح ، فيهوى على لحية عبد الله الكثيفة المهوشة بإناء من اللبن الزبادى فيغلفها به . فيضحك الماجن وهو يلعق لحيته المغطاة باللبن . كأنها خدود طالبات التطرية من الغوانى . ويضحك المحرض الضخم الحنجرة حافظ إبراهيم .

حتى إذا استكمل حاجته من لهو وطعام وشراب ومعرفة ، انفتل عن هذا المجلس إلى آخر ، واخترق شارع خليج أمير المؤمنين ، الذى كانت تشرف على مياهه الجارية قبل الردم قصور السادة الأعيان والعلماء ، فهو حى الأرستقراطيين فى القرن التاسع عشر .

حتى إذا أطل على ميدان باب الخلق (١) حيث قدر له بعد بضع سنين أن يكون مسرح رزقه فى ذلك المبنى الضخم الواسع الأبهاء المكتظ بالكتب النادرة والتافهة المقام سنة ١٩٠٤ .

فيتيامن ويدخل داراً واسعة الأبهاء يجمع أثاثها بين الذوقين العربى والتركى ، ويجد فى صدر إحدى الغرف الفسيحة رجلا كفيفاً أبيض مهيباً أضناه الأسر حتى ذهب بنور عينيه . وهو يتلو على الجلاس وفيهم مطران

(١) أحمد ماهر .

وصبرى شعراً فخماً رصيناً جزلا ، لم تألفه الأذواق قبل ذلك من شعراء العصر ولا ممن سبقوهم مئات السنين ، ويعيد إلى هؤلاء المنصتين عصور شعر الأمويين والعباسيين ويقتبس منه الجميع ، ويحاكيه أصحاب المواهب الشعرية ، فيرتفع الشعر من الحضيض إلى النجم .

وينشد حافظ الشاعر العظيم شيئا من شعره فيخطىء فى كلمة خلاق ويصرفها إلى معنى أخلاق . فيلفته الشاعر إلى خطئه ويقول : الخلاق ، النصيب من الخير . وهى لا ترادف كلمة الأخلاق المعروفة .

ثم يتلو عليه قصيدة طويلة فى الثناء على القائد الشاعر ويقول فيها :

أمير القوافى إن لى مستهامة * بمدح ومن لى فيك أن أبلغ المدى
أعرنى لمدحيك اليراع الذى به * تخط وأقرضني القريض المسددا
ومن كل معنى فارسى بطاعتى * وكل نفور منه أن يتوددا
وهبنى من أنوار علمك لمعة * على ضوئها أسرى وأقفو من اهتدى
وأربو على ذاك الفخور بقوله * «إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا»

فيتواضع البارودى ويشكر الشاعر الناشىء ثم يخوض الجلوس فى ذكريات الثورة العرابية ويغوص الشاعر الكبير فيها .

ويصيب حافظ أموالا من التكسب بالشعر .

وكان الشعراء فى ذلك العصر لا يأنفون من الجوائز المالية ، يعطونها أثمانا لمدائحهم فى الأغنياء محبي التظاهر والثناء عليهم .

كان بعض الشعراء كإخوانهم شعراء العصور الغابرة يعيشون على

الهبات ، كانوا كالمتنبي والبحتري ومروان بن أبي حفصة وغيرهم .

حدثني نسيم الشاعر قال : — وكان قد التحق بدار الكتب المصرية موظفاً — «أنا اليوم أفقر مني بالأمس ، لقد أمسك الأغنياء عني أموالهم لما علموا أني أصبحت موظفاً . لقد كنت في بحبوحة من العيش الرخي ، أمدح وأقبض ثمن المدح» . وكان أحمد محرم كذلك ، وكان ابراهيم الدباغ كذلك ، وكان إمام العبد كذلك .

ولا شك أن حافظا كان فوق هؤلاء رواجاً ، فقد كان يعرف من السراة أكثر ممن يعرفون ، وفيه ظرف محبوب وهو يجيد الحديث في المجلس ، وكان يتخطفه السادة الأغنيـاء حباً في نوادره وغراماً بحديثه ، وهو بعد ذلك يجود على إخوانه بالمال .

كما أخبرني نسيم ، وكما أخبرني المرحوم الأستاذ المازني ، وأن حجة شكواه وبؤسه سنتعرض لهما في مقام آخر .

رأت السيدة هانم البورصة أن تفرح بابنهـا الذي لم تفرح به إلا لمحات خاطفة عند خروجه ضابطا يحمل السيف والنجمتين .

ومن فرح هؤلاء النسوة تزويج أبنائهن ، هذا الفرح الذي يعقبه دائما غم وترح ، وغيرة قاتلة عندما يصبحن حموات تستأثر نساء غريبات بأبنائهن ويذهبن بعطف بعولتهن عن اللواتي أفنين العافية والنفيس في التفقد والسهر والرعاية إلى أنفسهن فإنهن منية الرغبة والسكن الجديد .

ولـكن هذه سنة الحياة ، فلابد للسيدة هانم أن تفرح وليفعل الله بها ما يشاء بعد ذلك .

تساءلت عن بيت الأصول ، ولا بأس أن يأتى المال يساند الأصل الطيب ، وليس لها بعد ذلك أن تسأل عن الجمال أو ذوق ابنها فى الاختيار فالحجـاب قائم ورؤية الزوج لعروسـه ممنوعة بقوة التقاليد السـائرة فى تلك الأيام .

فدلتها الخاطبات على بيت اسماعيل صبرى الثرى صاحب الأملاك الملتزم . ذهبت السيدة وفى رفقتهـا زوج أخيها السـيدة عائشة إلى بيت والد العروس فى عابدين ، وبعد المجاملات المتكلفة جلست النسوة يثرثرن وفى أيديهن فناجين من القهوة ، ينتظم الفنجان قطعتين : الظرف وهو كالقمع ينتهى بقـاعدة مستديرة عريضة ثم الفنجان وهو كالقراطيس التى توضع فيها اليوم الجيلاتى التى تباع على رءوس الطرق والمقاهى .

ولا شـك أن السيدة صـاحبة الدار قد حزرت معنى الزيارة فقـد أنبأتها بذلك الخاطبة .

فقد رحبت بالسيدتين ، وغالت فى الترحيب . فهى لا تنفك تردد : كلمة ( أنستونا ) وبدأت السيدة زوج محمد أفندى نيازى المهندس تسأل صاحبة الدار عن المحروسة الصغيرة .

فاستأذنتها قليلا ، ثم رجعت قائلة : « ستحضر حالا » .

دخلت فتاة ضخمة جهمة ، كما وصفها لى شاعر النيل — قد رفعت فوق مقدم رأسها نصف دائرة من الشعر الملوى . وخطت على حاجبيها خطين عريضين تقاطعهما نقطة .

رسمت الجميع صبابة القهوة المشروبة آنفاً . يفوح من ثوبها الضافى عطر القسيس .

فباركت السيدتان هذا الجمال .. وتلك الخلال التى لم تعرفا عنها شيئاً . وانصرفت السيدتان سعيدتين . فقد كانت العروس تحمل طابع جمال العصر . كما كانت قبل ذلك غنية الأب .

وقد بالغتا للعريس فى الوصف ، وأغرقتا فيه ، والعريس يصدق كل ما يقال ، وهى عادة لم تتركه حتى بعد أن بلغ الستين من سنه .

وفى عمارة البابلى بشارع خيرت — حيث اعتزم العريس أن يقيم — أقيم سرادق ملون . وقد خفقت فوقه أعلام صغيرة خفاقه . وازدان بالبطيخ الزجاجى البراق فى ألوانه وغني المغنى .

وفى غفلة من هذا الجمع المتمايل طرباً ، قادت أم العريس حافظاً وقد عصبت أصبعه الطويلة بمنديل حريرى أبيض . ودخلت به إلى تلك التى لم ..ها قط قبل ليلته هذه ، فافتض هذا الغشاء الحاجز ، وتدفق الدم فائراً . ثم أعقب ذلك الزغاريد ، وأصبح محمد حافظ إبراهيم الشاعر بعلا ورب أسرة .

ويدرك حافظ ..له القديم وهروبه دائماً من التبعات ، فيطلق العروس ..د أشهر قليلة ويظل أعزب حتى الموت .

وقد سألته رحمه الله بعد أن جمعتنا دار الكتب المصرية عن تلك التى حملت اسمه يوماً . فقلت : «هل كانت جميلة ؟»، فقال «أهى زيك» . فقلت : «إذن كانت جميلة» . فقال : «قد تكون كذلك لو كنت جزاراً ولست شاعراً » .

وزواج حافظ سنة ١٩٠٦ . حجة بين أيدينا عليه . فى أنه لم يكن بائساً معدماً . وكيف يكون بائساً وقد تزوج ، وفى الزواج تبعات مالية قد قدرها ولا شك ولن نلتفت إلى قوله :

وبا يد ما كلفتك البسط مرة * لذى منة أولى الجميل فأنعما

فهذا شىء إن كان يصدق فيه حقاً . فقد قاله سنة ١٩٠٠ عند قفوله من السودان . وأما بعد ذلك فلا . فقد تكسب بالشعر وعاش ينفق ويأكل ويسكن ويعول أمه .

ولحافظ جولات فى الأرياف عند أصدقائه السراة العديدين ، فله فى عين شمس حيث كان يقطن الأستاذ الإمام جولة ، وله فى الربعمائة بلد الأباظية جولة ، وله فى إبيار بلد الشرفاء جولة ، وله فى ساحل سليم بالصعيد جولة ، وله فى ميت غمر بلدة أسرة هلال جولة . وسنبحث فى شأن هؤلاء الأصدقاء فى الفصل التالى .

وما زال حافظ يضطرب ويتقلب بين جولاته هذه حتى استقر .

ففى ١٤ مارس سنة ١٩١١ أصدر وزير سمين ، يحب الأدب ويتعشق الشعر ، فهو من هؤلاء السادة الأروستقراطيين المعجبين بالأدب العربى ،

وإن كانوا يقرأونه قراءة متعة كلما سنح لهم وقت خال من أعمالهم أو من فراغهم المشغول بالسياحة ومشاهدة السباق والتنزه .

ولا تزال هذه الطائفة من قديم يحدبون على الفقراء من أهل المواهب فقصورهم مفتوحة لهم ، وأيديهم مبسوطة تمدهم بالجوائز ونفوذهم فى عونهم كلما لجأوا إليه .

أصدر أحمد حشمت باشا ناظر المعارف العمومية أمراً بتعيين محمد حافظ ابراهيم أفندى الضابط فى المعاش فى وظيفة بدار الكتب المصرية .

وفى ذات صباح تقدم إلى محمد عبد الرحيم - البواب اللامع سواد الوجه من أهـــل دنقلة - رجل فات الأربعين من عمره ، طوال ضخم يرتكز على قصبة أنفه منظار سميك الزجاج ، ويحمل فى يده عصى غليظة من الخيزران يسأل عن المدير ، ويحمل فى يده ورقة مغلقة ، وهو فى استحياء الغريب القادم لأول مرة .

ويتساءل البواب الطيب القلب فى رقة المؤمن المتدين عن السبب : فيقول حامل الخطاب: « أنا موظف جديد عينت هنا » .

فيسرع محمـــد عبد الرحيم إلى ولوج الغرفة الواسعة ، حيث يقبع فى صدرها مكتب عريض ضخم، يتصدره رجل عار الرأس ليس من أهل البلاد فهو من ألمانيا، مشى به علمه واستشراقه إلى مصر ليكون مديراً لدار الكتب المصرية التى كانت رئاستها وقفاً على هؤلاء الألمان المستشرقين زمناً طويلا .

وينهى البواب الساذج إلى المدير الألمى طلب الإذن بالمثول للرجل حامل الخطاب ، فيأذن له ، ويفض الخطاب الذى كان يعلم بفحواه قبل ذلك ، ويطلب المدير رجلا معمماً يشغل الناس بعد ذلك عهداً طويلا ، وعاش حتى أربى على المائة ، ويأمره أن يذهب بالموظف الجديد إلى قسم التغيير ،وهو يسمى اليوم قسم الفهارس للعمل به ، فيطيع الشيخ الذى بلغته طاعته دائمـاً المال والجـاه والشرف وزراية الناس ، ويأمر الشيخ الرجل المعروف عنـده قبل ذلك أن يشتغل ، ويلقى بين يديه بطـاقات مكتوبة وأخرى بيضاء ليملأ الثانية من الأولى .

فيحتار الرجل الردىء الخط ، وتضطرب يده بين المحبرة والقلم فيسيل الحبر على الأوراق جميعـاً ، ويقع فى ورطة فيشفق عليـه زملاؤه لأنهم عرفوه وعرفوا شعره ، فيولونه المعونه ويكفونه العمل الذى لا يحسنه ولن يحسنه .

ويسأله المدير بعد أيام عن منتوجه . فيتقدم إليه بأوراق مكتوبة بغير خطه ، فينخدع المدير ويرضى عن الموظف الجديد ، ويغمر كرمه زملاءه فيعملون له مسرورين ، ويظل هذا التدليس جارياً ، حتى تنشب الحرب سنة ١٩١٤ ، ويذهب الرؤساء الألمـان ، ويتولى مصريون يعرفون الشاعر فيعفونه من كل عمل حتى سنة ١٩٣٢ ، ويغرق حافظ فى الوظيفة حتى يمدح رئيس الحكومة عند عودته من أوربا ، ويمدح وزير المعارف الذى أحسن إليه .

# أصدقاؤه



فى مركز شبراخيت بمحلة نصر ولد لعبده خير الله التركمانى سنة ١٨٤٣، ولد كان كغيره من أطفال القرية وسماه محمداً.

وكان عبده خير الله هذا من أوساط الناس، وليس من أغنيائهم، ولكنه كان له مكان ملحوظ فى التقوى، بين أهل القرية.

فكانوا يعظمونه ويحبونه، لأنه كان يقرى الضيف ويؤوى الغريب.

وكانت أم هذا الطفل هى أيضاً تقية كريمة، تنتسب إلى قريش القبيلة العربية المعروفة، وينتهى نسبها إلى عمر بن الخطاب الخليفة الحازم. كما يقول ابنها الإمام.

ولم يختلف الطفل إلى الكتاب كعادة صبيان القرى. بل تلقى العلم فى أول أمره فى منزل والده.

ثم نرى هذا الصبى يحمله والده إلى طنطا، التى ذهب إليها حافظ مع خاله المنقول إليها. حيث المسجد الأحمدى ليجود القرآن، ثم يجلس الصبى بعد ذلك إلى تعلم علم النحو. فيضيق بالكتب المعقدة المستغلقة على أذهان الصغار، فيهرب من الدرس ويستخفى فى بيت خاله ثلاثة أشهر. ويكرهه أخوه بعد ذلك على تلقى العلم. فيأبى ويختار الرواح إلى محلة نصر ليعمل هناك فلاحاً، ويكبر الغلام الفاشل فى الدرس ويتزوج سنة ١٢٨٢

هجرية . ويلح عليه أبوه بعد أربعين يوماً من زواجه فى الذهاب إلى طنطا لتلقى العلم فيطيع .

ويشاء حظ مصر وحظ الإسلام،أن يلتقى هذا الفتى الكاره للمعرفة فى طريق ذهابه إلى طنطا برجل صالح ، فيدفع إليه بكتاب فى الصوفية. فيهفو روحه إلى العلم ويندم على ماضيه الذى سلخه فى اللهو والصدوف عن التعلم.

ويدخل الشيخ الأزهر ، وتتوق نفسه إلى علوم غير تلك التى قررتها تلك الجامعة القديمة ، فيسأل عن الحساب والهندسة . فيصيب منهما القليل خارج الأزهر .

ويخط القـدر للشيخ صفحة باهرة الأسطر ستبقى خالدة ما بقى العلم ورجحان العقل .

هذا أحد المجاورين فى رواق الشوام يتحـدث إلى زميله المجاور محمد عبده فى شأن رجل نزل القاهرة . وأقام فى حى خان الخليلى. يعلم فى العلوم العقلية أشياء وأشياء .

فيهرع إليه الشيخ المتطلع إلى المعرفة وبصحبته الشيخ حسن الطويل ، الذى يحب النظر فى الفلسفة ، فيلقيان رجلا حاد النظرة ذكياً ، له لحية ليست بالطويلة ولا بالقصيرة . أرسل شعر رأسه حتى استفاض على قفاه . يلوث عمامته على طربوش يشبه طرابيش العصر . وهو كأبطال المغول فى أيامهم السالفة .

ولد هذا الرجل سنة ١٨٣٨ فى سعد آباد ، وتلقى علومه فى كابل عاصمة الأفغـــان . ويبلغ الرجل مرتبة عقلية جعلته أول عصره فى علوم الإسلام وفلسفة الدين .

ويطوف الرجل داعياً إلى الحقيقة العلمية التى لا تجافى الحقيقة الدينية . فيتهمه حساده وجهلاء عصره بالمروق . ويرموه بالتهمة التى أودت بغاليليو وبشار بن برد من قبله .

وقد بقيت هذه التهمة سلاحا فى يد التعصب يلقيها فى وجوه المصلحين دائما ، وتؤمن عليها الجماهير الجاهلة .

فالزندقة : كلمة لها قوة القنبلة الذرية فى حشود العامة ، وقد أعدها رجال خبثاء للفتك بهؤلاء الذين نهضوا ليقضوا على الرجعية فى العصور كلها . فذهبوا شهداء وخلفوا للإنسانية تراثاً ضخماً لا تزال تنعم به فى العصر الحديث . وستظل تنعم به فى عصورها المقبلة .

ولم يكن الرجل الأفغانى داعية إلى ترك التعصب فقط. بل كان أيضاً داعية حرية ، لهذا الشرق الراكع تحت أقدام الاستعمار سنين طويلة .

وقد اضطهد هذا الرجل فى كل مكان نزله. اضطهدته الرجعية ، حتى مات مطعوناً من النفعية والرجعية والاستعمار .

وعاون السرطان فى هذه الأهوال ، نخر المصلح الجليل وأسلم الروح سنة ١٨٩٧ فى الآستانة .

دخل الشابان الأزهريان على الرجل الأفغانى وكان يتعشى . فسلما . فدعاهما للطعام فاعتـذرا . ثم يخوض الرجل الغريب مع الشابين فى تفسير القرآن الـكريم والتصوف فيبهرهما .

ويتعلق الشيخ محمد عبده بهذا الوافد . ويفتتن به . ويلزم مجلسه حتى يتعلم عنه الاجتماع والأدب والسياسة وحب الحرية . ويصبـح منه كأبى يوسف من أبى حنيفة ، ينقل عنه ويترسم خطوه حتى آخر أيامه .

وقد أفاد التلميذ من الأستاذ العلم والـكفاح للحرية . وأفاد الأستاذ من التلميذ الشهرة وترويج معقوله ومنقوله .

ويغضب عدو الحرية على حليفهـا فيأمر بنفيه . فيطرد من البلاد ولـكنه يترك رسالة حملها تلميذه محمد عبده وأداها خير أداء .

ويتخرج الشيخ فى الأزهر سنة ١٢٩٤ هـ ، ويعمل مدرساً فى الأزهر وطالباً فى المعرفة . فيقرأ الـكتب العلميـة و الأدبية المترجمة ، وعلم النفس وأصول الاجتماع الإنسانى والتاريخ والفلسفة . والـكتب التى تتحدث عن الإسلام بأقلام مسيحية .

ويندس تلميذ جمـال الدين فى الثورة العرابية ويساهم بعقـله ومنطقه وبيانه فى أتونهـا المشتعل . وتفشل الثورة بيد الخيانة والجهل . فيطوح به منفياً إلى الشام ، لأنه أفتى بخلع توفيق الضعيف من الخديوية .

يرحب الشام بالعالم المصرى الأسمر الطويل اللحية الذى يحمل سحنة فلاح قح . فيدرس فى المدارس .

ويبعث إليه أستاذه القديم داعياً إياه إلى باريس البلد الذى يعرف الحرية لزواره . ولا يعرفها لمن وقع تحت سلطانه فى الجزائر وتونس ومراكش ، وغيرها من الأقطار التى ترزح تحت الاستعمار .

ويعمل الرجلان فى صحيفة العروة الوثقى الداعية إلى تحرير الشرق الإسلامى والرافعة المشعل إلى الأذهان لتهتدى بهدى المعرفة .

فيصدران منها خمسة وعشرين عدداً ، دوت فى العالم الإسلامى دوياً ملأ الآذان وأفعم الصدور بالجلال .

حدثنى الأستاذ اسعاف النشاشيبى رحمه الله قال :

« إن الخمسة وعشرين عدداً التى ظهرت من صحيفة العروة الوثقى كانت أبعد أثراً فى النهوض بالشرق من سائر الصحف العربية مجتمعة . »

ويتعلم اللغة الفرنسية وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، وكان قد هفت نفسه إلى تعلمها إبان الثورة العرابية فشغلته الحوادث عن ذلك .

ويمشى عارفو فضل هذا الرجل العبقرى إلى السراى ويلتمسون العفو عنه من الخديو . فيأذن الخديو الشاب - الذى كان يكره أباه - برجوع الشيخ محمد عبده ، ويوليه القضاء فيقيم العدل حتى على زملائه المستشارين .

قال لى الشيخ أحمد عبد الرحيم وكان يعمل مصححاً معى فى القسم الأدبى بدار الكتب رحمه الله :

كان فلان بك المستشار قد دعانى فى شهر رمضان لأقرأ له البخارى طوال الشهر ، على أن يعطينى عشرة جنيهات ، فلما انقضى الشهر ، ولم يعطنى شيئاً ومطلنى ، فكلما جئته سائلا حقى احتجب .

فدلنى بعض الناس على الذهاب إلى الشيخ محمد عبده لأشكو إليه هذا المماطل ، فذهبت إلى داره فى منشية الصدر وذلك قبل أن ينتقل إلى عين شمس، وشكوت إليه الرجل فقال : تعالى غداً فى المحكمة.

فلما كان الغد ذهبت إليه فى الموعد ، وكان فى الجلسة للقضاء فجلست مع النظارة فلمحنى ، فلما انفضت الجلسة بعث الى بحاجبه يدعونى إليه فى غرفة المداولة ، فذهبت فلما رآنى نهض معى إلى غرفة المستشارين حيث كان يجلس المدان ، فعنفه الشيخ على مماطلة رجل فقير ، فخجل المستشار وأعطانى حقى كاملا مع الاعتذار والأسف المصطنعين .

ويجلس الأستاذ الإمام للدرس فى الأزهر فى حلقة عصر كل يوم ، كما كان يجلس واصل بن عطاء وأبو حنيفة فى القرن الأول والثانى الهجرى.

وكان هذا الرجل المتقدم العقل الذى يسبق عصره الأزهرى ، بمئات السنين يلقى دروساً فى الفقه والفلسفة والتاريخ ، لم تألفها جامعة جوهر الصقلى من مئات السنين .

فقد كان يطبق على تلك الأجواء قبل تلك الحلقة سحاب كثيف من الرجعية، وضيق الأفق، والتعلق بالقديم المتراكم من إنتاج أذهان مغلقة .

وقد ذاع صوت تلك الحلقة التى كان يعقدها الأستاذ الإمام ، فسعى إليها رجال مستنيرون من غير أهل الأزهر أشباه : سعد زغلول ، وقاسم أمين ، وفتحى زغلول وغيرهم .

وكان يلم بتلك الحلقة ضابط شاب سمح له الفراغ الطويل من عمل لايلزم صاحبه إلا بجولات صباحية لتدريب الجنود، ويسمونها طوابير الصباح ، ثم هو بعد ذلك حر فى وقته .

فكان الفتى الضابط الذى تهفو نفسه إلى العلم ، والذى لم يتزود منه إلا بقراءات عابرة فى كتب سيئة الطبع ، يلم بهذه الحلقة ليصيب منها علماً منظماً ، كما يتلقى الطلاب محاضرات الأساتذة فى الجامعات .

وكان يجلس فى أقصى الناس عن الأستاذ المحاضر . ولم يتعرض يوما ليد «غراب» الحاجب وطرده من الحلقة .

وغراب حاجب الإمام يقف من درسه موقف ضابط المدرسة من التلاميذ ، فاذا شغب أحد ورفع صوته بالحديث مع جاره ، أشار الإمام إلى غراب قائلا : « خذه يا غراب» ، فيتلقفه الحاجب العنيف ثم يسحبه من بنيقته حتى باب الأزهر ثم يرسله مطروداً .

ويلزم الضابط الشاعر الحلقة ، ثم يلفت إليه الأستاذ المحاضر بأبيات من الشعر يبعثها إليه مديحاً وإطراء .

ويحدب الأستاذ على الضابط الشاعر ويقربه ، فيتردد على داره بمنشية الصدر ثم بعين شمس ، ويطلق على نفسه لقبا يتصل بالرجل العظيم فيمهر قصائده إليه بكلمة ( فتاك ) .

ويذكر تلك الأيام التى كان يرتاد فيها دار الشيخ فيقول :

فيامنزلا فى عين شمس أظلني * وارغم حسادى وغم عداتى
دعائمه التقوى وأساسه الهدى * وفيه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله ما لك موحشا * عبوس المغانى مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا * تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة * ومطلع أنوار وكنز عظات

وسنرجع إلى النظر فى مدلول هذه الأبيات بعد قليل .

ويسافر حافظ إلى السودان ، وتنزل به الكوارث التى توهمها . فيهرع إلى الإمام بالمدائح وكتب الإستغاثة .

ويعود حافظ من السودان إلى القاهرة . فيلزم الرجل ويقيم من نفسه شاعراً له ومولى ويقول :

قالوا صدقت فكان الصدق ماقالوا * ما كل منتسب للقول قوال

هذا قريضى وهذا قدر ممتدحى * هل بعد هذين إحكام وإجلال
إنى لأبصر فى أثناء بردته * نوراً به تهتدى للحق ضلال
حلات داراً بها تتلى مناقبه * ببابها ازدحمت للناس آمال

ويطوف معه البلاد كأنه المتنبى مع سيف الدولة ، ويسجل الرحلات ويقول : —

صحبت الهدى عشرين يوماً وليلة * فقر يقيني بعد ما كان يرجف
فرحت وفى نفسى من اليأس صارم * وعدت وفى صدرى من الحلم مصحف

ويعود ويستقبله عند أوبته من سياحته بالجزائر ، ويذكر الترحاب بممدوحه هناك :

وسرى البرق للجزائر للبشـ * ـرى بقرب المطهر الأواب
فسعى أهلها إلى شاطىء البحـ * ـر وفوداً بالبشر والترحاب
أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا * يرقبون الإمام فوق السحاب

ويفسد حافظ المودة بينه وبين ممدوحه كما فعل البحترى مع الفتح ابن خاقان . ثم يعود معتذراً مستعطفاً ويقول :

لقد بت محسوداً عليك لأنني * فتاك وهل غير المنعم يحسد
فلا تبلغ الحساد منى شماتة * ففضلك محمود وأنت محمد

وقد عاش حافظ فى ظل الإمام خمس سنين يرعاه ويتفقده بنفوذه

وماله، فالرجل بار بمن يلوذ به. كان يعطى الأستاذ الشنقيطى عشرة جنيهات فى الشهر من حر ماله ، ويعطى الشاعر محمد الكاظمى دون ذلك، ويعطى حافظا ما يكفى للعيش الكريم .

كل هذا العطاء والرجل لم يكن غنياً ، ولم يكن يملك إلا راتباً لا يزيد على المائة جنيه فى الشهر .

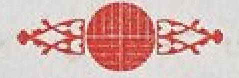
وفى الحق أن حافظا ظل حياته كلها وفياً للإمام محمد عبده . الذى قال فيه مستر بلنت الإنجليزى : إنه من أذكى الرجال الذين عرفتهم .

وظل حافظ يذكر إحسانه فى مجالسه وفى رثائه له ، ورثائه لغيره . وذكره بعد تسع سنين . فقال فى رثاء جورجى زيدان :

كفانى ما لاقيت من لوعة الأسى * وما نابني يوم الإمام كفانى

ويرجع ويتوجع بعد سبعة عشر سنة على الرجل الذى أحسن إليه ، فيذكره فى رثاء صفيه حفني ناصف ، فيترك التوجع على الصديق بعد أبيات قليلة ، ويخوض فى البكاء على الإمام فى ثلاثين بيتاً تتأجج باللوعة والأسى .

ويعرف شوقى لحافظ هذا الوفاء فيذكره فى قصيدة رثائه .



الأباظية قوم يعرفون بسياهم ، كما قال حافظ عند وصفه للشرطة مترجماً عن فيكتور هوجو فى كتاب البؤساء .

فلو أنك دسست أباظياً بين شعوب وقبائل من الترك أو العرب أو من الروم أو من الهند أو ممن شئت من الشعوب والقبائل ، ثم نصبت أى إنسان كان قد عرف واحداً من هذه الأسرة ، وقلت: «دل على الأباظى»، لأخرجه من بين هـذا العديد من الناس ، فوجوه هـذه الأسرة عناوين عليها لاتخطئها العين .

نزلت هذه الأسرة مصر فى القرن السابع الهجرى ، من قبيلة عربية يمنية تسمى العائذ : بطن من بطون كهلان . هكذا قال ابن خلدون .

وقال المقريزى : العائذ بطن من جذام ، ينسبون إلى عائذ الله ، وقيل ينسبون إلى عائذة .

وقد عرف فضل هذه الأسرة إبراهيم بن محمد على ، فأقام كبيراً منها هو حسن أباظة شيخاً لمشايخ الشرقية .

وقد شغل أفراد عديدون من هذه الأسرة المناصب الرفيعة كالوزارة والقضاء والمحاماة والطب والصحافة . وأول من حمل لقب باشا من أبناء العرب . كان سيد باشا أباظه .

ولم يخل عهد من أوائل القرن التاسع عشر إلى وسط القرن العشرين من أباظيين يحتلون أمكنة مرموقة .

حتى الرياضة وكرة القدم وفلاحة البساتين وتنظيم المعارض ، كان لهم

فيها سبق وذوق وأناقة . . حتى الشعر والأدب ، كان لهما منهم شعراء وأدباء مبرزون .

وأول من قدم حافظاً لهذه الأسرة القديمة فى العراقة : محمد بك سليمان أباظة وكان يعمل أخيراً مديراً للدومين ، وكان قبل ذلك ضابطاً زميلا لحافظ بالسودان. فتشبثت به الأسرة وظالته لأدبه وظرفه، فراح فى أكنافها ينعم ويلهو ويرتزق .

وكان أكثرهم حباً له وتقريباً : محمد باشا أباظة بن عثمان أباظة ابن سيد أباظة مدير عام الأقاليم .

كان الرجل فى بيته الريفى الذى يشبه بيوت النبلاء الإنجليز. والذى يطل على بحر مويس . حيث الظلال الشعرية ، والمياه الخافقة الحرير المرصعة بالحبب السريع الزوال فى بلدة الربعاية فى الشرقية .

ينزل إليه عبده الحمولى فى رفقة من الظرفاء والسراة والندماء شهراً أو بعض الشهر يغني فيطرب ويطرب .

وقد عرف حافظ الطريق إلى تلك الدار الأنيقة المضيافة المترفة ، فكان يحلها وحده أو فى رفقة عبد العزيز البشرى والخضرى المدرس والمؤرخ ، وعبد الحميد البنان الثرى الوجيه .

وقد يظل الشهور هناك ناعماً طاعماً كاسياً ، وقد وثق حافظ من

كرم الرجل وحبه له، فلم يمدحه بشعر كغيره من الأباظيين الذين مدحهم وإن كان رثى أباه كما سيجيء .

وتلك حالة نفسية قد لاتخفى على المتفحص ، فحافظ كان يدلى بوفائه وحبه لهذا الرجل الحبيب إلى قلبه ، بالحديث والتقرب والشكر ، فهو فى شغل عن المدح المقفى بالمدح المرسل على فطرته من اللسان .

وينشد حافظ صاحب الدار من شعره ومن متنخل ما يحفظه من شعراء العرب ، فقد كان ذا ذوق فى هذا المجارى ، وكان صاحب الدار يسمع ويطرب ، وكان الجلساء والندماء يسمعون ويطربون .

ويطرق هذه الحلقة الشاعرة الفينة بعد الفينة ، فتى صغير لم يتجاوز تعليمه الثانوى بعد ، فيستمع مع المستمعين ويطرب مع الجماعة ، ويلقى بأذنه إلى محفوظ حافظ ، ثم يسأله أن يكتب له بعضاً منه ، لأنه يحب الشعر الجزل الفخم . ثم هو بعد يقول الشعر فى خفية خشية النقد لأنه صغير .

وتمر الأيام ويهضم الشاعر الصغير هذه المجموعة الرائعة من الشعر الفحل ، ثم يتأثر بها وينهج على نهجها عندما يشتد غرسه ويتسع أفقه . فيظهر للناس فى قصائد سيارة وفى مسرحيات ، سدت ثغرة كان قد تركها شوقى بعد موته مثلومة ، لم ينهض لسدها أحد حتى تقدم لها عزيز أباظه بن محمد أباظه صاحب الدار الأنيقة الواسعة فى بلد الزبعاية .

ويلزم حافظ البيت الأباظى ويقوم مهنئاً سليمان أباظه باشا من مرضه ثم بعرس نجله على فيقول :

لبست الشفا ثوباً جديداً مباركا * فألبستنا ثوباً من العز نرضاه
وكان عليك الدهر يخفق قلبه * فلما شفاك الله أهدأت أحشاه

ويذكر العرس فيقول :

وكن لعلى بهجة العرس إنه * بعزك فى الأفراح تمت مزاياه
ولا تنس من أمسى يقلب طرفه * فلم ير إلا أنت فى الناس عيناه

ولم ينس أن يواسى عبدالله أباظه بك فى حريق رآه بمنزله :

عجب الناس منك يا ابن سليما * ن وقد أبصروا لديك العجيبة
أبصروا فى حماك غيثاً وناراً * ذاك يهمى وتلك تزكو لهيبا
ونسوا أن جود كفك غيث * ظل للمرتجى الورود قريبا

وينوح فى مناحة والد الرجل الذى أكثر الإحسان إليه وخصه بمودته ، فيقول :

أبعد عثمان أبغى مأرباً حسناً * من الحياة وحظاً غير منكود
إنى ليحزننى أن جاء ينشده * داعى المنون وإنى غير منشود
بنى أباظة لا زالت دياركمو * أفق البدور وغاباً للصناديد
لا قدر الله بعد اليوم تعزية * إلا هناء على عز وتأييد

ثم ينتقل إلى رثاء سليمان أباظة بعد رثائه عثمان بسنة واحدة ، بمرثية يعارض فيها أبا العلاء فى مرثيته الخالدة .

غير مجد فى ماتى واعتقادى * نوح باك ولا ترنم شاد

ولم يكتف بمرثية واحدة فى الرجل بل قفاها بأخرى ، يذكر فيها الأسى وتلهب الأحشاء ، ويبكى على الوفاء المندرج مع الفقيد والذاهب بذهابه ، وينصح ألا يحملوه على الأعناق بل يتركوه فوق الدموع حتى يصل إلى الجنة .

ثم يعود ويقف على قبر عبدالله أباظة بك سنة ١٩١٩ ، بعد أن أغنته الدنيا عن التكسب بالمدح والرثاء ، وينطقه الوفاء الذى كان من خلاله :

يا عابد الله نم فى القبر مغتبطاً * ما كنت عن ذكر رب العرش باللاهى
يا رحمة الله هـــذا قبره فقفى * وآنسى روحـــه يا رحمة الله

وفى الحق أن لهذه الأسرة أيادى فى عنق حافظ أغنته وأعانته ، وقد اشتركت معها أسرة أخرى فى ذلك سنتحدث فى شأنها بعد قليل .

وقد ظلت الأسرتان تعاونانه حتى بعد أن تلقفته الحكومة المصرية وأقعدته على كرسى الوظيفة سنة ١٩١١ .

كم نعمة لك يا محمود عند أبى * بشكرها لك عند الموت أوصانى

بهذا البيت الأخير ختم حافظ مرثية محمود سليمان باشا أظهر رجل كان فى صعيد مصر سنة ١٩٢٩ .

وقد ذكر الشاعر يد هذا الشيخ الجليل على أبيه ، وأن هناك وصية أوصاه أبوه بها ، ولا شك أنه كان يعنى احتفاظ الجميل لهذا الرجل وأولاده بالشكر ثم بالوفاء .

وقد أسلفت أن إبراهيم أفندى فهمى كان يفيد من الرجل ويستفيد منه الرجل. كان إبراهيم أفندى يفيد من محمود سليمان : الذهبية لسكناه . والمال وخزين البيت كما تقول العامة ، فالسمن والقمح جزية اختيارية ، كان يدفعها محمود سليمان إلى إبراهيم فهمى ، وقد انتقلت هذه الجزية بعد موت إبراهيم فهمى بثلاثين عاما إلى ابنه حافظ ، يؤديها محمود سليمان ثم من بعده أولاده الأربعة ، وأنسباؤه أولاد خشبة فى أسيوط .

فكأن هذه الجزية الاختيارية لقب اللوردية فى بلاد الإنجليز تنتقل من الأب إلى الابن .

واستفاد محمود باشا من المهندس إبراهيم خبرته وماء النيل ، والأولى مختلسة من حق الحكومة ، والثانية من حقوق الشعب .

ويشاء حظ حافظ الحسن أن يكون فى أولاد محمود سليمان الأديب والظريف والكريم .

محمد محمود باشا أصغر أولاد محمود سليمان الذى تسنم ذروة الوزارة المصرية والذى كان رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين .

كان رجلا حريصاً على كرامته حرصاً بلغه مرتبة الكبرياء ، كان يتعالى على الملوك . كان لا يأبه الملك فؤاد حين جعل نفسه مساوياً له فى رحلتهما إلى بريطانيا . على رغم تمسك هذا الملك المتنقل من الحانات العامة — والذى رفض البنك الأهلى أن يقرضة ثلاثمائة جنيه قبل توليه العرش بعشرة أيام لأنه لا يملك ضمانا لهذا — إلى العرش .

وقد بلغ من جبروت هذا الملك وكبرياءه ، أن رئيس تشريفاته سعيد ذو الفقار لما سأله عن موعد ذهابه إلى القاهرة — وكان فى الإسكندرية يصطاف — غضب وزجر الرجل رغم قدم سنه وخدمته وقال : « إن الملوك لا تسأل » . فاستخذى المسكين واعتذر .

ولكن محمد محمود رفض أن يعترف للصحفيين الإنجليز بأنه مسافر مع الملك . بل قال : « إن الملك هو الذى سيسافر معى » .

وكنت أعرف هذا الرجل معرفة وثيقة . وكان رحمه الله يحب الأدباء ويقربهم .

ذهبت إلى داره يوماً ، فألفيته جالساً فى غرفة واسعة وحوله كثير من العظماء والسراة وهو فى صدر المكان متكىء على جنبه — وتلك كانت جلسته — وحوله هؤلاء ، وكأنهم تلاميذ فى فصل مدرسة من العهود الماضية .

فلما بصربى رحب ودعانى إلى الجلوس إلى جنبه رقة منه وتواضعاً وعطفاً على الأدباء كما قدمت .

وكان فى الجلوس شاب معمم تدل هيأته على أنه طالب فى معهد من المعاهد الدينية .

ولما كان محمد محمود يعرف كل جلسائه ، نظر إلى هذا الطالب الغريب واستفسر عن علة قدومه داره .

فقال الشاب : «أنا من مدرسة دار العلوم وقد نحانى على عمر ناظر المدرسة عنها، فجئت راجياً أن تكلمه فى العفو عنى والإذن لى فى الرجوع إلى المعهد» .

فقال : «أنا لا أعرفك ولا أعرف سبب هذا الإقصاء ، فكيف أتكلم فى أمر دقيق مثل هذا من غير بينة ، فلعلك تستحق ما نزل بك » .

فنظر إليه الفتى — وكان ماكراً لبقاً — وقال : «لا يصح يا باشا أن تقول إنى لا أعرفك وقد تحرمت بمنزلك وشربت قهوتك » .

فرفع إليه الصعيدى العربى الأصل عينيه وقد أسفر وجهه وخالط لونه الذى كان يشبه وجوه المرضى دائما حمرة خفيفة وقال : ( اسمك ايه ) ، وكتبه عنده ، وأمر الفتى أن يذهب إلى معهده غداً فإنه مقبول فيه .

وقد أحب محمد محمود حافظاً وقربه لأدبه وظرفه . وكان حافظ يلازمه دائماً ، ولم يغضب منه محمد محمود عندما لزم حاشية سعد زغلول ومشى فى

ركابه وصار من أتباعه وسماره ، ونظم هذين البيتين . وكان سعد خصماً سياسياً لمحمد محمود عهداً طويلا ..

قل للرئيس أدام الله دولته * بأن شاعره بالباب منتظر
إن شاء حدثه أو شاء أطربه * بكل نادرة تجلى بها الفكر

لم يغضب منه لأنه يعرف تقلب حافظ وانفلاته من القيود .

وكان حافظ عندما تولى محمد محمود رياسة الوزارة يخال نفسه أنه هو محمد محمود . فإذا تحدث معنا قال : «نحن فعلنا كذا وسوف نفعل كذا» .

ولقيته مرة فى بولكلى مقر الوزارة بالإسكندرية يصول ويجول، وكان يكره الإسكندرية ويقول : « إنه البلد الوحيد الذى تلقى فيه من تكرهه فى اليوم عشرين مرة » . ولكن حبه لمحمد محمود غلب بغضه للإسكندرية.

ويمدح نسيم الشاعر رئيس الوزارة بقصيدة جاء فيها :

قالوا عليها سليمانية صدقوا * هل يطهر الرجس إلا بالسليمانى

ويمشى حافظ إلى الرئيس ، ويأخذ لنسيم منه مائة جنيه جائزة لهذه القصيدة .

ويمتدح حافظ محمد محمود ويهنئه بلقب خلعته عليه جامعة أجنبية لأنه رئيس وزارة مصر وصديق للورد جورج لويد ويقول :

شرف الرياسة يا محمـ * ـد زانه شرف النهى
بردان من نسج الجلا * ل إليهما الفخر انتهى

والتالى من الأولاد فى الشهرة : هو حفنى محمود .

وكان صديقاً لحافظ صداقة وثيقة ، لأن فى أخلاقه دعابة ، وفى حافظ دعابة ، ثم هو يحب الأدب ، وحافظ شاعر وأديب ، وهو كريم أنفق أكثر ماله ، وحافظ لا يكره الكرماء .

وكانت دعابة حفني متعالمة مشهورة ، قد تبلغ أحياناً القسوة بمن تعنيهم .

حدث فى ليلة أن صادف رجلا فلاحاً فقيراً يفترش الإفريز . فنزل إليه من عربته وأيقظه ثم سأله عن بلده ، وعن حالته التى ألجأته إلى افتراش الإفريز .

فقال الرجل : « إنه فقير ، وإنه غريب » . فقال حفني : « لماذا تنام هنا ؟ . والحكومة قد أقامت دار ضيافة لأمثالك الغرباء والفقراء » . فقال الرجل : « إنى لا أعلمها » ، فاصطحبه معه فى عربته إلى منزل صديقه شرف الدين المستشار . وكان يعلم أن صديقه لا يرجع إلى داره إلا فى الساعة الثانية صباحاً .

فلما بلغ الدار استقبلته خدم شرف الدين بالتكرمة ، لأنهم يعرفونه . فاستغفل الرجل وقال لهم : «هذا ضيف البيك وقريبه ، وقد أوصانى بأن أحمله إلى هنا ، كما أوصى أن ينام فى غرفته الخاصة» ، وأمرهم أن يعدوا العشاء .

فلما تعشى الرجل أخذه إلى غرفة صاحب الدار ونضى عنه أسماله البالية .

وألبسه بيجامة شرف الدين الحريرية . وقال : « اسمع ياعم . فى هذه المضيفة رجل مجنون ، ومن عادة جنونه أن يقتحم الغرف على الضيوف ، ويدعى أنهم يحتلون غرفته الخاصة . فإذا جاء فازجره ثم اطرده » فضحك الرجل المسكين . وقال : « ما تخافش دانا رايح أخالى ليلته سودا » . وانصرف عن الدار بعد ما أوصى الخدم بالضيف .

ونام الخدم . وكان من عادة شرف الدين أن يفتح باب داره بمفتاح معه ثم يأوى إلى غرفته من غير أن يوقظ أحداً من الخدم . وكان أعزب .

فلما كانت الثانية صباحاً حضر الرجل منهوكا من سمره . وفتح الباب ثم دلف إلى غرفة النوم . فاذا بأسمال مهلهلة منثورة على الكراسى الموضوعة فى الغرفة . وإذا بسريره مشغول برجل لايعرفه ، فجن جنونه وهجم عليه يوقظه ، فهب الرجل مذعوراً ، وإذا به يواجه المجنون الذى حذره منه حفني ، فابتسم فى رثاء وقال : « أحسن لك تمشى أنا عارفك » .

فحمى غضب شرف الدين وعلا صورته ، وكادت تقع الواقعة . فإن الرجل أهوى إلى مركوبه المرصع باللوز وهم . . . .

ولكن الخدم استيقظوا على ضجيج المعركة وأدركوا سيدهم ، وهو مذهول طائر اللب ، فأنهوا إليه حادثة حفنى ، فسكت على كظم وأمرهم أن يصحبوا الرجل إلى المطبخ حتى الصباح ثم يصرفونه .

ويجلس حفنى فى البرلمان المصرى جنب عبد الستار الباسل، والاثنان عضوان هناك، ورئيس المجلس سعد زغلول، وتحتدم المناقشة فى أمر من الأمور. فتحدث ضجة عالية، يهب على أثرها عبد الستار الباسل من نوم كان مستغرقاً فيه، ويسأل جاره عن السبب فيقول: «إن بعض الأعضاء قد تقدموا باقتراح إلى المجلس يطلبون فيه تحريم ذبح الجمال».

فيستشيط النائب العربى الذى ألف هذا اللحم هو وأجداده فى القبائل غضباً، ويطلب الكلمة من الرئيس، فيجيبه سعد إليها، فيحتج على هذا الاقتراح. ويدلل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل لحم الإبل. وهو طعام العرب الأول.

فيفطن سعد زغلول الفطن دائماً إلى مكيدة حفنى ودعابته، ويجيب عبد الستار الباسل قائلا: «نم ياعبد الستار بك فإن الجمال ستبقى فى خير».

هذا الملك فؤاد مريض قد استقدم طبيباً ألمانياً عالمياً لفحصه وعلاجه. وكان رئيس الوزارة محمد محمود مريضاً أيضاً.

ويطلب حفنى محمود الطبيب فى التليفون من شبرد وينهى إليه، أن رئيس الوزارة يسأله عيادته. فيشترط الطبيب الأجنبى أن يتقاضى خمسمائة جنيه أجراً لهذه العيادة. فيقبل حفنى، وأخوه الرئيس غافل عن كل شىء ويحضر الطبيب ويفحص محمد محمود، فيقر علاج الأطباء المصريين

وينصرف ، ويظن محمد محمود أن هذه لفتة سامية من مولانا . لأنه أرسل له الطبيب العالمي ، فيذهب ليشكر الملك ، ويكتم فؤاد الحقيقة عن رئيس وزرائه ويتقبل الشكر متواضعاً .

ويستبطىء الطبيب ورود الشيك بالأجر . فتدفعه صراحته الألمانية إلى سؤال مكتب رئيس الوزراء عن علة التأخير . ويعلم محمد محمود بالدعابة . ويستقدم أخاه ويقسم أن لايدفع المال إلا خاله سيد باشا خشبه . لأنه هو الذى دلله وأحبه فأفسده . فيدفع الرجل المظلوم فدية عبث ابن أخته .

وكان حفنى يستطيب طعام حافظ ابراهيم ويختص بالاستطابة ورق العنب والملوخية وحلواء البطاطس .

فكان حافظ يدعوه إلى هذه الأصناف كثيراً . وكان رحمه الله يلعن هذه الأصناف ويقول : « دى خربت بيتى » .

وكان حفنى لايذهب وحده بل يصحب كثيراً من إخوانه . ولكن حافظا كان يجد الحيلة فى تحصيل ثمن الطعام من وجوه أخرى لاتعجزه عند حفنى الكريم المتلاف .

ويعمل حافظ داعية لانتخاب حفنى يوم رشحه الوفد لعضوية البرلمان سنة ١٩٢٦ فيقول :

إن رشحوك فأنت من بيت رمى * بسهامه عن حوزة الأوطان
زكاك إقدام ورأى شاهد * وتقى إيمان وحسن بيان
لو كنت بين الناخبين لأدركوا * ما فيك يا حفنى من رضوان

ولم يكتف بذلك ، بل يهب لمجاملة حفنى فيمتدح صديقه عسران عبد الكريم فى حفل أقيم فى شبرد ويتخذ لنفسه صنعة بائع غلال .

ويلى الاثنين من ولد محمود سليمان فى الأهمية عند حافظ اثنان هما : عبد الرحمن محمود أكبر أولاد محمود سليمان وعلى محمود التالى بعد محمد محمود.

وحدثنى الأول قال :

« كان حافظ يطرق بيتى فى كثير من الأيام فى وقت الغداء، ويصيح فى الخدم : فين القوارب ؟ ، والقوارب هذه ، ضرب من الصحون السكسونية تشبه فى صنعها قوارب الماء ، كان يمتهنها عبد الرحمن محمود .

فيحضر الغداء كثيراً شهياً متعدد الأصناف، فلا يكتفى حافظ بذلك بل يصر على شراء لحمة رأس من المسمط ، فكنت أقول : « إيه فراغة العين دى يا أخى الأكل قدامك كافى » . فكان يخرج الفلوس من جيبه ويهم باعطائها للسفرجى قائلا : « خد يا جدع هات دا سيدك غلبان » . فامتثل واشترى له ما يشتهى وأنا أتعجب » .

أما على محمود رحمه الله ، فلم أعلم عن صلة حافظ به شيئاً ، ولم أحاول أن أعلم . فإن فيما قدمته مقنع وكفاية فى صلة حافظ بهذا البيت .

وقد كان سيد خشبه خال محمد محمود وحفنى محمود ، باراً بحافظ محباً له يزوره ويتفقده ويستظرف مجلسه وأدبه وله معه حادثة بر ، سأتعرض لها عند الكلام عن صفاته وأخلاقه ومنازعه .

وهذه طائفة من أصدقاء حافظ كان يفيدهم ويفيدونه . فبعضهم أفاده بالمال والظرف ، وبعضهم أفاده هو بالمال واستفاد ظرفا ، والبعض الآخر كان أمره كفاف لا عليه ولا له .

وأول هذه الطائفة وأبرزهم وأشهرهم : محمد البابلى بن عبده بك البابلى من كبار تجار الجواهر فى مصر . كان من أكبر الأغنياء ولكنه أضاع ماله فى البورصة .

حدثنى حافظ :

« كان عبده البابلى والدنيا مقبلة عليه . يلعب الورق مع أمكر المقامرين وأبعدهم دراية باللعب . وكان ضعيف البصر ، ولكن حسن حظه وسعادة جده . يمكنان له دائماً من غلبة هؤلاء الماكرين المحترفين الدهاة المتآمرين عليه حتى يفلسهم .

فلما أدبرت عنه الدنيا . وقد أخذ يضارب فى البورصة . كان يحمل المال فى حقيبة ثم يفرغه خسارة بين يد السماسرة فيذهب فى تلك البالوعة التى لا ترحم ولا تمسك ما يلقى فيها » .

وكان عبده بك ظريفاً. ولعل ابنه محمد قد ورث عنه الظرف الذى سأتحدث عنه قريباً . قال حافظ :

« كان عبده بك يعطى ولده محمداً عشرة جنيهات فى الشهر غير طعامه وكسوته . وكانت فى ذلك الوقت لها قيمة شرائية عظيمة . ولكن محمداً كان متلافا فكان ينفقها فى أيام قليلة . ثم يذهب إلى أبيه ليسأله مالا لينفقه .

فكان أبوه يضيق بإسراف ولده . حتى جاءه يوماً فى المقهى الذى كان يجلس فيه وطلب مالا ، فتبرم به أبوه وقال : « إسمع أنت حيرتنى . تعالى خد المصاريف والدخل والخرج وكل شىء واعطنى عشرة جنيهات مصاريفى الشخصية كما تأخذ أنت » .

ففرح ابنه محمد وقال : « قد قبلت » . وانصرف . ولكنه لم يكد يخطو خطوات قليلة حتى استدعاه أبوه قائلا : « إسمع ؟ » .

فرجع الشاب فقال له أبوه : « ولكن لى شرط » . فلما استفسر منه عن هذا الشرط . قال : « تتجوز أمك » . فضحك الجميع .

تخرج محمد البابلى فى مدرسة البوليس ضابطاً ، ولكنه لم يمكث فى الخدمة طويلا ، فاستقال ليعمل مع أبيه الثرى .

وكان أظرف الظرفاء وأبرعهم نادرة وأسرعهم نكتة فى أوائل هذا

القرن . وكان ضخم الجسم ، ضخم الصوت ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، لم ينس نصيبه من المرح والشراب قط حتى موته سنة ١٩٢٤ . وقد فات الخمسين بسنوات ، وكان متلافا ، لا يعرف للمال وزناً ولا قيمة . فقد أضاع الكثير ، ولكنه مات مستوراً كما تقول العامة .

عرفته زمناً طويلا فلم أفلت من نكاته ومداعباته القاسية .

وكان فى لباسه : تراه مرة فى بذلة . ومرة تراه يرتدى العباءة وتحتها جلباب من الصوف .

يغشى فى الصباح مقهى الأنجلو . ونيوبار . وبار اللواء . وفى المساء بار بافريا . والباريزيانا . حتى إذا انتصف الليل عرج على ملهى مدام مارسيل الذى تحتل مكانه الآن سينما استديو مصر .

وكانت مدام مارسيل : إمرأة فرنسية ضخمة قصيرة مكتنزة . تنتقى أجمل الفنانات الأجنبيات للرقص والغناء والتسلية . فكان محمد البابلى محبوباً بينهن . يلتففن حوله ويضاحكنه ، ولم يعرفن من العربية إلا كلمات قليلة متعثرة .

ومن نوادر محمد البابلى : أنه جلس يوماً فى جماعة يلعبون البوكر ، وكان مجلسه بجانب لاعب . يدقق تدقيقاً عظيما فى الكشف عن الورق

الذى بين يديه حتى لا يكاد يبسطه . فاغتاظ محمد البابلى وصاح فيه : «يا أخى ماتكشف الورق . ما هو قسيس هو أنت خايف تبان عورته ؟»

ورأى مرة رجلا ريفياً ينظر إلى إعلان فى حائط ، وضع حديثاً ولا يزال مبتلا . والظاهر أن الرجل كان يجهل القراءة لوقوفه طويلا أمام الإعلان . فقال له البابلى : « طول بالك عليه ده لسه أخضر . لما ينشف إبقى تعالى إقراه » .

وذهب يوماً إلى حافظ إبراهيم فى داره وكان شتاء . فرأى حافظا يلبس جلباباً من الكستور منقوشاً على هيئة الأبسطة العجمية . فابتدره قائلا : «لازم لابس تحت الجلابية دى حصيرة » .

وحدثنى حافظ قال : «مكثت ضيفاً على محمد البابلى عهداً طويلا فى حلوان . وكانت السيدة زوجته تترك الدار كثيراً حيث تذهب إلى أهلها . فكان يصحب أحياناً معه فى بعض لياليه نساء للتسلية ، ويأتى بهن إلى الدار وكان يشركنى فى هذه التسلية .

فحدث أنه كان قادماً من الاسكندرية ، فشاركته فى الصالون الذى كان فيه حسناء فتحدث إليها . فعلم أنها غريبة عن القاهرة . فدعاها إلى ضيافته فى حلوان وادعى لها أنها كأبنته ولا حرج فى الذهاب معه إلى داره . فقبلت الفتاة بعد تمنع قصير . ولما جاء القطار القاهرة اصطحبها إلى حلوان .

قال حافظ : « وكنت لا أزال سهران. فأبصرتهما داخلين . وكنت أنام فى السلاملك . فدعوت البابلى بصوت خافت . فأشار لى بالسكوت.

فلما دخلا المنزل . أراد أن يريها غرف الدار . فلما همت بدخول غرفة المكتبة — وكان لسوء حظه أن هذه الغرفة تجاور غرفة ينام فيها أولاده الصغار مع مربيتهم — هم بتقبيلها وطوقها . فنظرت إليه الفتاة وأدركها الدفاع عن العرض . وقالت بصوت عال : «عيب يا بيه دانا زى بنتك » .

فأسرع ووضع يداً على فمها والأخرى فى جيبه . وأخرج جنيها وقدمه لها . وهو يقول : « فى عرضك . ! فى عرضك ! » .

والظاهر أن الفتاة كانت داهية لعوباً . فاستغلت الموقف . وتابعت الصياح . وتابع هو إعطاء الجنيهات حتى بلغت خمسة . فرضيت الفتاة بالسكوت وطلبت الإنصراف وفى يدها المال » .

قال حافظ : « وظللت منتظراً حتى سمعت خطواتهما . فأشرفت من نافذة السلاملك . وحسبت أنهما قادمان إلى . فلما مرا بى ولم يدخلا السلاملك ، دعوت محمد البابلى . فقال غاضباً : « لبط ونام يا ابن الـ ... »

وتحدث حافظ أمامى مع البابلى عن زوج خاله التى كانت تعطف عليه وهو يتيم . أيام كان ينزل دارها صغيراً هو وأمه . وقد حفظ هذه

الأيادى . حتى إذا مات خاله آواها فى داره ، وأصبحت قيمة عليها ، وأنزلها منه منزلة الأم .

فكان حافظ إذا ذكر اسمها . لم يذكره مجرداً بل كان يقول « عيشة هانم » فما كاد يسمع البابلى كلمة هانم حتى صاح فيه : «عيشةهانم إيه ...؟!! هيه يعنى عيشة هانم يكن ، ياشيخ اختشى » .

ونوادر البابلى وطرائفه كثيرة . وقد قدمت منها القليل للتدليل على ظرفه . ويمنعني المجال من الاستزادة .

وكان البابلى جميل الصوت عذبه . كان الرجل الوحيد الذى يجيد تقليد عبده الحامولى تقليداً بارعاً .

أنشأ خليل مطران مقالا جاء فيه :

« بكرت يوماً . فبينما أنا أمام النافورة التى تطالع حى الأزبكيــة من شارع كامل فإذا بعبده الحامولى . فقلت فى نفسى : عبده هنا فى مثل هذه الساعة . وكنا غريبين التقيا على غير موعد .

ولم يلبث أن تقدم مني من غير تحية وأخذ بذراعى فتأبطها . ثم سرنا صامتين حتى إذا كنا أمام حديقة الأزبكية دلفنا إليهــا . فسرنا فى طرقاتها . فإذا نحن بتعريشة تحتها مقعد جلسنا عليــه . ولم يلبث عبده أن وضع يده فى جيبه وأخرج سبحته . وأخذ يعبث بها . ثم أسند ظهره على ظهر المقعد . وبدأ يغمغم . ثم انطلق يغنى بهذين البيتين :

ودواهى العيون نعم الدواهى * أيقظتنا للحب وهى سواهى
واستعانت على القوى بهواها * فاستعنـا على الهوى بالله

نخلت أن الحصى المبتل الذى يفرش أرض الحديقة : عبرات منثورة من حلاوة الصوت وحرارته ، وكان صباحا .

ومات عبده بعد ذلك بقليل وجدت لى حاجة إلى حلوان . فبينما أنا فى القطار إذا بمحمد البابلى يدخل على الصالون . ويجلس إلى جانبى . ويتكىء على المقعد . ويخرج سبحته ويغمغم ثم ينطلق يغنى هذين البيتين : واستعبرت . وكان مساء .

وعرف حافظ البابلى قبل أن يذهب إلى السودان وظل يراسله من هناك بالشعر . فهو يعاتبه مرة . ويتشوق إليه مرة أخرى .

وسنتعرض لهذا عند الكلام عن فن حافظ .

فلما نزل حافظ القاهرة من السودان لازمه ، وكان البابلى ميسوراً . ينفق فى لهوه وشرابه أموالا طائلة . وكان يستطيب صحبة حافظ . فأنزله معه داره بحلوان . زمناً . وظل يرافقه ويصاحبه ويعينه .

ولم يمدح حافظ البابلى كما فعل مع بعض أصدقائه من الأباظية وبيت محمود سليمان وآخرين رغم ما بينهما من الصداقة والألفة . فالحشمة مرفوعة بينهما . وإن كان البابلى له اليد العليا . ولكن ظرفه ونبل خلقه يأبيان عليه أن يتخذ من صديقه مادحاً . وقد وثق حافظ من هذا فلم يتقرب إليه بمدح .

بل مشى إليه معاتباً ومتشوقاً كما يفعل الأكفاء . وقد بلغت الصداقة بين الرجلين إلى قول حافظ لصاحبه : —

لا كتاب منك يطفىء ما * فى فؤاد بات يشتعل
لا ولا رد يعلمنى * أو على التسليم يشتمل
يا صديقى لا مؤاخذة * أنت يا ابن البابلى . . .

والكلمة المحذوفة معروفة . وهى لا تقال إلا عند الإبتذال فى الصحبة ورفع الحجب وإسقاط الحشمة .

ويموت البابلى رحمه الله . فلا يسير فى جنازته إلا ثلاثة رجال . كان فيهم حافظ .

ولم يرث حافظ صديقه القديم . وقد خانه هناك وفاؤه ولا يزال رثاء الأموات تقرباً للعظماء من الأحياء ، ولم يكن للبابلى يوم مات مايوجب ذلك .

وصديق آخر من الظرفاء . كان يفيد حافظا ويستفيد من حافظ . كان يفيد حافظ ظرفاً ونوادراً ، ويستفيد منه مالا ، ونوادراً أيضاً . كان ينحدر من أبوين سودانيين .

كان أسود محترقاً . غليظ الشفتين قصيراً . يميل وجهه إلى القبح

الظريف . كما كان يقول الجاحظ عن القرد . كان نادرة فى خفة الظل . وصفاء الروح . سريع النادرة ، بارع النكتة ، لا تقف سرعته وبراعته عند حد .

كان من الأدباء المشردين البوهيميين الوجوديين . الذين يترددون الليالى العديدة يتسكعون لا يعرفون مأوى . وليس لهم من رزق إلا ما يفيدونه من أصدقائهم من طعام وشراب .

فهو من هذه الطوائف التى تعرفها مونمارتر فى باريس من الشعراء والرسامين والمغنين . والتى كانت تعرفها فى القديم حانات الكرخ فى بغداد وبيوت الخمارين فى قطربل .

قال أحد المغنين فى العصر العباسى : « مررت على أبى ريحانة — وهو صعلوك من الظرفاء — وكان يجلس فى الشمس وكان الفصل شتاء . فلما أبصرنى أخذ بلجام دابتى وقال : بالقبر ومن فيه — يعني قبر النبى صلى الله عليه وسلم — « غننى » .

ولقد قالت لا تراب لها * زهر يلعبن فى حجرتها

خذن عني الظل لا يتبعني * ومضت تسعى إلى قبلها

فلم يتركني حتى غنيته البيتين . فلما سمع الغناء دفعه الطرب لتمزيق ثوبه الوحيد . وبقى عارياً جالساً فى الشمس . فقلت : « ماذا فعلت بنفسك

يامشئوم ...!» فقال: «اذهب ياهذا و الله لقد تركنى غناؤك فى مثل حرارة حمام المهدى أمير المؤمنين» . قال المغنى : « فأشفقت عليه . وخلعت عليه من أثوابى» .

هكذا كان إمام العبد . صعلوكا مشرداً ، شاعراً ، ظريفاً ، لا يفيق من الخمر ، ولا يفيق من السخرية بالناس ، ولا من لذعهم بنكاته ونوادره كان حافظ يخاف لسانه ويحبه ويبره . وقد حدثنى قائلا :

« دعانى الشريف فى إبيار — بلدة قريبة من طنطا — إلى قضاء عيد شم النسيم عنده فى بلده . فأردت أن أصحب معى إماما . فقلت ياإمام: « سنروح يوم الأحد إلى إبيار عند الشريف — نسيت اسمه — » وكنت قلت له ذلك يوم الجمعة . فقال: «لاسيدى أنا أسبقك . سأسافر يوم السبت . ولا أطلب منك إلا أجر القطار فقط» . فحاولت أن أقنعه حتى نسافر سويا. فأبى واستمسك بعناده . وقال أجرة القطر بس . وقد قدر أن يغتنم يوماً زائداً عند الرجل حيث الشراب المعتق والطعام الدسم . فلما ألح على ، أعطيته ثمن التذكرة ولم أزده شيئاً من المال .

فلما كان يوم الأحد . سافرت ظهراً . حتى إذا كانت محطة طنطا . نزلت لآخذ منها عربة إلى إبيار . فلما وطئت قدمى إفريز المحطة . ألفيته واقفاً فى استقبالى . فقدرت إنه إنما فعل ذلك أدباً منه وظرفاً . وكنت أحمل حقيبة . فدعوت بحمال وأعطيتها له . حتى إذا كنا خارج المحطة . دعوت بعربة .

كل هذا وهو يسايرنى ساكتاً عابساً . فلما وضع الحمال الحقيبة فى العربة . وضعت يدى فى جيبى لأعطيه كراءه . فلم أجد فى جيبى قروشاً صغيرة . فقلت ( إديه يا إمام قرشين لما أفك ) . فما كادت كلمتى هذه تطرق أذنه حتى ثار ولطم خديه . وألقى بطربوشه إلى الأرض وقال : « قرشين . يا ابن . . قرشين ياحمار . . قرشين ياظالم . . وأنا من ساعة ماسبتك وأنا واقف على حيلى . ماأكلتش ما نمتش ماأعدتش » . قلت: «إيه المسألة؟» قال : «يا سيدى لما رحت إلى إيبار. كان سعادة البك الشريف جاله تلغراف من اسكندرية فسافر . فلما ذهبت إلى منزله وسألت عنه قال الخدم : «سافر إلى الاسكندرية».فقلت: « طيب أستناه أنا صاحبه». فقال الخدم: «صاحبه إيه ياوسخ . يالله امشى من هنا » ، وطردونى . فجئت طنطا ماشياً . ومكثت أتسكع فى الشوارع حتى حضورك يا أخى . فضحكت حتى كدت أقع . فقال : « عاجبك الفصل ده الحقى بسيجارة » .

وأعطاه حافظ يوماً جنيها . فرأى أن يبر أمه على طريقته فاشترى به « مارون جلاسيه » — وهو صنف غال الثمن ، فلما حمله إلى أمه — وكانا يسكنان بجوار النفق المفضى إلى المنيرة من شارع الخليج المصرى — نظرت المرأة الفقيرة إلى هذه الحلوى المفضضة . وقالت : « إيه ده يا إمام» قال: « دى أبو فروة مسكرة » فضربت على صدرها وقالت : « يابنى كنت كمل على تمنها وهات لنا بطيخه » .

وحدث يوماً أنه كان يجالس غلاما. فكلما مر عليه بائع اشتهى الغلام أن يشترى له منه شيئاً . فلما أكثر من الطلب قال له : «قوم فى عرضك أحسن استاين يفوت علينا » و استاين كان محل مشهور كشيكوريل ، فى العتبة الخضراء يبيع بضائع غالية الثمن .

واقترض من حافظ يوماً ريالا — والقرض هنا حيلة معروفة عند حافظ .

قال حافظ : «فجاءنى وهو جاد وكنت فى المقهى فقال: ياحافظ انت ليك على أربعين قرش . فقلت : لا ياسيدى أنا ليه ريال بس . قال : لأ أربعين . قلت : لأ ريال بس . فلما طالت المناقشة قال : طيب هات ريال يبقى لك أربعين قرش . فتعجبت وأعطيته الريال » .

وكان ظرفاء شارع خيرت ومجانه أمثال : حسين الترزى وسليمان جبريل وسليمان طبيخة يمرون على داره فى الفجر وهم راجعون من سهراتهم الحمراء ، فيصيحون به : يا إمام ، يا إمام ، فكان يقول لهم: يا ناس حرام عليكم مش عارف أنام . فكانوا يقولون له : استحمى وانت تنام ، ادفع اللى عليك وانت تنام ، اتفلى وانت تنام .

وأراد مرة فؤاد الصاعقة صاحب صحيفة الصاعقة الأسبوعية ، أن يكيد له . فاتفق مع الأدباء ابراهيم الدباغ وخليل نظير ورمزى نظيم — على ما أظن — أن يعدوا مراثى شعرية وزجلية فى رثاء إمام العبد .

ففعلوا والرجل حى . ثم نشرها فى صحيفته مجللة بالسواد ونعى إماماً للناس لأنه يلقى من نكاته ونوادره أذى وبلاء . وبكى إمام وتألم ولم يكن يظن أن المزاح والدعابة يبلغان هذا المبلغ من السوء . فقاطع هؤلاء وغضب منهم .

ويشاء القدر أن يقتص له ، فقد فعل بعض المجان والحاقدين على فؤاد صاحب الصاعقة هذه الفعلة نفسها . فقد تقدموا إلى الاهرام بنعى مكتوب لصاحب الصاعقة ، فغضب فؤاد وكأنه قد تذكر ما فعله بامام العبد الذى قد مات من عهد طويل .

وكان إمام شاعراً متوسط الشعر . ولكنه كان زجالا من الطراز الأول وكان موته سنة ١٩١١ رحمه الله .

وكان لحافظ صديق آخر يشبه إماما فى الاتصال به ، ويشبهه فى ظرفه ، ويشبهه فى الانتفاع من حافظ . كان يعمل فى وزارة الأوقاف موظفاً صغيراً .

وكان حافظ لايصبر على فراق أحمد جاد الضخم العريض الوجه الطويل الطربوش . وله معه نوادر وأعاجيب .

حدثنى حافظ قال :

«أراد أحمد جاد أن يتزوج ولم يكن قد باشر النساء قبل ذلك . فاشتكى

لى جهله بهذا الأمر. فذهبت إلى بعض الأصدقاء لعمل خريطة له لتكون دليلا له عند الزواج » .

وحدث بعد أن تزوج ، أنه أخذ زوجه إلى زيارة حافظ فى حلوان فلما دخلا الدار . لحقت زوجه بزوج خال حافظ فى الطابق العلوى ومكث هو معه فى الطابق الأسفل . قال حافظ : « فلبثنا نتحدث طويلا ، وإذا بتصفيق من الطابق العلوى . فظننت أن أحداً يدعونى . فلما هممت بالقيام إذا بزوج أحمد جاد تصيح وتقول : ياسى أحمد يالله بينا ، دا القطر فاضل عليه ربع ساعة ، فاذا به يثور ويقول : وانت ايش عرفك . هو أنا متجوز جدول يا بنت ا ... » .

وحدث أن صحبه يوماً إلى القرافة لحلول ذكرى الاستاذ سليم البشرى شيخ الإسلام السنوية ، وكان قد أقام هذه الذكرى الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى صديق حافظ .

فلما جاء المساء أمر الشيخ عبد العزيز بالعشاء . وكان ثريداً ولحماً مسلوقاً .

فلما وضع الثريد أمامهم . وضع أحمد جاد يده فيه فوجده بارداً ، فنظر إلى الشيخ عبد العزيز وقال : « قوم حط الطبق على الضريح علشان يسخن » .

وكنت أركب معهما يوماً قاصدين الهرم للغداء مع شوقى ، فلما مررنا

على القصر الذى يشغله مجلس الدولة الآن، نظر حافظ إلى أحمد جاد وقال: « ياواد ياحمد أنا عاورز بتاعه زى دى » ، وأشار إلى القصر . فصاح فيه أحمد جاد : بتاعه زى دى . ليه هى نحلة والا بليه . ياشيخ اتلهى .

وكان حافظ كلما ذهب إليه فى داره ليصحبه ، نادت الزوجة من خلف الباب قائلة : « ياسى حافظ زى ماتخده تجيبه . » فلما أكثرت من هذا الرجاء زجرها زوجها قائلا: «هو أنا يابنت الـ... حلة والا مقطف» .

وكان يحب القائلة ونوم الظهر . ولكنه لايكاد يغمض عينه حتى يصيح ثلاثة من المكفوفين المتسولين قائلين حمداً لرب مقتدر ـ الأنشودة المعروفة ـ فكان يتبرم بهم ويصيح فيهم : « يا أستاذ مش وقته الناس نايمه » ، ولكنهم كانوا لايسمعون له ويلحون فى أناشيدهم و يضجون . فرأى يوما أن يجمع بعض قطع نقود ، ويجعلها كثيرة ، ثم نزل إلى الثلاثة وجعل يحرك النقود فى جيبه ليجعل لها صوتاً مسموعاً ثم صاح : « خد يا أستاذ ريال وفرق على أصحابك» . ولما كانوا مكفوفين ارتاب كل واحد فى رفيقه واتهمه بالاستيلاء على الريال وهو لم يعط لأحدهم شيئا ، ووقعت الكارثة ومزق بعضهم بعضاً . وافترقوا فاستراح من أذاهم .

وكنت معه يوما فى زيارة صديقى على لطفى رحمه الله . وكان يعمل ضابطا فى قسم الموسكى ، فلما جلسنا ، أقبل رجل تنم سيماؤه على الاجرام وهو يصيح : « الحقنى يا بيه ، تعالى معايا ، فيه دم فى البيت » .

فلما هم على لطفى بالقيام ، أمسك به أحمد جاد وقال : « إن كان فيه ميت يجيبه لك هنا ، وإن كان فيه حريقة يجيبهالك هنا » . رحم الله أحمد جاد .

وهذا أحد ندمانى جذيمه ، الذين قال فيهم الشاعر :

وكنا كندمانى جذيمه حقبة * من الدهر حتى قيل لن نتفرقا

والاستشهاد هنا حقيقة فقد كان حافظ وعبد العزيز البشرى صديقين لايفترقان . كانا دائما متلازمين فى الطريق — وفى الدار — وفى المقاهى حتى مات الأول قبل الثانى .

كان الشيخ عبد العزيز ابن الشيخ سليم البشرى الذى تسلم مشيخة الأزهر ومات وهو عليها سنة ١٣٣٥ هـ . وكان رجلا نحيلا يركب عربة قديمة يجرها جواد واحد مهزول.وقد تنادر إمام العبد على الشيخ عبدالعزيز البشرى فقال له :«ياشيخ عبد العزيز ، أنا شفت أبوك راكب عربية وفى ايده شاكوش ٠فكل ما يشوف مسمار ينط من الخشب يروح ضاربه» .

تخرج الشيخ عبد العزيز فى الأزهر وعمل قاضياً شرعياً . ولكنه كان كأنه قاض فى المحكمة المختلطة . فى مرحه ولهوه وحبه للترف . كان الرجل معمما ، وعمامته ضخمة . ولكن أعمال صاحبها تشبه أعمال صاحب

قبعة . كان يعمل بما جاء فى بيت سلم الخاسر الشـــاعر الذى يقول :

من راقب الناس مات غماً * وفاز باللـذة الجسـور

كان الشيخ لايبالى بالناس ، ولا يعرف نفاق المتظاهرين بالتزمت . فكنت تراه فى مقهى الأنجلو خلف البنك الأهلى مع المرحومين عبدالحميد البنان وأحمد كامل وسليم زكى وخليل غزالات يلهو ويطرب ويتنادر .

ومن نوادره أنه ركب الترام يوماً فى الدرجة الأولى ، فجاءه العامل عابساً وطلب منه ثمن التذكرة بغلظة وعنف . فاغتاظ الشيخ ولـكنه كتم غيظه . حتى إذا كانت المحطة التالية ركبت فتاة جميلة وجلست إلى جانبه ، فجاء العامل .

فلما رأى الفتاة أصلح من هندامه وتقدم فى انحناءة قائلا : «تذكره ياستهانم» ، فلما أخذ ثمن التذكرة ، وهم بالانتقال إلى مكان آخر من الترام أمسك به الشيخ وقال : « قل لى ، كانت الست وقعت فيك ، حتسيب الترمواى لمين ؟ »

وحدثنا الشيخ يوماً وكنا عند شوقى للغداء قال : « إن فلانا يحب الجلوس فى التواليت الساعات الطويلة . وكان المحل فى منزله مهيأ على الطريقة البلدية وكان من عاداته أن يأخذ معه جميع الصحف العربية ليقرأها هناك .

« ودخل يوما أمامى ، وأخذ معه المقطم والأهرام والسياسة ومجلة اللطائف المصورة ، ولـكنه لم يلبث إلا قليلا حتى جاءنا مذعوراً وهو يمسك بسرواله ويصيح : البصير . البصير . أنا نسيت البصير» ـ والبصير صحيفة تنشر أخبار البورصة فى الاسكندرية وهى مغمورة وليست مقروءة .

وكان رحمه الله مرهف الأعصاب لا ينام إلا غراراً . فبينا هو فى الساعة الثالثة صباحاً . وقد أخذ النوم المستعصى يطرق جفنيه. صاح شحاذ تحت نافذته بصوت نافذ : «رغيف وصحن طبيخ » .

فما كاد الصوت يقرع أذن الشيخ حتى هب مذعوراً ونزل حافياً إلى الشارع وقال للشحاذ : «يا بارد طيب اعرف إنك تطلب رغيف عيش . مين حيسخن لك طبيخ الوقت ! ! »

وجاءنا مرة دار الـكتب ليصطحب حافظا للغداء عند عبد الحميد البنان . فبينما هما على سلم الدار . أدركه الشاعر الهراوى مهرولا . وصاح: «ياشيخ عبد العزيز» . وكان حافظ مشغول بالحديث معنا أنا وأحمد نسيم.

فلما سمع الشيخ الصوت . وعرف أن صاحبه محمد الهراوى . ألقى بنفسه على حافظ وهو يستغيث ويقول : «الحقني يا حافظ ده عاوز يسمعني شعر !! » .

والحديث ذكرى . فإن الهراوى رحمه الله كان له ابن ضخم الجثـة ضخامة مفرطة .

فبينما كنا فى المقهى مع حافظ نتحدث إذا بالهراوى يحضر . ويسألنا عن إبنه . وهل رآه أحد منا . فابتدره حافظ قائلا : « أنا شفته » . فقال الهراوى: «فين؟» فقال حافظ : «أهو هناك واقفه جنبه الـكتب خانه ».

وحضرت مرة جدالا بين حافظ وعبد العزيز البشرى : فى أيهما أجمل من الآخر. فلما احتدم الجدال . قال حافظ للبشرى : «دا أنت تبص فى المرايه وترمى عضمه » . فقال له البشرى : « دا وش ينغسل . دا وش ينكنس » . فقال حافظ : « فى ذمتك أمك باستك كام بوسه » . فقـال البشرى: «دى دايتك كانت من بتوع يا رفاعى مدد ».

وصادف حافظ والبشرى مرة فى شهر يناير فى الساعة الواحدة صباحاً وكانت ليلة مقرورة ، رجلا يسير وقد وضع معطفه على ذراعه فجرى وراءه الشيخ عبد العزيز وأخذ بأثوابه وقال :«إن ما كنتش حا تلبس ده دلوقت حا تلبسه امتى يا بارد » .

ودعا حافظ يوماً فى داره الأستاذ على راتب وغيره من الأصدقاء على الإفطار فى رمضان وكان يسكن فى حلوان . فلما فاتت المغرب ولم يحضر المدعوون . دعا بالطعـام . وكان معه الشيخ البشرى . فجلسا يأ كلان . وماهى إلا دقائق حتى جاء الضيوف . فلما رآهم حافظ قال:«لا مؤاخذه لما شفتكم اتأخرتم جبت فقى البيت يفطر معايا» . وأشار إلى الشيخ البشرى -

وخليل مطران كان صديقاً لحافظ . وكان مطران من قرية بعلبك . أقام بمصر أكثر من إقامته بالشام . وهو رجل نبيل كريم النفس . جاءنى يوماً صديق قديم يشتكى إلى حاجته وحاجة أولاده الثلاثة . وكان إثنان منهم فى المدارس العليا . والثالث فى مدرسة ثانوية . وقد عجز عن دفع مصروفاتهم جميعاً .

وكان مكروباً بائساً ملهوفا . فتألمت لصديق . ونظرت فى نجدته وقصدت رجالا كثيرين . فكلهم وعد ثم أخلف . وفيهم من ردنى رداً قبيحاً . فألهمني الله أن أقصد خليل مطران لأنى كنت أعلم بأنه على صلة بأم عباس الثانى . وكانت سيدة تحب الإحسان وتهفو إليه . فشكوت إليه حالة صاحبي وحاجة أولاده إلى نفقة تعليمهم . فهش فى وجهى ووعدنى خيراً . ولم يلبث أن ذهب إلى دائرة أم عباس الثانى وجاء بخمسين جنيهاً مع وعد منها بتقديم مثل هذا القدر كل عام .

ومطران شاعر رقيق ، موهوب ، وأمامى الآن ديوانه . وقد أخذت هذه الإبيات الرقيقة للتدليل على رقته وموهبته . قالها فى شاب انتحر ليأسه فى غرامه .

قربته فما ارتوى * وجفته فما ارعوى

غادة من سعى إلى * غاية عندها غوى

جن فيهــا وقبـله * جن قيس من الهوى
وقضى خالد النــوى * يتــداوى من النوى
فبكينــاه من أسى * والبــكا للأسى دوا
ما عرفنــاه قبل أن * مات صبراً من الجوى
إنما نحن فى الهوى * إخــوة حكمنا سوا
كل عان عنــائنا * فهو من أهلنا هــوا

ومطران له المنة الكبرى على حافظ إبراهيم فى تقديمه إلى إخواننا السوريين الذين أشادوا به وقدموه .

والمعروف عندى : أن أحمد حشمت باشا ناظر المعارف لما أراد أن ينفع حافظا أمره هو وخليل مطران بتعريب كتاب الموجز فى الإقتصاد . فقام مطران بتعريب الكتاب وحده وشاركه حافظ فى الجائزة المرصودة للتعريب . ولم يزد على أنه قدمه للقراء .

ولم ينس الإثنان المودة التى بينهما قط . فقد أقيم حفل لتكريم مطران سنة ١٩١٣ ٠ فبادر حافظ وأنشد فيه قصيدة من عيون شعره . جاء فيها بعد أن ذكر الصلة الوثيقة التى بين مصر والشام وتأكد الرابطة بينهما .

قد سمعنا خليكم فسمعنا * شاعراً أقعد النهى وأقاما
وطمعنا فى شأوه وقعدنا * وكسرنا من عجزنا الأقلاما
نظم الشام والعراق ومصراً * سلك آياته فكان الإماما
فمشى النثر خاضعاً ومشى الشع * ر وألقى إلى الخليل الزماما

وبلغ مطران، أن بطرس غالى باشا يتهدده. فأرسل له قصيدة تنضح بقلة مبالاته بالتهديد أولها: ــ

أنا لا أخاف ولا أرجى * فرسى مهيئة وسرجى

فداعبه حافظ قائلا:

أنا لا أخاف ولا أرجى * فرسى مهيئة وخرجى

يرمى بذلك أنه شامى. وفى مصر كثير من إخواننا الشوام من باعة الصابون الذى يحملونه فى خرج.

وقد ظل الود متأكداً بينهما حتى مات حافظ قبل مطران بسنين عديدة فرثاه مطران وبكاه. رحمهما الله.

وصديق آخر من أصدقاء حافظ كان أزهرياً، ثم مدرساً. ثم قاضياً، ثم مدرساً ثانية للأدب العربى ثم مفتشاً أول للغة العربية. وتوفى حفنى ناصف سنة ١٩١٩.

كان حلو النادرة ، يشارك حافظا فى الظرف ونظم الشعر .

وفى حفل أقيم لحفنى ناصف ، وقف حافظ مداعباً وجاداً .

قال مداعباً :

لولا الحياء ولولا * دينى وعقلى وسنى
لقمت فى يوم حفنى * أدعو لسكرة ينى
ولا أقول لحفنى * ما قيل قدماً لمعن

يعنى بهذا البيت قول الشاعر لمعن بن زائدة .

أتذكر إذ لحافك جلد شاة * وإذ نعلاك من جلد البعير

---

لا تنس عيشاً تولى * ما بين شرح ومتن
ولى شبابك فيه * ما بين مد وغن
وذقت من ( جاء زيد ) * ومن شروح الشمنى
ومن حواشى الحواشى * على متون بن جنى
ما لم تذقك الليالى * فابن ظهر المجن
أيام سلطان يلهو * بمشه ويغنى
أيام يدعوك حفنى * من الحياة أجرنى
هات المسدس إنى * سئمت مشى وجبنى
من لى بدرهم لحم * عليه حبة سمن

ثم قال جاداً :

واسمع مديح محب * يطرى بحق ويثنى

لقد جمعت خلالا * تضمنت كل حسن
مفتشاً وفقيهاً * وقاضياً وابن فن
إن المعارف فازت * بمنية المتمنى
« بحشمت » و « على * أبى الفتوح » و« حفنى »

وبين حفنى وحافظ قصة وضعها القدر بقلم فنان .

فقد حدث أن حافظاً مرض فبعث إلى حفنى أنه هالك . فأرسل إليه بأبيات من الشعر تتضمن نبوءة عجيبة . وهى أنه لما مات الأستاذ الإمام محمد عبده وقف على قبره ستة من الخطباء لتأبينه : — أولهم الشيخ أحمد أبو خطوة ، ثم حسن عاصم باشا ، ثم حسن عبد الرازق باشا ، ثم قاسم أمين بك ، ثم حفنى ناصف ، ثم حافظ إبراهيم .

وقد تتابعوا للمنايا على ترتيبهم فى الوقوف على القبر ، وفى شعر حفنى لحافظ ما يسجل هذا الحادث العجيب :

أتذكر إذ كنا على القبر ستة * نعدد آثار الإمام ونندب
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا * ممات على وقف الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفاه عاصم * وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم * وبعد قليل نجم محياى يغرب
فلا تخش هلكا ما حييت فإن أمت * فما أنت إلا خائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف * ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب

وخض لجج الهيجاء أعزل آمنا * فإن المنايا عنك تنأى وتهرب

وقد وقف حافظ فى رثاء حفنى يذكر هذه القصة . التى خطها القدر الفنان . وهو جازع ويقول : —

قد وقفنا ستة نبكى على * عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوا * هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعاً فقضوا * باتفاق فى مناياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولى عهدهم * حاضر اللوعة موصول النحيب

ولكن حافظا لم يسرع فى اللحاق بإخوانه . فقد شاء القدر الفنان أن يهمل ختام القصة ثلاثة عشر عاماً . حتى أتمها فى يوليو سنة ١٩٣٢ .

وصديق آخر من أصدقاء حافظ . يروعك إذا سمعت حديثه . وتملأ عينيك شخصيته القوية ورجولته الماثلة فيه .

عرفته سنة ١٩٢٠ فى بيت للشاى ، وكانت معرفة عاصفة . فقد كنت لا أزال شاباً مغروراً حديث السن دفعتنى الغرارة إلى نقاش حاد فى السياسة نلت فيه الرجل بالأذى . فألقى على من حنكته وأدبه درساً لا يزال ماثلا أمامى إلى اليوم .

ويشاء أدبه أن أتعلق به . فشرفنى بصداقته حتى موته سنة ١٩٣٢ .

وكان كاتباً من الطراز الرفيع وشاعراً حسن الشعر . قد أسس صحيفة سماها النواب فكانت منبراً للأسلوب العالى ، والنقد الفاحص المتغلغل فى أعماق الحقائق .

كان محمد إبراهيم هلال : أول من ابتدع فى اللغة العربية أدب التراجم القصيرة ، وسماها « فى المرآة » وهو أدب عرفه الغرب وأحسنه، وقد حذا الكاتب فيه حذو أدباء الغرب فى ذلك .

فكان إذا ترجم إلى رجل من رجالات مصر . لفه ببيان رائع الأسلوب، وأبرزه بينا مجلواً . كأنه مصور بارع غمس ريشته ونصب أمامه الموديل المقصود وصوره ، و تبعه فى ذلك المرحوم البشرى فأجاد أيضا .

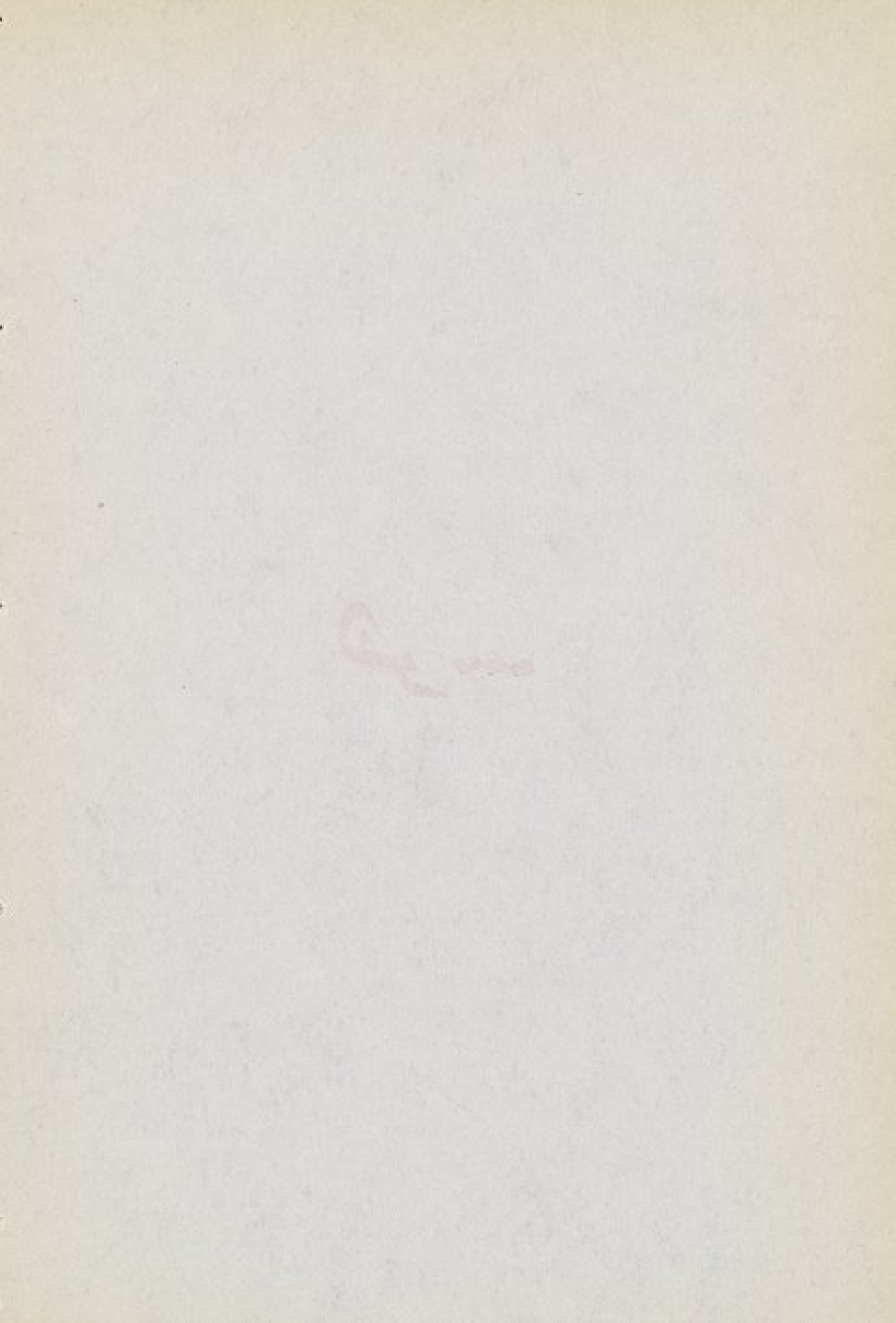
ومحمد إبراهيم هلال : هو الذى طبع ديوان حافظ الأول على نفقته وقدمه بتقدمة بليغة العبارة ، جليلة المعنى .

وكان حافظ يرود دار هلال المأهولة بالأدباء دائماً . وقد أنفق محمد إبراهيم هلال ثمن ستمائة فدان أضاعها كلها فى الإحتفاء بالناس ، والإنفاق عليهم،وعاش بعد ذلك بقلمه حتى مات

ولحافظ قصيدة رائعة فى الرجل استهلها بأبيات رقيقة فى الغزل من أرق ما قال الشاعر .

ولحافظ بعد هؤلاء الأصدقاء : أصدقاء كثير . فلو تتبعناهم بالتنويه ، لضاق الكتاب بهم . فمنهم عبد الحميد البنان السرى الذى كان آخر من شهد حافظا وهو فى سياق الموت، وسنتعرض لهذا عند ذكر موت الشاعر. ومنهم أحمد حشمت باشا ناظر المعارف ، الذى ألحقه بدار الكتب وكفاه التكسب بالشعر ، وإن لم يكفه معونة بعض الأصدقاء .





ضخم، طوال، عظيم الأنف، متهدل جلد العنق والوجه، بعد أن تخلى عنه شحم كان قد نسجه الشباب وأضاعته الكهولة، خفيف الشارب، كأنه خيط ملتصق بشفته العليا. فهو بشوارب الصينيين ألصق وأعرف لايزال يرفع منه شعرات ناعمة مسترخية تزحم شفته العليا إذا باشر شرب الماء، أو قبض بفمه على مبسم نرجيلته.

من عادته اللازمة: أن ينتف مقدم ذقنه بأظافره. فلو أعفى لحيته من الموسى لغدت وكأنها لحية فرنسوا جوزيف ملك النمسويين الشيخ الذى مات فى إبان الحرب الأولى، وذلك لدؤوبه على نتف مكان العثنون من اللحية.

يمشى كأنه مقيد فى انحناءة يسيرة. تخاله أسيراً فى روما القديمة أثقلت رجليه القيود، ويبهظه حارس بثقل من الحديد فوق كاهله.

ضخم الصوت إذا تحدث فكأنه يتجشأ.

اتسعت عليه ثيابه، فلاح فيها كتلك الشخوص التى تنصب على الكروم أو على البيادر لإفزاع الطير.

طويل الأصابع، طويل الأظافر، لايستبدل قميصه بآخر إلا بعد الزمن الطويل، فهو فى اتساخ أكمامه يشبه عاملا فى مطبعة، يوالى صف الحروف وطبع الأوراق غير عابىء بالمداد ولا بالزيت.

قميصه منشى وياقته منشاة وأكام قميصه كذلك ، لم ير قط إلا ببنيقة مثنية الأطراف أحاطتها ربطة العنق ظاهرة كلها للعيون .

وربما انثنت عقدة كرفتته يمينا أو شمالا فيتركها غير عابىء ، فهو بعيد عن الأناقة بعد وجهه عن الوسامة ، يلبس جوربه أياما طويلة . فاذا كرهه استبدل آخر بهولم يغسله، ولم يلبس إلا الثياب الغالية الثمن . ولكن اهماله وتضييعه تتركها وكأنها أسمال .

يتوكأ على عصا من الخيزران غليظة ، انثنى رأسها انثناءة واسعة ، وقد تطوقت بطوق من العاج المنقوش بأسلاك معدنية زائفة ، لم يترك صدار بذلته قط فهو ملازم للجاكتة جاثم تحتها صيفاً وشتاء .

يلبس معطفاً سميكا أزرق ببنيقة من القطيفة الزرقا، يعلوها وسخ أحال لونها إلى لون النحاس البعيد العهد بالصقل .

جاء يوما دار الكتب ، فاذا بالمعطف غير المعطف، فالأول فضفاض واسع الأردان كأنه جبة شيخ أزهرى من القرن التاسع عشر . والثانى : تأنق فيه الذوق الفرنسى تخنصره وضيقه وطوق مؤخر وسطه بحزام صغير لاصق . فهو بمعاطف الشباب المتأنق أشبه منه بمعاطف الكهول الذين منهم حافظ .

وكان مدسوساً فيه دساً ومحشوراً فيه حشراً ، جعله كقميص المجنون الثائر ، كتف صاحبه حتى لايستطيع حراكا .

وكنت أحب مكايدته والتنادر عليه، فقلت: « إيه يابيه سلامة عقلك »

فقال: « يامغفل! يافقير! شوف القماش، امسك ده المتر بعشرة جنيهات »

قلت: « ولو. هذا درع من دروع القرون الوسطى التى كانت تلبسها الفرسان المحاربون، فأنت لاتستطيع أن تتحرك إلا بصعوبة ». وشاركنى صديق أحمد رامى فى التنادر والفكاهة. فلما ضيقنا عليه الخناق اعترف بكل شيء. فقد كان صدره لايحتجز سراً أبداً قال:

« لقد كنت بالأمس فى دار على راتب الوجيه الأنيق، فرأيت على المشجب هذا المعطف. ولما كان معطفى قديماً فقد تركته وارتديت هذا! « ومسيره يوسع »، وضحك بصوت عال. وكان على راتب يحب حافظا، فهو من أولاد الذوات المتأدبين الذين يتعشقون الأدب العربى على طريقة المتعة والاستطراف. وقد ساهم فى طبع كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، الذى لاتزال بعض أجزائه لم تطبع، بألف جنيه. قدمها لدار الكتب التى تولت طبع هذا الكتاب.

ولما سافر حافظ إلى باريس سنة ١٩٢٣، وهى أول رحلة له وآخرها إلى أوربا، لقى هناك على راتب. وكان على يألف باريس ويقضى فيها الأشهر الطوال.

فلما نزل حافظ باريس تلقفه على راتب واصطحبه إلى الملاهى الليلية، وحدثني حافظ فقال:

« صحبني على راتب إلى علبة من علب الليل — وهى أمكنة ضيقة أنيقة نصبت للهو — غاصة بالنساء الجميلات وباللهو الصاخب، فى حى مومبرناس أشهر أحياء باريس خلاعة ومجوناً .

فبينا نحن جلوس إذا بمخنث يرتزق من شذوذه الجنسى يدخل العلبة، فغمز له على راتب بعينه مشيراً إلى، ولم أفطن أنا إلى هذه اللفتة ، ولكنى أبصرت شاباً له تكسر النساء وزينتهن فى الشفاه والوجوه ، تمايل حتى جلس إلى جنبى ، ثم أخذ يساومنى على أمره الشائن . فتنبهت إلى مكيدة على راتب ، وقلت للشاب : « أنا ياسيدى جئت من مصر لأرتزق مما ترتزق أنت منه فهل لك أن تساعدنى » .

فنظر فى وجهى طويلا وعبس وقال : أنصحك أيها السيد أن تسرع إلى مرسيليا وتركب أول باخرة مسافرة إلى بلدك وإلا مت جوعاً هنا ».

وكان يضيق بالصيف ويكره حر القاهرة ، وقد ترك جو السودان فى نفسه عقدة نفسية ، فهو يلبس الأبيض الخفيف النسج ليتقى وهج الشمس، وكان هذا الزى غير معروف عند أمثاله من الكهول فى هذا العصر .

جالسته يوماً فى المقهى وكنا فى شهر مايو، وفى هذا الشهر تهب رياح حارة فى أيام تتلظى قيظا . فبينا هو يتململ ويتضجر من سطو الطقس ، دخل رجل يحمل لوحاً من الثلج لتبريد الشراب والماء المهيئين لرواد المقهى.

فنظر إلى وقال : « انت تعرف إيه اللى أعمناه الآن».قلت : «الله أعلم» . قال : « عاوز أبقى لوح تاج زى ده » .

لم أر رأسه عارياً قط. فهو دائماً مغطى بطربوش طويل أسود، حتى إذا كان فى البيت استبدل طاقية بهحفيفة فى الصيف ثقيلة فى الشتاء .

يلبس منظاراً سميكا من الزجاج، تمسكه ذراعان من الذهب ترتكزان على أذنيه ، فكان إذا نظر إليك دهشاً أو متفحصاً أو متحمساً فى حديث ، رفع عينيه فوق زجاجتى منظاره وصوبهما نحوك فى غير سحر ولا فتنة ، فقد كانت عيناه كابلتين ذهبت ببريقهما السن ، فانطفأتا واستحالتا إلى عينين من زجاج .

حذاؤه ضخم من الصنف الإنجليزى من غير عنق ، مشدود الجورب بحمالة من الأستك فهو يخالف شوقى فى هذا .

لم يلبس فى حياته بيجامة قط . إنما هو جلباب من الكستور فى الشتاء وآخر من التيل أو البفتة صيفاً .

يحب الطعام الدسم حباً جماً ، وقد رزق فى زوج خاله السيدة عائشة طباخة ماهرة ، حتى أنها أدهشت شوقى بصنف من الحلوى ، قوامه البطاطس المغموس فى السكر والبيض والسمن ، وكان لايبالى أن يجمع النقيضين فى طعامه .

دعانى يوماً إلى الغداء عند العقر — وهو صاحب النيفة المعروف

بالسكة الجديدة بالقاهرة — فبينما نحن فى عربة الخيل التى كنا نركبها ، إذا به يهيب بالعربجى أن يقف أمام بائع فسيخ ، من هؤلاء الباعة المنتشرين فى حوانيت فى حى تحت الربع ، وطلب رطل فسيخ . فعجبت وقلت: ( فسيخ و نيفه . إيه هو الخلاط ده ) . فنظر إلى وقال: ( مشعاجبك إنزل كل فى بيتكم ) قلت : ( لأ عاجبنى ) .

فلما بلغنا مطعم العقر ، دعا الخادم وأعطاه الفسيخ قائلا : « جهز ده وحطه فى الزيت و الخل » . فتعجب الخادم وكاد يحتج ، لولا أنه طلب منه رطلين من النيفة ورطلا من السجق. فأكلنا هذا جميعاً ، ولولا الشاى الأخضر الذى شربناه فى ذلك المشرب المجاور ، لقضت علينا التخمة .

وقد عرف عن بيته أنه خصيب الفناء كثير الطعام ، فكثر زواره وضيوفه . يحب تدخين السيجار الفاخر الغالى . وكان لا يدخن غيره إلا النرجيلة التى كان مولعاً بها . ركبنا يوماً مع شوقى فى عربته فى طريقنا إلى الهرم للغداء ، فاستوقف سائق العربة أمام محل للسيجار فى ميدان الأوبرا . ودعا بصاحبه وأعطاه جنيها ، وطلب منه عشراً من السيجار فجاء بها الرجل ، فطلبت منه واحدة، فأطلعلى واحدة من الصنف الرخيص. فأبيت إلا أن آخذ واحدةمن العشر، فأبى إلا أن يعطينى الرخيصة. فتدخل شوقى قائلا : « معلهش يا حافظ بك إديله واحده من دول». وكان يبتسم ابتسامة ماكرة لاحت على عينيه المختلجتين ظلالها ، فأعطانى . فلما جلسنا

للغداء ، ثم بعد ذلك للسمر ، وقد سلخنا فى ذلك أربع ساعات ، أتى فيها على التسع الباقيات معه .

فلما كان المساء وقد اختلى بى شوقى فى مكتبه بعد ذهابه سألنى : « كم يأخذ حافظ بك من راتب ؟ » قلت : « خمسة وأربعين جنيها فى الشهر » . فتعجب وقال : « ياسلام يشرب سيجار بجنيه فى نصف يوم إيه ده » . قلت : « إن حافظا يرزق من حيث لا يحتسب » .

وكنت أعجب منه . كان يدعو بالنرجيلة الضخمة التمباك . التى يستغرق تدخينها الساعة والساعتين . حتى إذا أحرق عمامتها . ركز ليها على الصحن الموضوع تحت عنقها ، وأخرج من جيبه سيجاراً ضخماً وأشعله ، وعاد للتدخين .

حدثنى أنه كان فى شبابه يشرب الخمر ، وأسمعنى أبياتا قال فى معناها : أنه سكر حتى لايدرى أيخرج من الباب أو من الطاق ، وقد نسيت هذه الأبيات ، وله قبل ذلك قصائد فى ديوانه يذكر فيها الخمر وشربها ولهوها .

ولكنى أدركته ، ولم يكن يشرب إلا كاسات قليلة من كونياك نابليون . وهو أفخر أنواع الكونياك الفرنسى ، وكان يزعم أن فى هذا الشراب حيوية وقوة ، وكان لايضن علينا إذا ذهبنا إلى داره بزجاجة من هذا الكونياك الفاخر يضعها أمامنا حتى نأتى عليها .

وكان ساذجاً سذاجة تكاد تلحقه بالبلهاء ، فهو يصدق كل مايقال له .

حدثنى الشاعر نسيم قال :

«أسمعنى حافظ قصيدة له — وكانت تلك عادته يسمع الناس شعره قبل أن ينشره — فانتحلت أكثر أبيات القصيدة ونشرتها فى قصيدة لى فى الصحف ، فلما قرأها أقبل على فى مقهى « اسبلندد بار » صاخباً متوعداً مهدداً ، حتى كاد يهم بصفعى ، فبادرته قائلا : « مهلا ياحافظ بك ، إن ما كنتش آخد منك الشعر أنت ، آخده من مين ، هو فيه أشعر منك فى مصر» .

فتهلل وجهه وأقبل يقبلنى ويقول: «بارك الله فيك ».

كان طيب القلب لايعرف الحقد ، ولا يتعاق بضغينة على أحد مهما لحقه من أذى .

كان فؤاد الصاعقة يسبه فى صحيفته ويلوثه بأكاذيب وقحة ، تمس شخصه وشعره ، ويغالى فى ذلك الأسابيع الطوال حتى يتركه فى ثوران البراكين وهياج البحار .

وكنا نظن أنه إذا ظفر بهسيقتله لا محالة ، ولكنا كنا ندهش عندما يأتى فؤاد إليه معتذراً فى المقهى ، كنا ندهش من عفوه وسماحته ورضاه وبشاشته لهذا المفترى عليه ، والذى فعل به الأفاعيل .

كان كسولا ضجرا ملولا متبرما بالناس ، يكاد لايمد يده للسلام كسلا وضجراً .

كان إذا بعث بجنيه لتحويله إلى نقود صغيرة، يضيق بالساعى الحامل الفكة وهو يعد له النقود ، فيخطفها منه خطفاً لاعناً ساخطاً ، فربما حمل فى جيبه نقوداً زائفة كثيرة ، لقلة عنايته بفرزها وعدها عند تسلمها .

وقد عرف هذا الإهمال فيه أحد السعاة . وكان يحمل له راتبه من الصراف مرة كل شهر ، وكان رجلا غير أمين ، فكان يحتجز من الراتب جنيها لنفسه سرقة من هذا الغافل الملول، حتى مات وله فدانان ، ثمنهما اختلاس من مال شاعر النيل .

وكان إذا جلس مديراً فى غياب المدير الأصيل . أمضى الأوراق من غير أن يقرأها ، فلو شاء خبيث أن يدس بينها استقالته لأمضاها وهو لا يعلم .

وكانت تحمل إليه الأوراق وهو فى المقهى. فلا يزال يستعجل حاملها فى عرضها ، وهو عابس متجهم ، حتى إذا فرغ من توقيعها تنهد تنهدة الراحة . فكأنه أفلت من سجن ، أو من قارعة نزلت به وزلزلته .

وكان الوهم يملأ صدره ويسود ما بين الفضاء وناظره كما يقول الشاعر العربى . فيتوهم أنه مريض،ويتوهم أنه فقير ، وما حل مدير جديد مكان آخر قديم منقول أو محال إلى المعاش ، إلا وتوهم أنه لا شك معزول أو محال إلى المعاش .

فكان يعد الإستقالة فى جيبه ويتهيأ إلى الخروج ويسأل فى الفرق بين المعاش والراتب ويقول : « الرزق على الله » .

وكان علة ذلك تراخيه فى مواعيده ، فربما مضى الأسبوع والأسبوعان والثلاثة وهو لا يأتى إلى عمله . وإذا جاء جال فى أبهاء الدار جولة قصيرة ، يضاحك هذا ويمازح ذاك ، ويتنادر ويحادث وهو واقف أو سائر .

لم أره يلزم مكتباً فى غرفة كسائر الموظفين إلا فى أول عهدى بالخدمة فى دار الكتب ، حيث كان قد شرع فى تعريب كتاب البؤساء لفيكتور هيجو ، ولكنه فى ذلك الحين ، كان يلزم المكتب الوقت القصير الطائر . ثم يعود إلى المقهى ، الذى جاء منه ، والذى كان يستأثر بالوقت الذى يسمح به كسله فى الذهاب إلى عمله .

وكان قدوة للموظفين غير حسنة ، لأنا كنا نترك أعمالنا و نتحلق حوله ونحادثه ويضاحكنا ، ويتنادر علينا وينشدنا من شعره .

كان يأبى العمل ، ويأبى الاحتجاز ، ويأبى القيود ، فلذلك كان يخاف المجهول الخبىء فى صدور رؤسائه الجدد . فهو جزع دائماً ، خائف دائما . ولكنه سالم دائما أيضا .

وكان من أعاجيبه : إذا حلت أجازته السنوية — وكان دائما فى أجازة — هرع إلى المقطم ، فينشر فى أخباره أن شاعر النيل قام بأجازة شهرين للترويح من عناء الأعمال .

وهو لم يعمل قط ، ولم يتغنى قط ، ولم يكن موظفاً له التزامات الموظف قط .

وكان رعديداً يرعبه الخوف من التوافه ، كأنه طفل صغير ملأت رأسه صور الغيلان والعفاريت من قصص العجائز فى ليالى الشتاء المقرورة .

كنت معه فى مكتب شوقى ، فكده بطنه كما يقول الجاحظ ، فطلب الراحة مما هو فيه. فسأل عن التواليت. فقلت : «ليس فى المكتب تواليت» فقال : « أمال انتم بتزيلو ضرورتكم فى سركم » . فقال له شوقى : «إن فى السطح مكاناً، ولكنه لايليق لأنه للخدم». فقال: «زى بعضه قوم يامحفوظ معايا». قلت : « هو أنا دادتك يابيه ما تطلع وحدك». فأخذ يرجونى حتى أن شوقى قال: «قوم معاه مش رئيسك» . قلت : «رئيسى فى الكتبخانة مش فى المراحيض» . فقال : « عشان خاطرى قوم معاه » .

فأخذته من يده وصعدنا السلم الطويل . فإذا بمكان قذر منزوع الباب وإذا بنسوة غسالات ينشرن غسيلهن على الحبال المشدودة .

فدخل المكان ، وأتيت بالباب المنزوع منفصله وسترته ، ووقفت أتلهى بالنظر إلى الغسالات ولكني لم ألبث إلا قليلا حتى تزحزح الباب القاق المسنود وأطبق على رأسه وهو جالس القرفصاء ، فإذا به يصيح ملتاعاً بصوته الأجش كأنه سقط عليه حائط ، ويخرج ونصفه الأسفل عار أمام النسوة فصحت فيه : «أدخل..أدخل» ، ودفعته بيدى إلى المكان وفرت

النسوة مذعورات ، فلما فرغ سبني ولعنى واشتكانى لشوقى . فضحك حتى ألقى بطربوشه على ركبتيه .

وقد ينال الخوف من مروءته ورجولته وأخلاقه .

سمعت مصطفى الخولى وهو صديقه الحميم وجاره أيام كان يسكن فى ضاحية الجيزة، سمعته يقول : «إن حافظا أنكرنى وتغافل عنى ولم يحيى وهو يدخل مطعم « جوانيدس » فى الأسكندرية . والسبب معروف » . قلت: «وما السبب» ؟ قال : « لأنى فصلت عن مجلس النواب والشيوخ . فهو يخاف سعداً ورجال الوفد » .

وكان مصطفى الخولى رجلا سمحاً متواضعاً .

كان يعمل سكرتيراً عاماً للجمعية التشريعية، فلما جاء البرلمان بمجلسيه وأراد الوفد كعادته أن يسند الوظائف إلى أنصاره ، رأى أن يجعل السكرتير العام فى كلا المجلسين وفدياً ، وكان مصطفى الخولى قد انتقل بموظفيه إلى المجلس الجديد أتوماتيكيا كما يقولون .

فنظر سعد إلى الوظيفتين وأعد لهما اثنين من رجاله ، وجعل مصطفى الخولى سكرتيراً عاماً للمؤتمر الذى ينعقد كل عام ساعتين فقط . وملأ الوظيفتين بمن يشاء .

والوظيفة الجديدة للرجل فيها مهانة وفيها تحايل على زحزحته عن

منصبه ، فكيف يجوز لموظف لاينفع الدولة إلا بساعتين فقط فى العام أن يطمئن أو يخشى من النقد والسخرية فاحتج .

فانعقد مجلس النواب وطالب باخراج السكرتير الوهمى فخرج ، وظن حافظ أن الرجل أصبح مغضوبا عليه فتحاشاه خشية من أصحاب السلطان ، وليس هذا من المروءة فى شىء .

وظل كريماً مبذراً للمال طول حياته ، لايعرف للمال قيمة ولا للدنيا حسابا ، كان يعطى من يسأله الشىء الكثير ، ويعطى من لايسأله أيضاً .

كنت أصعد معه يوما سلم دار الكتب ، فإذا برجل يعمل نساخا ، وكان يصعد قبلنا ولكنه صعود المتخاذل المريض ، لأنه كان يتحامل على نفسه ويستند على الجدار .

فلما أدركناه ، نظر إليه حافظ ورأى سوء حاله فاستوضحه أمره . فقال الرجل : « إنى مريض ولكن لابد من العمل لأطعم أولادى » . فأخرج الرجل الأعزب الذى لاأولاد له جنيهين من محفظته وقدمهما لهذا المريض المكدود الساعى على العيال . وقال : « خذ واذهب إلى بيتك ولا تحضر حتى تبرأ . وإن احتجت إلى مقدار آخر فابعث إلى » .

ويسمع عرضاً عن امرأة فقيرة تجاور داره فى الجيزة أنها فى الطلق وأنها معسرة ، فيبعث إليها بعشرة جنيهات ، وكان راتبه يومئذ لايتجاوز الأربعين جنيهاً .

وحدثني يوماً قال:

«كنت لا أملك إلا جنيه واحد فى جيبي . فبينا كنت أركب عربة خيل ، إذ بصوت يناديني : فالتفت فكان جورج طانوس . فوقفت السائق ، ودعوت جورج إلى الركوب معى فقال : أنا فى حاجة إلى جنيه. فلم أتردد وأعطيته الجنيه الذى لا أملك غيره ، فما هو أن غاب عنى حتى رجعت إلى نفسى ، وندمت وقلت : ومن يدفع لى أجر المركبة أما كان يجب أن أقاسمه الجنيه .

وظللت أتردد بالعربة فى الشوارع لعلى ألمح صديقاً أقترض منه هذا الأجر ، فلما طال ترددى إذا برجل لا أعرفه يصيح بى يا حافظ بك .. يا حافظ بك .. فنظرت ناحيته وطلبت من السائق الوقوف ، فلما تبينته لم أعرفه ، ثم قال : تسمح . وركب بجوارى وقال :

ـ أنا وكيل البرنس كمال الدين حسين وأنا فى طلبك منذ أيام لأن سموه أنشأ قبراً له ويريد أن يكتب على رخامه المقام عليه ثلاثة أبيات من الشعر أو أربعة ، وقد دلنى عليك ، فمتى تستطيع أن تقدم إلى الأبيات ، فقلت : الآن ، وصحت بالسائق هيا إلى مقهى متاتيا .

فلما وقفت العربة أمام المقهى ، أخذت أتحسس جيوبى موهماً الرجل إنى سأدفع أجر السائق ، فبادرنى قائلا : لا والله وأعطى السائق أجره ، وجلسنا فى المقهى ونظمت له الأبيات فأخرج لى عشرين جنيها ذهبا وأعطانيها».

وقدعرف أصدقاؤه ومحبوه من الأثرياء إسرافهوكرمه فكانوا يمدونه ويعاونونه فى غير من ولا أذى ، كانوا يبذلون له مالهم ويبذل لهم ظرفه وطلاوة حديثه وخفة نسيمه .

مرض يوماً ولازم فراشه، وخلت يده من المال حتى أصبح لايملك ثمن الدواء ، قال : « فلما كان المرض ذلا » ، فإنى أنفت أن أبعث إلى أحد من أصدقائى فى طلب مال ، وكرهت أن أجمع بين ذلين .

وفى ساعة من هذا الضيق الجاثم على صدرى ، دخل مخدعى سيد باشا خشبة ليعودنى فشكرت له سعيه إلى ، ولم أنه إليه حاجتى الملحة إلى المال .

فلما هم بالقيام، التفت إلى وقال : عدل المخده دى يا حافظ، فدهشت لالتفاته إلى وسادتى التى كانت فى حالة استواء .

ولكن ما كاد يخرج حتى رفعت الوسادة ، فاذا تحتها ثلاثون جنيها فحمدت الله » .

ودفعه اسرافه مرة لاستشارتى فى طلب قرض من شوقى ، قال : « إيه رأيك لو طلبت من شوقى مائة جنيه سلف ، يدينى » فقلت : « اسمع إنك قد جعلت نفسك مساوياً له ، والناس يقولون شوقى وحافظ ، فاذا طلبت منه قرضاً ، ظن أنه حيلة فى طلب المال لأن شوقى يعلم وأنت تعلم أنك لاتستطيع وفاء القروض ، فإن يدك لاتمسك مالا

ولا تعرف حسابا ، فلا تستطيع أن تحتجز من دخلك أموالا تفى بها القروض ، وشوقى سيعطيك خمسين جنيها وهو عالم بضياعها ، ولكنه يستذلك بها ، فاسأل محمد محمود أو سيد باشا خشبه أو من شئت من الأباظية أصدقاءك ويغنيك الله عن شوقى » .

فرفع جفنيه من فوق منظاره كعادته . وقال : « لك حق ياواد » .

وكان معروفاً باللفتة الساخرة والتهكم المستور رغم سذاجته وطيبة قلبه .

لما نزلت دار الكتب حديثاً التحقت بالقسم الأدبى فيها . وكان هذا القسم يتولى يومئذ طبع كتاب أساس البلاغة للزمخشرى وهو كتاب فى اللغة .

وكان يعمل فى هذا القسم : الشيخ سيد المرصفى أستاذ الأدب العربى فى الأزهر . وهو أيضا أول أستاذ للدكتور طه حسين فى الأدب . وكان معنا الأستاذ أحمد نسيم الشاعر . والأستاذ محمود زناتى الأديب المؤلف .

فجاءنا يوم مدير الدار ومعه ملزمة من المطبعة مهيأة للطبع الأخير . ومعه حافظ وكان المدير لا يحسن شيئا إلا الخط . فلو تقدم إليه نابليون وإسماعيل سرى المهندس . والدكتور حسين هيكل وغيرهم من الأفذاذ المتعالم عنهم قبح الخط ، وتقدموا لسعادته طالبين الإلتحاق بأعمال الفراشين والسعاة ، لرفض طلبهم لقبح خطوطهم .

جاء سعادته ، وجمعنا حوله . وأخذ يقرأ علينا الملزمة المشكولة كلها شكلا كاملا . إلا الأسماء المعروفة التى لا يخطىء فى قراءتها طفل فى كتاب .

وكان من سوء حظه ، بل قل من سوء حظى أنا . أن أول الملزمة كان شعراً . وأن قائله هو الفرزدق الشاعر ، وكان الاسم غير مشكول بالطبع .

فقال وهو يقرأ علينا . ويجلس منا مجلس الأستاذ من تلاميذه : قال الفرزدق وكسر سعادته الفاء .

فلم يستطع غروري وقلة خبرتى أن يسكتا عن هذا الخطأ الذى لا يخطىء فيه أحد ، فرددت قائلا : الفرزدق بفتح الفاء .

فانبرى شيخ من الذين قال فى شبيهه أبو حيان التوحيدى : لقد شاخ فى الخدائع وتحنك . وابتدرنى قائلا: «اخرس ده سعادة البك بيمتحنا» .

فلم يسكت حافظ الساخر ، بل التفت إلى الشيخ رحمه الله وقال : « بس يا أستاذ السؤال ده صعب شويه » .

وقد لحقتني لعنة فاء الفرزدق حتى كادت تطيح بى من دار الكتب لولا أن لطف الله وطاح بسعادته خطه الجميل .

لا بد للشاعر من حياة عاطفية يحياها . ولا بد للفنان من حياة عاطفية

تشغله . بل لا بد لكل إنسان من حياة عاطفيـة ، وقد تشغل الحيوان عاطفة أيضاً .

هذا عمر بن أبى ربيعة أحد شعراء الغزل المشهودين . شوهد وهو يماشى فتى من قريش جميلا .

وكان عمر يعشق النساء وتعشقه النساء . وله فى ذلك جولات يعرفها المتأدبون .

وقد استغرق فى الحديث مع الفتى بكل كيانه . حتى أن بعض أصحابه لامه على ذلك. فقال الشاعر: « إنما أنا موكل بالجمال أعشقه حيثما كان » .

وقد يستهجن هذا القول جماعة من الناس ويطلقون عليه شذوذاً .

ولا شك إنى لا أعذر أبا نواس إذا كان ما يقول عنه الرواة حقا . ولا أعذر أسكار وبلد . فإن الإثم حتى مع المرأة قبيح مرزول ، وهو أشد قبحاً مع الشذوذ .

ولكنى لاأقف فى سبيل تعرف الجمال والأنس به فى طهارة لاتعرف إلا الجمال المحض الخالص من الغايات .

لقد سمعت شوقى يقول : « لم يخلق الله نبياً قبيح الوجه » .

وإن جمال الزهرة وبهاء القمر المنسكب على الماء أو على الربوة

الناعسة ، لما يستهوى اللب ، ويعقل النظر مشدوداً إلى ما فى ذلك من حسن .

وهذه أشياء صامتة لا تفصح إلا بالمعانى فقط .

أما جمال الإنسان فهو جمال متحرك عاقل يتضمن حلاوة فى اللفظ وحلاوة فى الإشارة وحلاوة فى الإيحاء .

وقبل أن أخوض فى عاطفة حافظ إبراهيم . التى لا أشك فى طهارتها وخلوها من الإثم ، وليس كلامى هذا ستاراً أستر به أستاذى وصديقى الصامت فى قبره . لا . فأنا أخذت نفسى بقول الحق فى حياتى شوقى وحافظ .

فلم أعلم عن حافظ أنه ارتكب شذوذاً فى حياته ولا غير شذوذ . فالرجل كما قدمت كان لا يكتم سراً ولا يبالى الناس ولا يداريهم . وكان له خصوم يعجبهم أن يشهروا به ، فلم أسمع من أحد ولم أقرأ لأحد شيئاً فى هذا السبيل ، الاقذر استفرغه فؤاد الصاعقة . وفؤاد لم يكن يوماً صادقاً ولا أميناً فى روايته . ولولا شعره الثابت فى ديوانه ، لما علم الناس عن عاطفته شيئاً . ولما استطعت أن أتخذ من مداعبته حجة للكلام عن ميله العاطفى ، لأنه كان يمزح فى كل شىء ويسخر من كل شىء .

وقبل أن أخوض فى عاطفة حافظ أقول :

كان السفور قبل أن يسقط الحجاب سنة ١٩١٩ لا يعرف إلا فى

ثلاث بيئات : بيئة النساء الأجنبيات ، وبيئة نساء الريف ، وبيئة النساء التعيسات المبتذلات فى الأحياء المعدودة لهن .

والبيئة الأولى : كانت تنأى عن الاختلاط بالرجال المصريين ، وتأنف أن تمتزج بأناس حطتهم الأمتيازات الأجنبية الظالمة عن مستواها فيما تزعم .

والبيئة الثانية : كانت بعيدة عن الحواضر ، وبعيدة عن الأذواق التى تتذوق الجمال المتحضر الملائم للنفوس الفنانة المتطلعة إلى الفهم فى الحديث والمشارب .

والبيئة الثالثة : لاترضى إلا الغرائز المنحطة . والرجال العارمين الفسقة المستوحشين البعيدين عن تعرف الجمال الروحى النقى .

فكان لابد أن يكون بعض الأدباء كما كان عمر بن أبى ربيعة موكلين بالجمال فى كل صوره .

وكان حافظ من هؤلاء . فلم يتحرج أن يقول فى جندى مليح :

ومن عجب أن قلدوك مهنداً * وفى كل لحظ منك سيف مهند
إذا أنت قد جردته أو غمدته * قتلت به واللحظ لايتعمد

وقال فى آخر رأى خالا على غرته :

سألته مالهذا الخال منفرداً * واختار غرتك الغرا له سكنا
أجابني:خاف من سهم الجفون ومن * نار الخدود لهذا هاجر الوطنا

وله بعد ذلك أشعار أخرى فى هذا المعنى .

ومن نوادره الظريفة : أن أحد المتشاعرين ذهب إلى داره يوماً وكان قبيح الوجه قبيح الشعر قد جاوز الأربعين .

ذهب إلى داره وأرسل إليه بطاقته مع الخادم . وكانت البطاقة تحمل اسماً رشيقاً من هذه الأسماء التى اشتقها الأتراك من الصفات الجميلة . فجاءت نهاية فى الرقة وبراعة فى الذوق .

فلما قرأ الرقعة ، وهو لم ير صاحبها ، ظنه أنه طالب فى المدارس الثانوية . وأنه أديب مبتدىء معجب بشاعر النيل ، فأسرع يطلب إلى الخادم أن يدخل الضيف . وتهيأ لاستقبال الجميل المنتظر .

فلما دخل عليه غرفة الجلوس . رأى قاصمة الظهر ورأى الموت الأحمر كما يقول الجاحظ فى كتاب البخلاء .

رأى رجلا له أنف يشبه تلك الأنوف الملصقة فى وجوه الورق المعدة لحفلات الكرنفال .

فلم يتكلم ولم يحتج ، لأن الرجل فى بيته . وليس من المنطق أن يعتذر إليه بأنه غير موجود ، وهو أمامه . وليس له أن يطرده من حضرته فالعرف والأدب يمنعانه أن يفعل ذلك ، بعد ان إذن له . فاستسلم وترك أمره لله ودعاه للجلوس وجلس أمامه .

فأطلع صاحبنا من جيبه نصف ديوان من الشعر مخطوطا . وأخذ ينشد ويتمايل ويصوب أنفه الطويل العجيب الى وجه حافظ . والرجل صابر محتسب ينتظر انصرام المحنة فى صبر الشهداء .

فلما افرغ هذه النفاية الشعرية على آذان حافظ . وقد استغرق صبها ساعتين . نظر مستطلعاً منتظراً كلمة الإعجاب من الفم المرتعش المطبق على السباب المكتوم .

ولكنه تجلد وتزحزح للقيام.وقال: « كويس الله يفتح عليك»،وظن المغرور الثقيل انه نال اعجاب الشاعر القديم .

فلم يلبث إلا أيام قلائل حتى عاود زيارته حاسباً أنه سيرحب به ، ولكن الخادم لم يكد يعلن لحافظ اسمه حتى صاح فيه :«قوله دا مات» .

وكان أيام تعريبه لكتاب البؤساء يجلس معنا فى المقهى . وينثر علينا ألفاظه المختارة لننقدها معه ، وإن كان لايأخذ بنقدنا . فهو فى ذلك كمحكمة الجنايات مع المفتى تستشيره ولا تأخذ برأيه .

وفى يوم طال فيه الجلوس وطال فيه النقاش حتى مللنا ، وانصرف كل منا إلى عمله فى الدار . وذهب هو إلى مكتبه ليتابع فيه تعريب القصة .

زارنى صديق ظريف وسيم يحب الأدب . ويتمنى التعرف إلى كبار الأدباء ، فلما استقبلته فى الحجرة المزدحمة التى أعمل فيها، سألنى أن أقدمه

لحافظ ، فأجبته بالقبول مقدراً سرور حافظ للتعرف على الشباب الظريف الوسيم .

فلما ولجنا غرفته ألفيناه مستغرقا فى التعريب ، غير ناظر إلى شىء آخر ، فأتيت بحركة مصطنعة لتنبيهه فالتفت ، فلما بصر بى تضجر و تبرم وبدأ فى الزجر والسب ، ولم يكن قد أحس بصديقى .

فبادرته قائلا : « أقدم لك صديقى شوقى عبدالرحمن » ، فلما تنبه وتأكد من وسامته طوى الكتاب وقال : « ما تقول كده الله يخرب بيتك » . وانصرفنا إلى المقهى وترك جان فلجان وفانتين . ولم يأبه لجافير .

وسألني يوماً عن شوقى فقلت : « بخير » ، قال : « متى يحضر إلى مكتبه » قلت : « السادسة مساء » قال : « ومتى تذهب » . قلت : « الساعة الخامسة لأنى صديق أولاده ، وإن ذهابى إلى هناك كل ليلة إنما هو للصداقة التى بيني وبين والديه » ، قال : « وهل يجتمع معكم أصدقاء » . قلت وقد أضمرت مداعبته واللعب به : « نعم معنا صديق ظريف جميل حسيب نسيب » . قال : « ومن هو ؟ — وأظهر اهتماماً بالغاً — » ، قلت : « هو من طراز رفيع إنه ابن رئيس وزراء سابق » . قال : « عرفني به » . قلت : « يا حافظ بك انت مالك ومال أولاد الذوات دول » . فقال : « عرفنى بيه يا ابن ال ... » قلت : « بشروط » . قال : « ايه هى ياسيدى » . قلت : « نخرج من هنا — من دار الكتب — لى

بار الأنجلو لنشرب كونياك نابليون . وقبل أن نذهب إلى البار تشترى لى ثلاث سيجار كرونه . وبعد ذلك نروح الكونتيننتال للغداء ، ونجلس فى التراس نشرب القهوة وما أشاء ، حتى إذا جاءت الساعة الخامسة ذهبنا إلى مكتب شوقى » ، قال : « قبلت » .

ونفذ كل شروطى . وكان إذا أنفق مالا حسبه قائلا : « الوقت واصلك كذا وكذا » .

فما وافت الساعة الخامسة حتى كان قد أنفق على مائة وخمسة قروش . فلما دخلنا مكتب شوقى ، ألفينا ولديه وصديقنا معهم يلعبون الورق .

فلما بصرا به ابنا شوقى ، نهضا مرحبين قائلين : « أهلا ياعمى » . ولم يكن صديقنا يعرفه . فأسرعت وقلت : « يا أحمد أقدم لك عمك حافظ بك إبراهيم الشاعر » .

فما كاد ينهض صديقنا للحفاوة به حتى أسرع إليه ناظراً فى وجهه . فلما أثبته تماماً . بسط لى يده فى سرعة خاطفة ، وقال : « هات جنيه ياحرامى » . قلت : « يعني يساوى خمسة صاغ بس » . قال : « كتيره برده . وكان صديقنا أحمد يحيي بن يحيي باشا إبراهيم .

وكان حافظ يكره القبح ويتشاءم منه . فهو فى ذلك كابن الرومى الشاعر . الذى كان يرقب جاره الأحدب من خصاص الباب فكان إذا أبصره لم يبرح داره ، وإن أتى عليه وعلى ذويه الجوع .

كان يتنادر على قباح الوجوه ، ويسخر منهم ، ويناقشهم فى المهور

التى دفعها آباؤهم لأمهاتهم ويقول: « إن زاد آباؤكم مهور أمهاتكم لجئتم أحسن خلقه » .

وكان يختص صديقاً لنا غير وسيم يعمل معنا بنكاته اللاذعة ويقول: « أظن لما اتولدت أمك اتبرقعت من وشك. وهو انت يا جدع رضعتك قردة ، أظن مراتك بتاخد منك كل يوم فلوس بدل وش » .

كنت أحب إبراهيم باشا رأفت وآنس إلى شيخوخته المرحة التى بلغت الثمانين . فقد كان الرجل ظريفا طروبا ، كأنه شاب فى الثلاثين . وكان يجلس معنا فى مقهى كساب - مكانها الآن عمارة التأمين الفرنسية - وله صديق يضارعه ظرفا وطربا . فكان إذا أقبل عليه أنشد فى وجهه هذا المصراع من الشعر :

يموت الصالحون وأنت حى

فكان يعجبني هذا المصراع ، ولا أدرى لماذا ، فليس فيه من البلاغة ولا من الخيال السامى ما يلفت الذوق ، ولكنى كنت أطرب لسماعه . ولعل لشخصية إبراهيم رأفت حافز لذلك .

فأحببت أن أتعرف على المصراع الثانى ليكمل البيت . فلم أجد غير حافظ وهو مستودع ضخم للمحفوظ من الشعر العربى .

فلم أكد أنشده هذا المصراع طالباً الشطر الآخر منه . حتى بادرنى قائلا : ماهو معروف ، ثم أنشد :

يموت الصالحون وأنت حى * حياتك يابن محفوظ حرام

فشكرته على واسع علمه . وحمدت الله على أنه لم يزدنى بيتاً آخر .

وكان يضيق بالناس فى أول قدومهم عليه . كان [illegible] ى وافداً مقبلامن بعيد زمجر وغمغم وتبرم . وقال: « أهو جاى دى عيشة إيه دى . هو الواحد ما يقدرش يقعد لوحده ساعه » . كان ينطق بهذا الا كلشيه عند قدوم كل واحد . كنت أسمعه منه عند قدوم أحمد نسيم وعند قدوم محمد الهراوى . وكان يسمعه نسيم منه عند قدومى . وكان يسمعه الهراوى عند قدوم نسيم وهكذا دواليك .

ولكن إذا اطمأن بواحد منا المجلس معه . تطلق فى وجهه وبش وأمر له بالشراب ، وضاحكه ومازحه . ولم يكن هذا نفاقاً منه . فهو لا يعرف النفاق ولا يستطيع صدره الحرج أن يصبر على النفاق والمجاملة . ولكنه هكذا ، كان يتحول فى لحظات من الغضب إلى الرضا ومن الرضا إلى الغضب .

وكان مجلسه نادياً أدبياً . فيه محاضرة . وفيه فكاهة . وفيه أدب : منثور ومنظوم .

وكان يطيل الجلوس مع أصدقائه ، لا يبرحهم مفلتا كما كان يفعل شوقى . وكان له فى هذا متعة . وكان لايصبر على الوحدة أبداً .

حدثنى يوماً : أن السراى قد سألته أن ينظم قصيدة فى رحلة للملك

فؤاد ويلقيها بين يديه . وأرسل له الأستاذ حسن نشأت وكيل الديوان يومئذ للحضور والتحدث فى شأن القصيدة .

فذهب إلى السراى . وطال مكثه فى غرفة السكرتير لانصراف الرجل عنه لأعماله الكثيرة ، فلما أذن له . دخل إليه والضيق يرتسم على وجهه لطول حجابه . ففطن نشأت إلى ذلك وقال : يا حافظ بك . ألا تستطيع أن تجلس مع نفسك قليلا !.

وفى الحق أن حافظا كان لايستطيع أن يخلو بنفسه .

وحافظ إبراهيم كان ثابت العقيدة مؤمناً إيماناً ثابت الدعامة قوياً . كان يقوم على الإعتماد على الله فى حياته . كراكب البحر أو كراكب الصحراء الذى يتوجه إلى الله دائماً ليجنبه الغرق أو الضلال فى التيه .

كنت إذا اشتد الجدال بيننا وخفت طغيانه عذت بهذه الكلمة ( ربنا موجود ياشيخ ) فكان يستخذى ويلين ويسرع إلى تقبيل رأسى . حتى لو كنت أنا المخطىء .

وكان يقول بعد أن يسمع هذه الكلمة : ( بس لولا كلامك المؤلم ده ) .

كانت هذه الكلمة الرقية التى أنفثها فى عقد غضبه . فتسترخى وتنحل .

وكان حافظ رحمه الله يعيش فى ظل هذا الإيمان مطمئناً مرزوقاً . يوم كان يتردد فى المدينة الصاخبة ، ولا مورد له معروف مضمون قبل سنة ١٩١١ .

كان كالبائع الجوال لا يعرف ما يكسبه من رزق فى يومه . ولهذا تغلغل فى كيانه الاعتماد على الله .

فرسخت فى نفسه العقيدة . وأرستها ما كان يلقاه فى سبيله من توفيق لا يعلم مأتاه . ولم يعد له عدة . فهو كالطير التى تغدو إلى أرزاقها وهى لا تعلم لها مكاناً مرسوماً مقدراً تلتقط فيه حبها ولكنها تجد هذا المكان ولا تعلم من الذى نثر لها الحب فيه .

وقد حاط هذا الإيمان حافظاً . فظل طول حياته مؤيداً منه . فقد استفاد من إيمانه وأفاد الناس من هذا الإيمان . كان لا يرد محتاجاً . ولا يخذل فقيراً . وكان هو غير مخذول إلا فى خياله الذى سأتعرض له بعد ذلك .

لقد غالى حافظ فى ادعائه البؤس وغالى فى بؤسه الناس أيضاً ، لما كان يسمعونه منه من شعر ونثر . حتى شوقى الشاعر أشار إلى هذا البؤس فى رثائه له كما قدمت.

فهل كان بائساً حقاً كهؤلاء الفنانين المتجولين فى أسمالهم الذين لا يجدون قوت يومهم

كل أصدقائه يكذبون دعواه . فهذا الأستاذ المازنى : يراه يخرج من جيبه حافظة نقوده فى مقهى متاتيا . ويراه يرميها إلى إمام العبد ليأخذ منها مايشاء . وكانت مكتظة بالنقود ، كما قال المازنى .

وقال إبراهيم الدباغ : إن حافظاً لم يترك تدخين السيجار قط فى كل مراحل حياته .

وقال نسيم الشاعر : إن حافظاً كان يبره دائما بالنقود .

وقال لى الأستاذ عزيز أباظة الشاعر : إنه كان يرى حافظاً فى بيت بيه فى بلدة الربعماية ، كما كان يراه بعد ذلك وهو موظف دولة . لم يتغير من حاله شىء .

وتزوج حافظ فى سنة ١٩٠٦ . فهل كان يستطيع رجل بائس فقير معدم أن يقدم على الزواج وهو عالم بنفقاته ونفقات الأسرة وما يتطلبه ذلك من مال كما قلت .

قد يكون قد لقى شيئاً من العنت فى حياته الأولى سنة ١٩٠٠ يوم نزل القاهرة مطروداً من السودان . فقد كانت شكواه من الزمن تتوضح فى هذه السنة . ثم نراها انقطعت بعد ذلك إلا فى النادر القليل .

لقد كان المتنبى يقول :

أما فى هذه الدنيا كريم * تزول به عن القلب الهموم

كان يقول هذا وهو يملك مائتى ألف دينار ، وكان البحترى يشكو دهره وهو يملك الضياع .

وكان أبو العتاهية يقول لسلم الخاسر :

تعالى الله يا سلم ابن عمرو * أذل الحرص أعناق الرجال

وهو يملك الآلاف الكثيرة من الدنانير .

قد يكون حافظ كشارلى شابلن : الذى أرهقه الفقر فى طفولته . فلم يبرح خياله قط . فقد اتخذ منه فلسفة تضمنتها كل أفلامه ، فهو يخاف الفقر رغم الملايين التى يملكها ، حتى أنه افتتح مطعماً لأحد أصدقائه بماله ليكون له موئلا ، يلجأ إليه إذا عاوده الفقر مرة أخرى .

إن يتم حافظ وفقر أمه وقسوة خاله : كل هذه الأشياء استقرت فى عقله الباطن وراحت تعاوده ، كلما لمس خيبة أمل فى حياته ، ولو كانت خيبة تافهة .

وكان رحمه الله يجسم الأمور ويعظمها ويغالى فيها ، فقد ادعى البؤس وهو ليس ببائس ، وسطر فى كتاب البؤساء هذا البؤس فقال :

ألفه مؤلفه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس .

فهل كان فيكتور هيجو بائساً بؤس حافظ الذى يدعيه ، كان منفياً

فى البلجيك، وكان حافظ طليقاً فى القاهرة يلهو ويشرب ويدخن السيجار، ولكنه تصيد المعنى وضم نفسه إلى الرجل ظلماً .

أنا لا أعد بؤسه إلا بؤساً فى الرغبة والطموح. كان فيه خلق الأدباء المتطلعين إلى الترف والحياة الناعمة التى يزعمون أنها من حقوقهم وحدهم ، لأنهم فقهوا جمال الحياة ونعيمها ، وأنهم فوق الناس فهماً وإدراكاً ، فهم أحق منهم بكل خير فى هذه الدنيا .

ولن أميل عليه كل الميل فى تهجين هذه الشكوى ، التى ملأ بها الدنيا ضجيجاً ، فقد يكون حافظ يكره أن تكون يده السفلى ، وهو يعلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، ولكن ماذا أصنع وأنا أعلم أن تلك اليد لم تقبض أناملها عن الأخذ حتى بعد أن أصبح صاحبها يبسطها غرة كل شهر إلى راتب مضمون كاف للحياة الكريمة، يتقاضاه من الدولة .

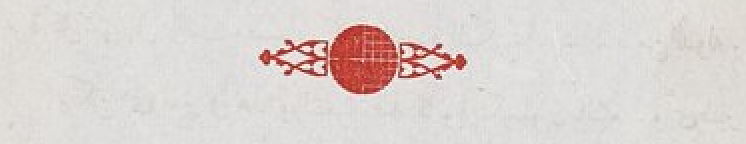
ولكن أى ضير فى هذا والشعراء قبله كانوا يتكسبون بالشعر . وأى ضير فى أن يمدح الناس فيجزونه بالجوائز ، والشعراء فى القديم، كانوا كبعض حملة الأقلام فى العهد القريب ، يأخذ الأوائل ثمن المديح ، كما يأخذ الأواخر ثمن التأييد .

وقد سئل البحترى عن طلبه الجوائز الكثيرة المال ، فقال للسائل : أتلومنى على هذا ، وإنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس .

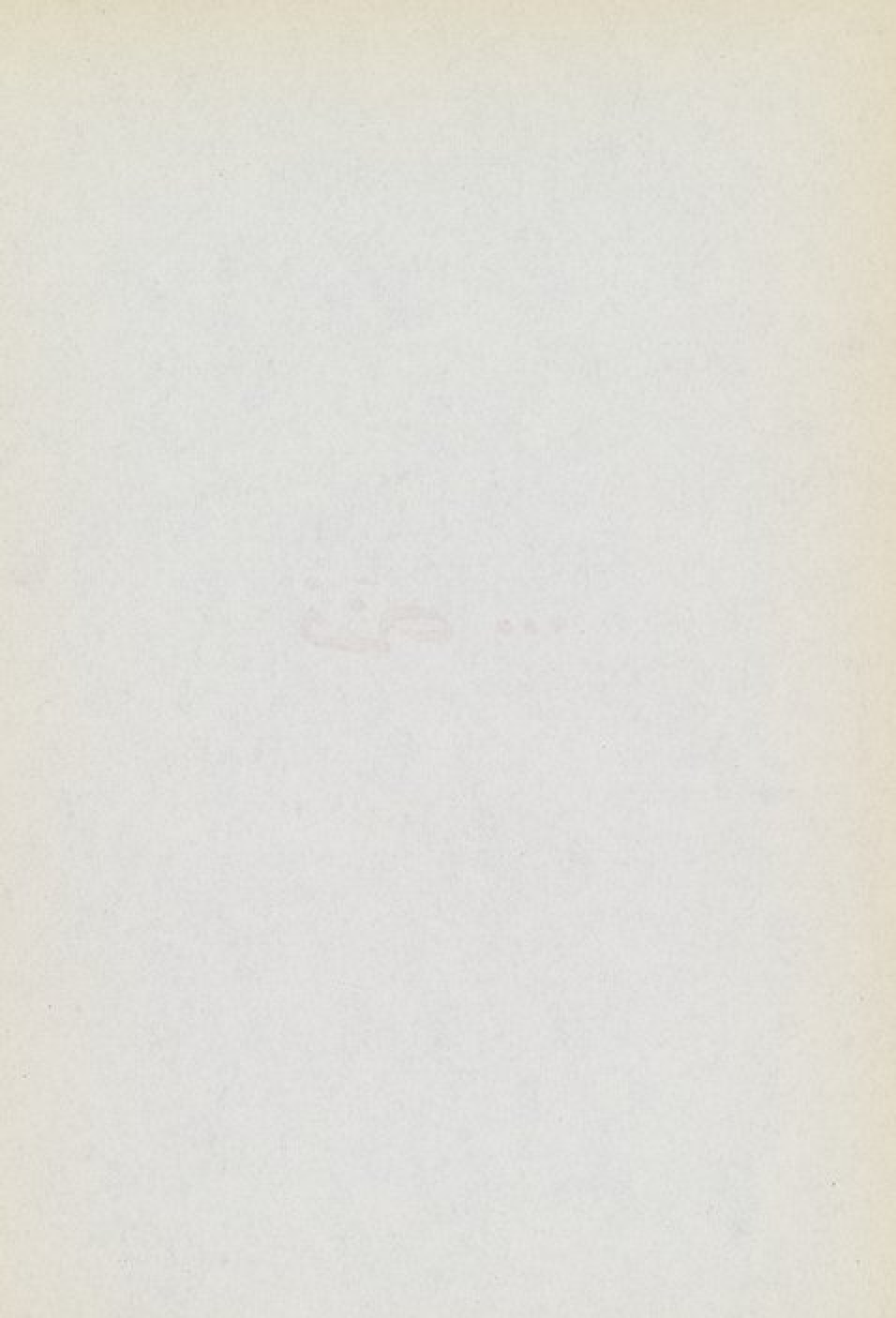
وقد ذهبت هذه الأموال التى حصلها حافظ من الأثرياء ، وبقيت

مدائحهم ثابتة فى ديوانه ، فكان كما قال عمر بن الخطاب لابن زهير بن أبى سلمى .

وقد خلف حافظ رحمه الله مدرسة فى البؤس ، فكل أديب ناشىء ، أو شاعر مغرور ، قعد به تواكله عن العمل ، وأنفته من المهن الشريفة المتواضعة ، فأضر به ذلك . صاح وملأ الدنيا صياحاً وشكى حظه وجهل الناس بعبقريته وقال : إنى بائس .




فنّه ...



١ — لقد أسلفت فى كتاب « حياة شوقى » عند الكلام فى باب « شوقى وحافظ » :

إن حافظا كان قريب الغور لا يضرب فى سموات الخيال بسهم بعيد الرمية ، ولا يحلق إلا بأجنحة متكسرة ، ولابد للشاعر الفحل من الخيال السامى الجوال المتلفت إلى المعانى ، والمتغلغل فى ضمائر الأشياء ، الباحث فى أكنافها وعن خباياها والمستنبط الدقائق والمستخرج الدفائن .

ثم عرضها بعد ذلك فى صور فنية أنيقة تستهوى نفوس كانت تحس هذه الأشياء ولا تستطيع التعبير عنها ، فهى مستغلقة فى هذه النفوس ، حتى يأتى الشاعر الملهم فيعرضها للناس ، مفتحة الجوانب ، فتصيب غرضاً كانوا ينشدونه ولا يستطيعون إبرازه ، فيبرزه لهم هذا الشاعر المعبر .

ولم يكن حافظ من هؤلاء السحرة ، بل كان شاعراً قريب التعبير سهل المتناول ، لايجد قارئه فى شعره ما يرضى خفاياه ، ولا ما يشبع هواه وخياله ، ولكنه رزق عطف القلوب ولم يرزق عطف الأخيلة .

كان شعره لايملأ القلب ، فان روحه الحلوة تنساب فيه . فقد كان ينظم بقلبه لا بخياله .

وقد يجالس أحدنا إنساناً تافهاً فى معناه ، فلا يملأه ولا يحتويه ، ولايحمد

الله على الخلاص منه ، بل يود أن يحظى بالجلوس معه مرات ومرات ، وذلك سر من أسرار النفوس البشرية ، وقد يضيق أحدنا بالذكاء اللامع لأنه يحسه خالياً من الروح ومن الطيبة .

كان حافظ مرزوق الشعر حتى عند كبار النقاد والفنانين ، كان لاتمل قراءة شعره الأذهان ، وإن كانت مستنيرة عالمة بالجيد الرائع من الشعر والبليغ السامى ، وإن سألت تلك الأذهان المستنيرة عن هذا الإصغاء العجيب لأجابتك قائلة :

إن فى هذا الشعر جاذبية غير واضحة ولا مفهومة ، يحسها القلب وينكرها الذوق الفنى .

وكانت هناك شخصية حافظ التى كانت تسيطر على شعره ، فمنها كان يستمد سره . وفيه بركتها كما يقول العوام .

ولا يسعنا إلا أن نقابل بالتكريم والتنويه شخصية حافظ ابراهيم المطرود من السودان ، والمتجول فى أكناف القاهرة بغير عمل ولا مورد رزق معروف ، ولا جاه ، ولا ثقافة عالية ، ولا أسرة كبيرة ، ولا أية أداة من الأدوات التى تقدم الفنان فى هذا الجو الشرقى .

فقد اعتاد الشرق أن يقدر الفن ويقدر العلم ويعرف للنبوغ حقه ، إذا ساند كل هذا جاه أو مال أوعصبية .

وكان حافظ خلواً من هـذا ، كان فقيراً ، وكان عاطلا وكان من أسرة متواضعة ، وبرغم هذا فرض نفسه فرضاً على الجو الفني فى عصره ، وكان منافسوه أقوياء .

فالبارودى : كان وجيهاً وحامل لقب نخم . وثائراً عظيماً . وباعث نهضة شعرية .

وكان شوقى : غرس نعمة بيت محمد على ، وربيب توفيق ، وصديق عباس وصهر عائلة غنية معروفة .

وكان مطران : مؤيداً من رجال لهم خطرهم ولهم صحفهم ولهم أقلامهم ، وله بعد ذلك منهم التقديم والتنويه لأنهم كانوا يعدون شأنه أمراً وطنياً .

واسماعيل صبرى : وكيل وزارة وحامل لقب عظيم .

ورغم هذا فقد اندس هذا المحامى الخائب والضابط المعزول فى هؤلاء الأربعة ، وتطاول حتى فات ثلاثة منهم شهرة ووقف له الرابع بعبقريته وجاهه ، ولـكنه لم يستطع أن يهزمه إلا بعد عهد طويل من العناء والغيظ وبذل الأموال . وقد يقول بعض الناس : إن حافظاً كان له جاه فى الأستاذ الامام عاونه وسانده . ولـكننا نتساءل ؟ : كيف وصل إلى هذا الجاه . إنما بلغه بشخصيته وجده ، ثم بعد ذلك بأدبه .

ولم يكن الأستاذ الامام جاهلا ، ولا مخدوعاً فى حافظ . كما أنه ليس فى حاجة إلى مدائح حافظ وثنائه . فالرجل عظيم بغير حافظ ومدائح حافظ .

ويقول البعض أيضاً : إن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد عاون حافظاً وأبرزه نكاية فى شوقى . ولكن هل يستطيع على يوسف أن يقدم شاعراً تافهاً ليقهر به ذلك الشاعر الجبار .

ويقول البعض : إن مصطفى كامل وصحيفة اللواء دفعا بحافظ إلى الشهرة.

قد يكون بعض هذا صحيحاً . ولكن اللواء أيضاً دفع باحمد نسيم وأحمد محرم إلى الشهرة التى لم تبلغ شهرة حافظ قط . ولم يستطع الشاعران رغم جهدهما أن يقفا مع حافظ فى مرتبة واحدة . لافى حياتهما ولا بعد موتهما . وهناك شعراء آخرون لم يستطيعوا أن ينفذوا فى زحام هؤلاء الخمسة : البارودى . وشوقى . وحافظ . ومطران . واسماعيل صبرى. وإن كان بعضهم جيد الشعر .

وفى حافظ أيضاً موهبة كانت تعينه وتشد من أزره ، كان خطيباً حلو الإشارة ، جهورى الصوت يعرف مواقع الكلام وإصابة الهدف فى فى النفوس المنصتة . كان يلهب الحواس وينال التصفيق الذى كان يثق فى الحصول عليه ثقة لم تخذله إلا مرة واحدة .

فقد حدث أن أقيم حفل لرثاء اسماعيل صبرى . وقد كثر الخطباء والشعراء حتى مل الناس، وكان من عادته أن يختم كل حفل بقصيدة فتكون مسك الختام كما يقولون .

فلما أراد أن يختتم حفل رثاء اسماعيل صبرى ، لم يجد من الجمهور

التشجيع الذى تعوده منه فى كل حفلاته وذلك لملل الجمهور كما قدمت .

فأقلع عن هذه العادة وجعل إلقاءه لشعره فى أول الحفل أو وسطه ، حيث تكون النفوس نشطة مشتاقة إلى سماع الشعر المذاع فى إلقاء نخم مفوه .

وسأتعرض هنا لأغلب ضروب شعره ، من مدح ورثاء واجتماع وغزل ووصف وتاريخ وقصة .

## مدائحه

إننا نغمط المدح إذا قلنا : أن المدح فى الشعر ليس فناً . بل هو ملق مقفى موزون . أريد به منفعة عاجلة ، فهو لا يصدر إلا عن اللسان الذى يعبر عنه فى شعر موزون ، وليس لنا أن نقول : أن كل مديح قيل فى ممدوح إنما هو ملق وكذب .

فكثير من المديح كان مبعثه القلب الراضى والنفس الشاكرة للمحسن المتفضل .

والفن لا يستلهم جماله إلا من رضى النفس وخفقان القلب .

وقد أبدع كثير من الشعراء إبداعاً بديعاً فى هذا الضرب من ضروب الشعر ، حتى صار إبداعهم نماذج من البلاغة وسمو الخيال .

فأبو تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، قد جاءوا فى هذا الغرض بالمعجزات

وقبلهم جرير والفرزدق وبشار بن برد ومروان بن أبي حفصة . وأن أكثر الشعر العربي القديم كان مديحاً .

فليس من الإنصاف أن ننفي المديح عن الشعر السامي لأنه قيل للتكسب والارتزاق . فلو نفينا المديح عن الشعر الرفيع لذهبنا بشعراء العرب الفحول إلى العدم وتركناهم نظامين يرسلون كلاماً مقفى لا حظ له من الفن ولا من الخلود .

وقد قال حافظ في المدح قصائد كثيرة . أكثرها لا روح فيه ولا جمال.

فالرجل معذور ، فقد كان يرجو المنفعة لأنه فقير ، وأية صلة روحية وقلبية بينه وبين عبد الحليم عاصم باشا أمير الحج ، وأية عاطفة كانت تهزه من إمارة الحج التي أسندت إلى عبد الحليم هذا .

ولكنها مناسبة عرضت لحافظ فتقرب بها إلى الباشا ليقضي له غرضاً لا نعلمه .

ولكننا نظلمه إذا قلنا : إن هذه الأبيات التي قالها في الإمام محمد عبده إنما هي أبيات قيلت والسلام ، لأن الشاعر أراد التقرب والزلفى .

قال حافظ :

فلم يبق في قلبي مديحك موضعا * تجول به ذكرى حبيب ومنزل

رأيتك والأبصار حولك خشع * فقلت أبو حفص ببرديك أم علي

وخفضت من حزنى على مجد أمة * تداركتها والخطب للخطب يعتلى
وجردت للفتيا حسام عزيمة * بحديه آيات الكتاب المنزل
محوت به فى الدين كل ضلالة * وأثبت ما أثبت غير مضلل

وفى مدحه للبارودى: نجد عاطفة صادقة هى عاطفة التلميذ للأستاذ .

فليس للبارودى يوم جاء من منفاه مال ولا جاه ولا نفوذ ، يدفع شاعراً يتكسب بالشعر إلى مدحه لينال من هذه الأشياء حظاً .

فمدحه فى محمد عبده إنما هو للحب وعرفان الجميل وللتقدير . فالرجل أحسن إليه فأحبه ، وكان عظيماً فقدره . والبارودى كبير الشعراء فى عصره وأستاذهم كلهم ، لا بد له أن يلفت إعجاب حافظ إليه فيمدحه .

أما مدائحه فى الخديو والسلطان عبد الحميد والسلطان رشاد : إنما هى مدائح مناسبات واجبة على الشعراء فى ذلك العصر . كما كانت واجبة عليهم أيام الملك فؤاد وأيام ابنه فاروق ، يوجبها النفاق الذى شمل الجميع ولف فى طيلسانه الحكام والرعية .

ولن نلتمس لشاعر الشعب ـ كما شاء بعضهم أن يلقبه بهذا اللقب .

ولن نلتمس لشاعر الوطنية ـ كما لقبه بذلك اللواء .

ولن نلتمس لشاعر الحزب الوطنى ـ كما لقبه بذلك اللواء أيضا .

ولن نلتمس لشاعر النيل ـ كما لقبه بذلك على يوسف .

لن نلتمس له العذر يوم مدح إدوارد السابع فى تتويجه سنة ١٩٠٢ .

فكيف يهنىء حافظ ويمدح ملك هؤلاء المحتلين بلاده . وملك هؤلاء الذين أذلوه فى السودان وطردوه من الخدمة ، وأية منفعة كانت تعود عليه من هذا السلوك المزرى .

ولكن من عرف حافظاً وسذاجته . يقدر أن أحد اللائذين بالوكالة البريطانية دفعه إلى هذا فانساق ، لأنه كان سهل الانقياد وهذه طبيعة فيه .

ثم له بعض المدائح فى الأسرة الأباظيــة وهى مدائح صادقة العاطفة لأن هؤلاء الناس عرفوا مكانه من الأدب فقــدروه وعاونوه .

وله بعد ذلك مدائح فى آل محمود سليمان وهى مدائح تجرى فى السبيل التى جرت فيها مدائحه فى الأسرة الأباظية .

ثم له مدائح فى بعض الأفراد الذين لاتتبين فى شأنهم الوجه الصحيح الذى دفعه إلى مدحهم واطرائهم .

وهناك مدائح فى إخوان كانوا يبرونه ويصادقونه. فنستطيع أن نقول أن مدائحه فى هؤلاء إنما كانت اخوانيات قد أودعها شعره شكراً ووفاء .

ومن هؤلاء : محمد إبراهيم هلال ، وأمين واصف .

وله تقاريظ أدبية وإشادة ببعض كتاب شرقيين وغربيين .

وشعره فى المديح كان يتأرجح بين الإسفاف والجودة التى تبلغهـا مكانته الفنية .

## مراثيه

كان حافظ أجدى لحفلات التأبين من شوقى لأنه خطيب وممثل . يلقى شعره بنفسه فى روعة بالغة التأثير فى نفوس الجماهير .

وشعر شوقى سام رفيع ، ولكن شوقى كان يدفع به إلى رجال غيره . قد لا يندمجون فيه فيسيؤون الإلقاء فتذهب روعته . وهو بعد ذلك غامض المعنى لا تتبين الأسماع جماله إلا بعد الالتفات الطويل إليه ، لأنه وليد العبقرية التى تأبى إلا أن تتطلب فى تفهمها الجهد من الأذهان .

ولكن شعر حافظ سهل المعنى ، تألفه الأذن ساعة سماعة ، ويزكيه إلقاؤه الرائع .

حضرته يوماً وكان يلقى قصيدة رثاء سعد زغلول فى حفل ضخم حاشد ، وقد تعاقب الخطباء والشعراء فلم تهتز الجماهير لأحد ولم تهتم حتى بقصيدة شوقى وهى بالغة السمو فى الفن ، ولكن لما نهض حافظ ليلقى قصيدته اشرأبت الجماهير وأخذتها روعة الأسى حزناً على سعد زغلول .

فلما بلغ إلى هذه الأبيات :

كم شكوت السهاد لى يوم كنا * بالبساتين نستعيد الشبابا
ننهب اللهو غافلين وكنا * نحسب الدهر قد أناب وتابا
فإذا الرزء كان منا بمرمى * وإذا حائم الردى كان قابا

نشجت السيدة صفية هانم زغلول ، وعلا نحيبها ، وكاد يفلت من حافظ توازنه وينسى سائر القصيدة ، لأنه لا يقرأ شعره من ورقة مبسوطة ، إنما كان يحفظه ثم يلقيه من الذاكرة .

ولحافظ قصائد فى الرثاء تفيض بالعاطفة كان ينظمها من قلبه ومن عميق إحساسه ، فما قرأت له هذا الاستهلال إلا وأخذتنى هزة من الأسى :

آذنت شمس حياتى بمغيب * ودنا المنهل يا نفس فطيبى

وما استعدت هذه الأبيات التى دسها خطأ فى قصيدة تحية الشام التى أنشدها فى الجامعـة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٢٩ والتى كانت أولى بقصائد الرثاء :

أقول ما استعدتها إلا واستعبرت :

وقد وقفت على الستين أسألها * أسوفت أم أعدت حرأ كفانى
شاهدت مصرع أترابى فبشرنى * بضجعة عندها روحى وريحانى
كم من قريب نأى عنى فأوجعنى * وكم من عزيز مضى قبلى فأبكانى
من كان يسأل عن قومى فإنهم * ولوا سراعاً وخلوا ذلك الوانى
إنى مللت وقوفى كل آونة * أبكى وأنظم أحزاناً بأحزان
إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى * وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وكان حافظ يجمع النقيضين ، يجمع حزن النفس ومرحها . فالحزن

قد رسب فى نفسه أيام يتمه وأيام فشله فى المحاماة ، وأيام خدمة الجيش ، وأيام تعطله ورزقه القلق الذى كان لا يعرف مورداً ثابتاً منظوراً .

وأما مرحه : فقد كان ينبع من طبيعة نفسه ومن فلسفة اعتقدها كانت تستقى من سخريته بالحياة وبالناس .

ومن أروع مراثيه : قصيدته فى الأستاذ الإمام التى عارض بها قصيدة دعبل الخزاعى فى رثاء آل البيت :

مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصات

والتى قال فيها حافظ :

تباركت هذا الدين دين محمد * أيترك فى الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى * ولانت قناة الدين للغمزات
زرعت لنا زرعاً فأخرج شطأه * وبنت ولما نجتن الثمرات

وقصائده فى رثاء مصطفى كامل فيها بلاغة ولوعة وإجادة .

وقصيدته فى سعد زغلول عامرة الأبيات وقوية .

ولكن قصائده الأخر كان أكثرها للمجاملات . فنظمها من غير عاطفة ، فجاءت فاترة إلا فى النادر القليل .

وإنا نحار فى السبب الذى جعله يرثى تولوستى ، فهو لم يقرأ له شيئاً ولم يعرفه ، ولم يسمع به إلا عرضا ، ولكن شوقى رثاه ، فلابد له أن يرثيه والسلام .

وكيف طاوعه ذوقه ليقول للرجل :

ولست أبالى حين أبكيك للورى * حوتك جنان أم حواك سعير

وهذا يشبه ما كان مكتوباً على قبر محمد على ، فقد جاءوا بنحات تركى لينحت على القبر الرخامى شيئاً من القرآن الكريم ، فنزع الله من صدره ما جاء فى القرآن من آيات الرحمة ، فلم يجد إلا هذه الآية ( إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا ) . وكان حافظ يرثى كبار الموظفين كما كان يرثى كبار الإقطاعيين وغيرهم من الأطباء والمهندسين والشعراء والكتاب .

وليس فى هؤلاء صديق لحافظ إلا قلة قليلة . ولكن الشاعر كان يجامل . وكان يحب أن يكون خطيباً ، وكان يحب أن يستديم شهرته بقول الشعر .

وكان الرثاء فى عصر حافظ فناً ، مرموقاً غلب على أكثر فنون الشعر الأخرى .

وقبل أن نترك رثاء حافظ هنا ، يجمل بنا أن نبحث قليلا فى شأن الرثاء فى الشعر العربى .

قيل لأبى نواس ما هذه المراثى التى تعدها لناس أحياء لايزالون فى الدنيا فأجاب : وماذا أصنع ؟ يموت عم الخليفة أو أخوه أو خاله فيطالبوننى بالرثاء ، والشعر لايطاوع فى كل آن . فاذا مات واحد من هؤلاء ، وجدت

رثائه معداً فأقدمه . والرثاء فى الشعر العربى معظمه فى المجاملات ، فهو أشبه بالسير فى الجنازة ثم الذهاب إلى السرادق المقام للميت الذى لا يحس أكثر المعزين فيه بالفجيعة ولا بالحزن .

والرثاء : مدح حزين مصطنع ، وليس له جوائز المديح ولا عائدته ولكن له المواساة التى تحتمها حياة المجتمع ، وهو أكذب من المدح لأن العاطفة فى المدح قد تكون صادقة فى وهم الشاعر فيبالغ فى الثناء الذى يجسمه عرفان الجميل أو الرغبة فى الفائدة ، فيقول أشياء صادقة عنده كاذبة عند الناس ، لأن الهوى واقع ، والتحيز لا يبصر إلا ما يعتقده المتحيز .

وقد يكون الرثاء أيضاً عاطفة صادقة إذا جاء فى ولد أو أخ أو صديق ، ولكن هذا الضرب من الرثاء قليل فى الشعر العربى ، فأكثر الرثاء فى الشعر العربى : التقرب للأحياء والزلفى لهم ، وقد فشا فى عصر حافظ التعازى بالشعر ، فكل حفل تأبين لعظيم أو لشبه عظيم لابد أن تكون فيه قصائد رثاء ، ولابد أيضاً أن تكون هذه القصائد من شعراء معروفين ليتم بهم جلال حفل التأبين .

## اجتماعياته

أسلفت أن حافظاً لا يندمج فى نفسه أبداً بل هو مع الناس لا يعرف غيرهم ولا يطيق سواهم ، فاستفاد خياله من هذه المعاشرة ، ووقف به

على حاجات الناس وأفراحهم وأحزانهم ، وكل ما يتصل بمنازعهم البشرية . فلو رزق هذا الشاعر خيـــال شوقى والتفاتاته لجاء عجباً فى الشعراء .

فقد كان الناس مدرسته وكتابه ومعلمه ، وقد رفعه فقره وديمقراطيته والحاجة إلى الجماهير للشهرة والتكسب ، إلى تفهم الأخلاق والعادات والنوازع .

فقد عاشر الصعاليك والشعراء والكتاب والأغنياء والفقراء والوزراء والإقطاعيين ، وكل الطبقات التى ينتظمها المجتمع ، فكان لابد له بعد ذلك أن يجيد فى وصف هذه الأشياء إجادة بعيدة ويحسن التعبير عنها ، فهى مدرسته كما قدمت .

وقد عرف الناس له هذه المعرفة فى قصائده فأطلقوا عليه الشاعر الاجتماعى .

ولحافظ قصائد فى هذا الضرب من الشعر بليغة وقوية ، فقصيدته فى حريق ميت غمر التى يقول فيها :

رب إن القضاء أنحى عليهم * فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها * ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى * هذه النار فهى تشكو الإوارا

جليلة رفيعة ، بكى فيها الضحايا ، وحمل صندوقاً فى يساره وعاق بيمينه على الصدور شارات الإحسان .

والظاهر أن حافظاً كان يشغل خياله شبوب النار وثوران البراكين فهو مجيد حين يقول فى زلزال مسينا :

ما لمسين عوجلت فى صباها * ودعاها من الردى داعيان
ومحت تلكم المحاسن منها * حين تمت آياتها آيتان
خسفت ثم أغرقت ثم بادت * قضى الأمر كله فى ثوان

والقصيدة أكثرها بليغ ، فيها خيال يحلق أحياناً إلى آفاق بعيدة ، وهى محسوبة عليه فى باب الوصف ، وإن كان يشرك الوصف فيها الاجتماع . وهى أيضاً وثيقة له سنتقدم بها عند الكلام على فنه الوصفى .

ولحافظ فى الاجتماع قصائد تنبع من ماضيه ، فهو حين قالها كان يرى نفسه ، وقد أخذت بيده أرملة تلبس السواد وتجره جراً حزيناً من ديروط إلى حى قريب من تحت الربع ، حيث تنزل داراً ، لم تكن فيها السيدة الأولى التى تأمر فتطاع بل كانت السيدة التى لا تسأل شيئاً إلا فى استحياء لأن الدار لم تكن دارها ولم تكن تستطيع أن تسأل طعاماً لابنيها اليتيمين من ربة الدار إلا بعد أن يصيحا هذان اليتيمان من الجوع .

ولم يستطع الغلام ولا أخته أن ينطلقا فى حرية العبث الصبيانى فيكسرا الأوانى ويتلفا الأشياء ، لم يستطيعا ذلك لأن أمهما حذرة مشفقة حذر الغريب وإشفاقه من الاعتداء على حاجات الغير .

لم تكن تسمح لهما بالعبث ولا باللهو ، ولا بالإتلاف الذى يلازم

عبث الصبيان ولهوهم ، لأن الدار ليست دارها وأن صاحبها ليس بأبيهما ، وأن السيدة عائشة صاحبة الدار ليست بأمهما .

ذكر حافظ ذلك كله وتمثله كله يوم أن وقف شاعراً وخطيباً فى حفل أقامته مؤسسة رعاية الأطفال فى ملعب الأوبرا يقول :

شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال * لا بل فتاتاً بالعراء حيالى
أمست بمدرجة الخطوب فما لها * راع هناك وما لها من وال
قد مات والدها وماتت أمها * ومضى الحمام بعمها والخال
فعلمت ما تخفى الفتاة وإنما * يحنو على أمثالها أمثالى

ثم يستطرد فى قصة الفتاة فيحملها على كتفه بعد أن ينهضها وهى هيكل من العظام ويذهب بها إلى جمعية رعاية الأطفال فتعنى بها وتصيب هناك الرحمة والرعاية .

ثم يعود فى العام التالى سنة ١٩١١ شاعراً وخطيباً فى ملعب الأوبرا أيضاً يستدر عطف الجماهير ويصف قطار السكة الحديد وكيف قذف بإنسان كريم محسن من رجال جمعية رعاية الأطفال إلى النهر وكيف أن رجلا ألقى بنفسه فى النهر وجاء بهذا الغريق وكيف أن فتاتاً تتبين هذا الغريق فتبكى وتصيح ذاكرة حدبه عليها ورعايته يوم ذهبت إلى الجمعية فعاون طفلها وصان عرضها ثم يعود يحمل الصندوق ويضع الشارات على الصدور فى إشادته بالزكاة وأن الله ذكرها وأمر بها ، وأنها لو عرفها الناس

لم يكن هناك بائس ولا فقير . ثم يشكو حافظ حظه ويذكر بؤسه الذى لم ينس يوماً ذكره : —

لم أقف موقفى لأنشد شعراً * صب فى قالب بديع النظام
إنما قمت فيــه والنفس نشوى * من كؤوس الهموم والقلب دام
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً * دون شربى قذاه شرب الحمام
فتقلبت فى الشقـــاء زماناً * وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً فى فؤادى * ومشى الحزن ناخراً فى عظامى
فلهــذا وقفت أستعطف النـ * ـاس على البائسين فى كل عام

وينظم حافظ فى اللغة العربية رافعاً قدرها ويذم أعداءها ويهيب بحماتها لنصرتها . وأنها لغة الكتاب الكريم وأن باب الاشتقاق لايزال مفتوحا . ويأخذ على الصحف انزلاقها إلى العامية والميل إلى اللغات الأجنبية فى تعبيرها.

ويتعرض لزواج الشيخ على يوسف من صفية السادات. وينصر الشيخ على خصومه الذين كانوا يزعمون أنه ليس لزوجه بأهل لأنها شريفة المنبت والشيخ وضيعه .

ويتحدث إلى أهل أمريكا ويسألهم أن يمدوا أيديهم إلى الدنيا القديمة ويعينوها بما استحدثوا من اختراع وعجائب ثم يتمنى لقومه أن يكونوا كالأمريكان علماً واختراعاً . وأن عقول قومه ذكية نيرة لولا التواكل

والـكسل . ويطالب من إديسون أن يخترع آلة تسحق التواكل وتكشف عن الرياء فى الشرق .

ويحارب حافظ فى قصائده الإجتماعيـة البخل والتواكل والتنابذ والأخلاق المتأخرة ويطلب تثقيف الأذهان ويحض على البر للمؤسسات الإجتماعية والإحسان للفقراء .

ثم يتحدث عن التآخى الواجب بين سوريا ومصر . وله بعد ذلك إجتماعيات فى نواح متفرقة كلها تهدف إلى الإصلاح والرحمة والتمسك بمكارم الأخلاق .

واجتماعيات حافظ من أرق شعره وأفخمه وأجزله ديباجة .

## وصفــه

لا زلت أعيد القول أن الوصف اسمى ضروب الشعر . فهو مجال الخيال الأكبر ولوحته الفنية . فإذا جاءت اللوحة تامة الإيحاء متناسبة الظلال متناسقة الألوان ، فقد أدى الخيال السامى الجمال كاملا .

وإذا جاءت يموج بعضها فى بعض مبهمة الموضوع صامتة المعنى ، لا يأخذ جمالها العين ولا تتغلغل فى الحس ، فقد قصر فيها الخيال وتخلى عنها الفن الملهم .

فكل منا يستطيع أن يخط خطوطاً ويقيم زوايا وينشىء رسماً ، ولكن براعة الخيال وروح الإبداع إذا تخليا عن الرسم فقد أصبح لغواً وعبثاً .

فالوصف كله شعر ، وليس غير ذلك .

وأن المدح أو الرثاء أو الاجتماع أو السياسة . قد تجىء كل هذه الأشياء فى نظم سائغ تأنس إليه الأذواق ولا تنكره، فقد ترفعه حصافة الناظم وكياسة تعبيره ، فتقبله الأذواق .

ولكن الوصف يأبى مكانه الرفيع إلا سمو الخيال وانطلاقه فى السماوات العليا .

ولو نظرنا إلى خيال حافظ ، الذى لايحلق إلا دانيا والذى لا يعرف الأجواء العليا لقلنا : أن حظه من الوصف كان حظاً متواضعاً ، وقد جهد حافظ أن يسمو بالوصف ولكنه وقع ، ولم يستطع أن يفعل شيئاً .

فكيف نستطيع أن نقره على وصف الطائرة وهو يقول فيها :

مثل الشهاب انقض فى * أثار عفريت وثار
فاذا علت فكدعوة المضطر * تخترق الستار
وإذا هوت فكما هوت * أنثى العقاب على الهزار
وتسف آونة وآ * ونة يحيد بها آزورار
فيخالها الرأوون قد * قرت وليس بها قرار

لعب الجواد أقل ليثا من قضاعة أو نزار * أو كاللعوب من الحمائم فوق ملعبه استطار

وكأنها فى الأفق حين يميل ميزان النهار * والشمس تلق فوقها حلل احمرار واصفرار

ملك تمثله لنا السيما فيأخذنا انبهار

هذا وصفه للطائرة وهو وصف لاخيال فيه ولا فن ، بل قل إن خياله مضحك عجيب ساذج ، فقد شبه الطائرة بالحمامة الشقلباظ وبالجواد الراقص الذي يهتز كفله وترتفع أقدامه على المزمار البلدى ، وإن كان قد جعل راكبه من قضاعة أو نزار ، ونحن لانعلم أن فوارس قضاعة ونزار كانت ترقص خيولها على الموسيق ، كما يفعل اليوم فرسان الصعيد فى مهرجان المعرض الزراعى أو فى الحفلات التى تقام فى الأقصر لتسلية السائحين .

ولم أستطع أن أدرك ماذا يريد بالبيت الأخير ، وماذا كان يعنى بكلمة الملك التى كانت تمثله له السيما .

وقبل أن نترك هذه القصيدة ، يحتم علينا ذوق حافظ أن نمسه باللائمة فى شأنها .

فليس من اللائق أن ينشر قصيدته التى أعدها للطيار العثمانى فتحى بك لاستقباله بعد موته . فهل يجوز أن تقدم التهنئة مقام العزاء للميت ، فكيف يجوز له أن يرحب برجل مات ، ويصف من

براعته وقدرته وسطوته على الريح ما كذبه عجز الرجل المسكين الذى هوى به جهله فى الطيران هو وطائرته ، فمات وتحطمت الطائرة .

إن حرص حافظ على إظهار قصيدته بالنشر هو الذى دفعه إلى هذا العمل غير اللائق .

وحافظ غنى عن هذه القصيدة فى الشهرة ، وإنى أظن أيضاً أن الذى حرضه على ذلك ، إنما هو هذه الأبيات التى قدمتها والتى ظنها أنها غاية فى براعة الوصف ، ولم تكن إلا بداية ساذجة .

والشاعر فقير فى الوصف ، سعى لطلب الثراء ، فجاء ذهبه بهرجاً يحوطه جفاء فى الذوق .

وخير ماجاء لحافظ من شعر فى الوصف : إنما كان فى قصيدته زلزال مسينا ، التى اخترت منها أبياتاً عندما تكلمت على اجتماعياته .

والقصيدة جيدة كما قلت ، وهى من أروع قصائده وأقربها إلى الشعر . ولعل براعة حافظ الواضحة فى هذه القصيدة ، قد جاءته من رقة قلبه ، فقد كان رحيما يتوجع للناس ، ويألم لآلامهم . وإنى لأذكر له بالشكر صنيعاً صنعه معى .

كان المدير الخطاط يريد أن يحل ابن أخته مكانى وينهى عقدى مع

الدار وكان العقد مدته ستة أشهر، فبعث لى انذاراً بهذا ، فعلم حافظ بالأمر وكانت بيننـا فى تلك الأيام وحشة مبعثها وهمه إنى أميل إلى شوقى دونه كالعادة ، ولـكن رغم هذا سعى جاهداً لتجديد العقد ، فلم يفلح لإصرار الرجل باحلال ابن أخته مكانى ، حتى تفضل رشدى باشا الرجل النبيل فأرغم هذا الخطاط على تجديد عقدى .

فمن هذا القلب الطيب الـكريم نبع هـذا التوجع فى وصف كارثة زلزال مسينا .

وإن العواطف الإنسانية الصادقة تبعث فى النفوس إعجابا ولو صدرت ساذجة بدائية .

وقد لف حافظ عواطفه هذه فى ثياب من البلاغة ، فوضحت رصينة مستساغة . وإن فى قوله هذا براعة وتصويراً متقنان :

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر * ض ينادى أمى أبى : إدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ * ـر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى * مستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيـه * مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو ناج * من لظاها ولا اللظى عنه وان
غصت الأرض . اتخم البحر مما * طوياه من هذه الأبدان

ثم وصف حافظ السفينة فى قصيدة سنة ١٩٢٣ .

وقبل أن نفضى بك إلى وصف السفينة نحدثك حديثاً عجباً عن هذه القصيدة .

نظم حافظ قصيدته قبل أن يبارح القاهرة معتزماً الرحلة إلى باريس . التى أعدها بالمال الذى حصله من ثمن كتابه البؤساء السفر الثانى .

وهذه أول رحلة للشاعر إلى أوروبا ، فكان مسروراً سعيداً بهذا السفر. ورأى أن ينظم قصيدة يعبرفيها عن خلجات نفسه ، فعلم أن الباخرة سترسو به فى إيطاليا ، فهداه شيطانه إلى وصف إيطاليا التى عزم على ألا ينزلها . وكانت باريس أحق بتلك الخلجات لأنه عاش فيها شهرين واختلف إلى مطعم البط الشهير هناك فكان يأكل نصف بطة ، وغيره من المترددين على هذا المطعم كانوا لا يتجاوزون الربع أبداً ، لغلاء ثمن البط فى هذا المطعم العالمى المعروف فى الأوساط الأرستقراطية كلها فى العالم ، ولم يزر حافظ قبر فيكتور هوجو المقام فى البانثيون ، حيث مقابر عظماء فرنسا .

لم يزر قبر الرجل الذى بفضله وجبت له هذه الرحلة إلا بالإلحاح الشديد من صديقنا رامى الذى كان يطلب العلم فى باريس .

ولم يشهد هناك شيئاً تذوب على مرآه أنفس السائحين لهفة . لم يشهد برج إيفل . ولم يزر قصر فرساى ، ولم ير متاحف باريس ولا مسارحها ولا قصورها ولا معالمها التاريخية . إنما كان كل همه : مطاعمها وعلب الليل فى منبر ناس ومنمارتر .

رأى حافظ أن يسجل رحلته فى قصيدة ، فسجلها قبل أن يرتحل - والذى يعنينا من هذه القصيدة هو وصف السفينة . قال : —

عاصف يرتمى وبحر يغير * أنا بالله منهما مستجير

وكأن الأمواج وهى توالى * محنقات أشجان نفس تثور

أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت * ثم فارت كما تفور القدور

ثم أوفت مثل الجبال على الفـ * ـلك وللفلك عزمة لا تخور

تترامى بجؤجؤ لا يبالى * أمياه تحوطه أم صخور

أزعج البحر جانبيها من الشـ * ـد فجنب يعلو وجنب يغور

وهو آنا ينحط من علو كالسـ * ـيل وآنا يحوطها منه سور

وهى تزور كالجواد إذا مـ * ـا ساقه للطعان ندب جسور

وعليها نفوسنا خائرات * جازعات كادت شعاعاً تطير

ووصفه هنا للبحر والسفينة والموج وصف لا يقره الفن ولا يلتفت إليه الذوق الرفيع .

ولحافظ بعد ذلك وصف كثير ، فقد وصف فى قصيدة السفينة هذه ، شوارع إيطاليا التى لم يرها . ووصف نادى الألعاب الرياضية وخنجر مكبث ودخول الليل ، وغير ذلك . ولم يكن فى كل هذا شاعر وصف إلا فى زلزال مسينا .

# وطنياته

فى هذا الميدان برز حافظ واشتهر وعرفه الناس. وفى هذا الميدان رسم شاعراً كبيراً .

كان ميدان الوطنية قبل أن يلجه حافظ إبراهيم وقبل أن يبسطه مصطفى كامل واسعاً عريضاً ويغرس على جانبيه أشجار الحرية.. زقاقا ضيقا مخوفاً لا تعبره الناس إلا فى خوف واستخفاء عن عيون اللورد كرومر ورجاله المستعمرين .

كانت القسوة التى حلت برجال ثورة عرابى لاتزال ماثلة فى النفوس وكان بقايا هؤلاء الثوار محطمة . فعرابى فى ميدان الأزهار يجلس أمام بابه شيخاً كبيراً ضعيفاً تحمل أساريره وطأة سنين قاسية مرهقة . وقد أرسل لحية بيضاء تكاد تبلغ نصف صدره وهو مطرق لا يستطيع شيئاً .

وعلى كثب منه ثكنة قصر النيــل تعج بالجنود السكارى ليلا والمتغطرسين نهاراً . وعلى شاطىء النيل قريباً منها جلس ذلك الرجل الثعلب الماكر العينين يرقب . ويصرف الأمور كما تشاء دولته لا كما تشاء مصر . وقد دان له هؤلاء الرؤوس الذين لا يعرفون إلا منافعهم والاطمئنان على أرزاقهم . هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون عدة للمستعمر . وتكأة فى كل عصر وفى كل بلد خانه الحظ وركع تحت أقدام الأجنبى . والشعب

وراء ذلك منصرف إلى حظه الخسيس ولقمته المغموسة فى الذل والهوان .

وصاحب القصر يخاصم مرة فى دهاء تركى عتيق ومؤامرات لا تخفى على تلك العينين الشهلاوين : عيني اللورد كرومر .

ويسالم مرة متأثراً بهذا الخبث الإنجليزى العريق المتغلغل فى أعماق السنين والمكتسب من الخبرة الواسعة فى الهند وغير الهند والمدروس باحكام فى وزارة الخارجية الانجليزية .

فى ظل هذا البلاء المتراكم ، وفى وسط هذا الجو الخانق المشبع بالرهبة استكان الشعب المصرى ، متلفتاً حذراً . والضغط يبعث الانفجار ، فلابد أن يحدث شيء ، ولابد لهذه النفوس التى لم تمت إلا وبعث حية أن ترفع رؤوسها فوق هذا التراب المنهال عليها ، ولابد للشباب أن يكون قدوة ، فالشباب لا يعرف الخوف لاندفاع الدماء الحارة فى شراينه ، فهو يتطلع إلى الغد وله مطامع ثم له بعد ذلك اندفاع .

تمثل الشباب كله فى الفتى النحيل مصطفى كامل ، فوثبت الغضبة من هذا الصدر الذى سيصبح بعد أعوام قليلة عليلا مرمياً بالسل . رفع الشاب اللواء فتبعه الجنود من شباب المدارس العليا واستيقظ الناس .

والثورة لاتزال تتجمع فى النفوس وتتراكم وتتهيأ للوثوب ، وقد يعوقها إحجام الرهبة أشهراً وأعواماً ، ثم تنفلت مدمرة عند أول وثبة من مغامر جرىء ، وقد كان مصطفى كامل ذلك المغامر الجرىء .

ويهتبل حافظ ابراهيم وثبة المغامر الوطنى المتحمس، فيسير فى ركابه. وقد تودى الثورة بنفوس ، وقد ترفع نفوساً أخرى إلى مكانة رفيعة ومجد طارف تستحقه تلك النفوس لأنها باعت نفسها واشترت المجد لوطنها .

عرف حافظ هذا فأقدم ولم يكن معه شىء يخسره فى المغامرة ، فلا مال ، ولا جاه ، ولا عمل . خرج مطروداً من السودان بأوامر انجليزية .

وها قد أمكنت الفرصة للانتقام من خصومه . ولم يكن الإنجليز خصومه فقط بل كانوا خصوم بلاده . واجتمع سببان للمغامرة فأقدم .

وكان إقدامه بركة حاطته حتى موته ، فاسمه ظل معروفا يدور فى المحاضرات والكتب إلى يومنا هذا كما قلت قبل ذلك .

تقدم الشاعر الفقير الموتور بقصائده المتأججة حماسة إلى صحيفة اللواء فنالت الإعجاب والتصفيق . ولم تقتصر قصائده الوطنية على ذم الانجليز بل شملت المصريين أيضاً لتوا كلهم يومئذ .

وإنى لأذكر هنا هذا الحادث الطريف: كنا سنة ١٩١٩ فى حفل وطنى أقيم لإلهاب العواطف الوطنية ضد الانجليز . وكان خطباء هذا الحفل من الشباب الفائر العاطفة . فوقف شاب وبيده ورقة يقرأ منها هذه الأبيات :

أمة قد فت فى ساعدها * بغضها الأهل وحب الغربا

تعشق الألقاب فى غير العلا * وتفدى بالنفوس الرتبا

وهى والأحداث تستهدفها * تعشق اللهو وتهوى الطربا

لا تبالى لعب القوم بها * أم بها صرف الليالى لعبا

فصاح فيه المرحوم عبد الستار الباسل قائلا : « اسكت.. اسكت. » هذه أبيات قالها حافظ ابراهيم قديماً ولا مناسبة لها اليوم فى ثورتنا هذه .

بهذا الأسلوب كان حافظ يجمع بين ذم الانجليز والمصريين . وذم المصريين اليوم نهج قبيح ، لو سلكه إنسان لأبغضه الناس ورموه بالخيانة الوطنية ، ولكن حافظاً يومذاك كان له بعض العذر .

دخل حافظ قصر الدوبارة بعد أن فتح له الباب مصطفى كامل حذراً يهاجم تارة ويستعطف تارة أخرى ، دخله سنة ١٩٠٦ بعد حادث دنشواى الذى ضج له الناس فى أوربا . وضج له الانجليز أنفسهم بالسخط .

دخله وهو يسنده استنكار الجميع . فلا خوف عليه إن هو تسخط مع المتسخطين وثار مع الثائرين . فالجماعة من ورائه وقسوة الحادث تبرر الشكوى .

ولم يكن عنيفاً عنف عبد الله نديم ، ولا عنف أبو نظارة زرقاء يوم هاجما الانجليز . ولكنه كان ثائراً ثورة بيضاء لا تعرف إلا الاحتجاج والعتاب. وأقسى ما فى شعره من ثورة هى هذه الأبيات :

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت * أم عهد نيرون عادا

كيف يحلو من القوى التشفى * من ضعيف ألقى إليه القيادا

أيهـــــا مثلة تشف عن الغيـ*ـــظ ولسنـــــا لغيظكم أندادا

ثم يستلين حافظ ويضعف حين يستقبل كرومر بهذه الأبيات الخائرة .

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا * فالشرق ريع له وضج المغرب

أهلا بساكنك الكريم ومرحبا * بعد التحيـــــة إننى أتعتب

ماذا أقول وأنت أصدق قائل * عنا ولـكن السياسة تكذب

علمتنا معنى الحيـــــاة فما لنا * لا نشرئب لها ومالك تغضب

ثم يعود ويودع كرومر سنة ١٩٠٧ بقصيـــدة تتراوح بين العنف واللين فيقول :

قضيت على أم اللغات وإنه * قضاء علينا أو سبيل إلى الردى

ووافيت والقطران فى ظل راية * فما زلت بالسودان حتى تمردا

فطاح كما طاحت مصوع بعده * وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته * ولم تستقل حتى حجبت المؤيدا

وأودعت تقرير الوداع مغامزا * رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا

ثم يجنح إلى اللين فيقول خاتما قصيدته بخطابه إلى قصر الدوبارة : —

فيا أيها الشيخ الجليل تحية * ويا أيها القصر المنيف تجلدا

لئن غاب هذا الليث عنك لعلة * فقد لبثت آثاره فيك شهدا

ويستقبل غورست العميد الجديد سنة ١٩٠٧ بالترحاب وبالشكوى

من كرومر ومن دنلوب مستشار وزارة المعارف ، ويذكر قتيل الشمس الضابط الذى أكربه الفزع من الأهالى يوم أن ذهب إلى صيد الحمام فى دنشواى ، نخاف وهرب ، فاجتمعت عليه الشمس بحرها والعدو باجهاده نخر صريعا . ثم يشكو إليه شباب الإنجليز الذين ملأوا وظائف الحكومة واستأثروا بها دون المصريين .

ويشكو الإحتلال فى ثمانية أبيات من الشعر فى يناير سنة ١٩٠٧ .

بقصائد خمس خاصم حافظ الإنجليز خصاماً يتراوح بين العتاب اللين والهجوم العنيف المقرون بالحذر ، ذلك فى أول عهده بالتصدى لهم . ثم عاد إلى التحدى فى أخريات أيامه يوم أن أصبح الهجوم عليهم مباحاً لاعقاب عليه . فمصر مستقلة وأمرها بيد بنيها. و الحكام والشعب يظهرون الخصومة متساندين ، فلا سلطان للسفير البريطانى ولا لأحد من الإنجليز . فقد غاب ما نسفيلد حكمدار العاصمة الإنجليزى ، ودالت دولته ، وسجن فيابيدس مأمور الضبطية ، ذلك الشرق الخائن الذى ألهب الظهور وملأ المعتقلات بالأبرياء وغير الأبرياء ، وذهب ريح القلم السياسى الذى كان يرأسه الإنجليز. وكانت آلاته شبانا من المصريين يتقربون إلى الأجنبى بالوقيعة بأبناء وطنهم .

فى هذا الجو الآمن عاد حافظ لخصام الإنجليز سنة ١٩٣٢ بعد أن ترك الوظيفة ، وخاف النسيان ، ودفعته الشيخوخة الحريصة دائما على

الكسب إلى عمل فيه بريق وزهو وفيه انتعاش لنفس جريضة . فقال أبيات متفرقة، كان يبعث بها إلى صحيفة الجهاد وكان الاستاذ توفيق دياب يقدمها للقراء برنين وضجة .

ورثاؤه لمصطفى كامل كان محسوباً فى شعره الوطني ، ففيه كان يصول ويجول ويحرض . وقد اندفع مع تيار الوطنية . يدفعه فيه الشهيد محمد فريد بتضحياته السامية . والشيخ عبد العزيز جاويش بمقالاته الملتهبة .

ويقوم حافظ بعد ذلك بواجبات الوظيفة الحكومية ، فلا ثورة على الاحتلال . ولا شعر فى الإنجليز ولا فى أنصار الإنجليز ، حتى تشب حرب سنة ١٩١٤ ، فيكره الألمان . كما علمت من زملائه وزملائى فى العمل .

وقد كره الألمان لأن رئيسه الألمانى فى دار الكتب الدكتور (شاده) كان لا يعرف العبث فى العمل . ولا يعرف حقوق الأدباء وتراخيهم ودعواهم : إنهم لا يسألون وأن فى أدبهم حصانة لهم من الواجبات .

وزج حافظ بنفسه مع أصدقاء الإنجليز، فذم غليوم المتوحش فى وهمه واستقبل مكماهون بقصيدة سنة ١٩١٥ مرحباً به وسائلا عن شكوك تقيم على النفوس بشأن الحماية المضروبة على مصر سنة ١٩١٤ .

وتهب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ عنيفة قاسية . تلف مصر كلها فى أعاصيرها . فيندس حافظ فى مظاهرة النساء مستخفياً ويلعن الإنجليز .

ويقف فى السكوتنتنال سنة ١٩٢١ يشيد بمصر ومجد مصر . وتغنى أم كلثوم بعض أبياته فى هذا المجد بعد عشرين عاما .

وتكشف الأعاصير عن خصومة سافرة للإنجليز . لايهاب أحد ذماً ولا تجريحاً فى أعداء البلاد . فلا خوف على الوظيفة . ولا خوف من السجن . ولا بأس على أحد من الوكالة البريطانية ، ويشارك حافظ الجماهير بشعره فى هذه الثورة .

ويحال إلى المعاش كما قدمت . فيعود إلى وطنيانه حتى تنطفىء شعلته .

ولحافظ مشاركة فى السياسة الشرقية ، فتراه يعاتب مولاى عبدالعزيز سلطان مراكش . فيذكره بضياع الأندلس ويحذره من فقدان العرش . كما له إشادة بصداقة مصر والشام .

ويلج باب شئون تركيا . فيندد بالسلطان عبد الحميد المخلوع ويذكر له عسفه وظلمه ثم يستقبل السلطان الجديد محمد الخامس ، ويرتبط بتركيا فى مدح سلاطينها ويستقبل أسطولها . ويرحب بطياريها . ويدين بالولاء للعرش التركى رمز الخلافة الإسلامية ، ويحتفل بذكرى تأسيس ذلك العرش ويناصرها بشعره فى حروبها مع الطليان فى حرب طرابلس سنة ١٩١٢ . ويخاف على المسجد العظيم أيا صوفيا أن يعود ثانية كنيسة كما كان قبل الفتح التركى للاستانة .

وله جولات فى شؤون اليابان وفى الحرب المشبوبة بينها وبين روسيا سنة ١٩٠٤ .

# شعره التاريخى

ليس لحافظ فى هذا الضرب من شعر الملاحم إلا قصيدة واحدة معروفة هى القصيدة العمرية ، وليس له من الشعر التاريخى إلا أبيات متناثرة يستشهد فيها بحوادث معلومة معروفة عند أوساط المثقفين .

فليس له دراسة شوقى الملمة العارفة المحيطة . وليس له اطلاعه وليس له غوصه وتصيده الأسباب من علمه الواسع وثقافته العميقة .

وقصيدته العمرية . قصيدة مشكورة فيها بلاغة ، وفيها تاريخ ، وفيها طول يدل على تمكن حافظ من النظم ، فهى أطول قصائده وأحفلها بالتاريخ والحوادث ، وقد أعجب محمد محمود رحمه الله بهذه القصيدة فأمر بطبعها على نفقته .

وقد بدأها حافظ بداية غير موفقة ، فقد قتل الرجل قبل أن يجلوه للقراء . ولم يتعمق تعمق المؤرخ فى حياة عمر . بل ذكر عنه أشياء تكاد تكون معروفة للجميع : المثقفين وغير المثقفين . لم يذكر شبابه ، ولم يذكر جاهليته . وتأثير الإسلام فى أخلاقه وتحوله من رجل عارم إلى رجل عدل واستقامة لم يعرف التاريخ له مثيلا .

وعلى الجملة أن حافظا لم يحلل شخصية عمر تحليل مؤرخ . بل سرد مواقف له يفتقر بعضها إلى الحقيقة التاريخية .

وقد أحدثت هذه القصيدة ضجة سنة ١٩١٨ . فقد احتفل الناس لسماعها فى مدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز . وتلقفتها الجماهير منشورة فى الصحف، وقد وعد حافظ أن يقدم للناس قصائدعلى نسجها يذكر فيها خالد بن الوليد وغيره من أبطال الإسلام .

وقد تأثر بهذه القصيدة الشعراء فنظم على طريقتها عبد الحليم المصرى الشاعر قصيدة فى أبى بكر الصديق . ونظم الشيخ عبد المطلب قصيدة فى على بن أبى طالب . ونظم غيرهما فى هذا الصدد قصائد أخر فى أبطال قدماء ومعاصرين .

## شعره القصصى

ليس له فى هذا الضرب أيضاً إلا قصيدة واحدة نظمها سنة ١٩١٢ يوم ضرب الطليان ثغر بيروت فى الحرب الطرابلسية انتقاماً من الأتراك .

وقد تخيل حافظ فى هذه القصيدة : أربعة أشخاص : رجلا جريحاً من أهل بيروت ، وزوجته واسمها ليلى ، وطبيباً وعربياً . وأجرى الحوار بين الأربعة ، بدأه بين الجريح وزوجه ، ثم بين ليلى والعربى . ثم بين الطبيب والعربى . ثم يتحدث الجريح وزوجه ويليه العربى يشيد ببطولة هذا الجريح .

يجرى هذا الحوار بين هؤلاء فى شعر ساذج وفى مقاطيع مختلفة القافية لا بلاغة فيها ولا خيال .

# إخوانياته

لحافظ فى هذا الباب قصائد طريفة رشيقة . تنبيء عن خفة روحه وظرفه . كما أن له فيه قصائد لاتخلو من بلاغة واجتماع وفهم للطبائع البشرية .

وقد هزتنى هذه الأبيات التى قالها فى أحمد حشمت باشا وهى تفيض بالشكر وعرفان الجميل :

إليك أبا حسن أنتمى * فما زل مولى إليك انتسب

عرفت مكانى فأدنيتني * وشرفت قدرى بدار الكتب

وعرفت دهرى مكان الأديب * وقد كان دهرى شديد الكلب

فلو أن لى مرقصات الخليل * وإعجاز شوقى إذا ما رغب

لقمت بشكرك حق القيام * ولكن طابت فعز الطلب

وسبب ذكر خليل مطران هنا وذكر شوقى والتقرب إليهما : أن الأول جاء يكرمه فى حفل أقيم له فى الكونتنتال لنيله رتبة البكوية . والثانى : هو الذى سعى له فى هذا اللقب .

وهذه الأبيات من قصيدة شكر بها المحتفلين به فى ذلك الحفل .

وله عتاب بينه وبين محمد البابلى فيه أسى وفيه تبرم بمن البابلى المستور . والنفس إذا حزنت أنفت من الذل ، يقول :

نحن نرضى بالقوت فى هذه الدنيـــا * وإن بات دون قوت النعام
وإذا خان قسمنا ما شكونا * لسوى الله أعدل الحكام
كيف تنسى يا بابلى غريباً * بات بين الظنون والأوهام
وحزيناً إذا تنفس عادت * فحمة الليل جمرة من ضرام

ويشتد العتاب بين حافظ والبابلى فى وقت كان يحتاج فيه حافظ إلى صداقة البابلى. فالبابلى غني سنة ١٩٠٠ وحافظ فقير. ولا تزال أخلاق البشر يعتورها نقص ، فكثير من النفوس الرفيعة التى تجود على أنفس أخرى بمالها ، لا تزال هذه النفوس رغم رقتها وظرفها تتلوث بالضعف البشرى.

ونحن لا نعلم ما الذى أوجب عتاب حافظ للبابلى ، ولكن هذه الأبيات التى ستقرأها تنبىء أن نفس البابلى قد داخلها ذلك الضعف البشرى الذى لا تسلم منه النفوس . وإن رقت وظرفت . قال حافظ :

أخى والله قد ملىء الوطاب * وداخلنى بصحبتك ارتياب
رجوتك مرة وعتبت أخرى * فلا أجدى الرجاء ولا العتاب
نبذت مودتى فاهنأ ببعدى * فآخر عهدنا هذا الكتاب

ويعود الصفاء بين الرجلين ، ويعود حافظ إلى عتاب من صنف آخر عتاب فيه مداعبة وفيه ثقة بالصحبة فيقول :

أدلال ذاك أم كســل * أم تناس منك أو ملــل
أم غريق أنت فى جــذل * أم بكاسات الهنا ثمــل

ثم يختم هذا العتاب ببيت قدمته لك فى موضع آخر. ولكنى سأورده هنا أيضاً للتدليل على نوعين من العتاب.

ياصديقى لا مؤاخذة * أنت يا ابن البابلى ...

ويتشوق إلى البابلى الذى لا يستطيع أن ينسى مودته أبداً.

نما يا بابلى إليك شوقى * وعين لازمت سكب الدموع
ولو إنى تركت سراح قلبى * لطار إليك من قفص الضلوع

وشعر حافظ فى الاخوانيات احتل اثنين وعشرين صفحة من ديوانه كلها من الشعر الطريف والبليغ أحيانا، وهو بين صديق فى مصر وحافظ فى السودان وبين صديق فى الشام وحافظ فى مصر وبين آخر فى انجلترا وهو فى مصر وبين واحد فى القاهرة وهو فى القاهرة أيضاً . وفى هذا الشعر نوادر وفلسفه ومجون، وذم تحمله الدالة التى تجرى بين الأصدقاء.

ومن أظرف اخوانياته،هذه القصيدة التى قالها فى حفني ناصف محتفلا به سنة ١٩١٢ . وقد ألمعت إليها وذكرت بعضها، ففيها وفى غيرها مما سأثبته هنا ما ينفى قول الأستاذ أحمد أمين رحمه الله : من أن حافظاً لم يكن مرح الروح فى شعره. بل كان متشائماً منقبض النفس. يجلس إلى الناس فيضحكهم بنكاته وظرفه، ولكن إذا خلا إلى أفكاره فى شعره أوردها حزينة يائسة.

فكلام الأستاذ أحمد أمين ليس له ظل فى الحق . فكثير من اخوانيات حافظ تسطر نفسية حافظ المرحة الضاحكة . فعتابه مع البابلى ومع السيد محمد الببلاوى . وتكريمه لحفني ناصف . ودعابته مع الأديب السورى أمين تقى الدين . والمداعبات مع محجوب ثابت يوم ذهبا إلى البساتين فى حاشية سعد زغلول سنة ١٩٢٩ والتى يقول فيها :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها * قصف المدافع فى أفق البساتين

من كل قاف كأن الله صورها * من مارج النار تصوير الشياطين

ودعابته مع صديق له . تنتظم قصيدتها تسعة وعشرين بيتاً كلها فكاهة ونوادر .

ثم قصيدته إلى حامد سرى ، وكانا متجاورين فى الجيزة وليس بينهما صداقة ، غير أن بين حافظ ومصطفى الخولى زوج أخت حامد صداقة . تزوج حامد ولم يدع حافظا . وله العذر لأنه لا يعرفه . ولكن رغم ذلك كتب اليه أبياتا يغمزه فيها ، ولم يعف مصطفى الخولى من سخريته فقال :

سأشكو للوزير فإن توانى * شكوتك بعده للمستشار

أيشبع مصطفى الخولى وأمسى * أعالج جوعتى فى كسر دارى

وبيتى فارغ لا شىء فيه * سواى وإننى فى البيت عار

وما لى جزمة سوداء حتى * أوافيكم على قرب المزار

وعندى من صحابى الآن رهط * إذا أكلوا فأساد ضوار

فإن لم تبعث إلى حالا * بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف * ومن حمل تبتل بالبهار
فإنى شاعر يخشى لسانى * وسوف أريك عاقبة احتقارى

فخاف حامد سرى عاقبة احتقاره . وبعث إليه بطعام كثير رغم أنه لا يعرفه معرفة صديق ، ولكن مصطفى الحولى كان صديقه فأوعز لحامد بإرضائه . وقدحملت هذه القصيدة إلى أحمد الزين أحد مصححى ديوانه . فقد كانت فى أوراق حامد سرى . فلما نشر عن قرب ظهور الديوان فى الصحف تقدم بها حامد إلى . فأعطيتها لأحمد الزين فأثبتها فى الديوان . ولم تكن معروفة عند الناس .

## غزله

لا نستطيع أن نأخذ قوله فى هذه المقاطيع المنشورة فى ديوانه مأخذ الجد . فنقول إن حافظاً كان عاشقاً مدلها تحرقه اللوعة ويؤرقه الهجر . فالظاهر أنه كان يعبث ولم يكن ينظم للوعة .

فإنا لا نجد حرارة فى شعره الذى يقوله فى جوليا التى لا نعرفها . والغالب أنها كانت تعمل خادمة فى مقهى كافيه إجبسيان الذى كان كل خدمه من النساء الأجنبيات فى ذلك العصر .

ولا شك أن حافظا كان يطرقه لأنه كان متعالم الشهرة ، أو لعل

جوليا هذه كانت غانية من غوانى الأزبكية ، اللواتى كن يملأن الجانب المتاخم لشارع كامل ، أمام النافورة ، والذى أحرقه الجنود الاستراليون سنة ١٩١٥ فى الحرب الأولى .

ولحافظ بعد ذلك غزل فى جندى مليح . وفى آخر رأى على غرته خالا . وقد تعرضت لهما عندما تحدثت عن عاطفته .

## خمرياته

لم يكن شعره فى الخمر بأعمق عاطفة من شعره فى الغزل، فهو لم يكن مدمن خمر يعكف عليها ويحبها ويلازمها . إنما كان يسكر فى بيته سكراً لا يبلغ حد الإدمان إنما هو للنشوة والمرح واللهو .

وأبياته التى ذكرتها فى بيئته الاجتماعية والتى جاء فى أولها :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى * بين وهم وبين ظن وحدس

معروفة محفوظة فى صدور كثيرين من الأدباء .

وله أبيات ينحو فيها نحو أبى نواس ، فى ذهابه إلى الخمارة وإيقاظها وقيام الخمارة من النوم ، الذى لا يزال عالقاً بأجفانها .

ثم له أبيات فى خمر بابل التى صهرجت والتى أخبره عنها حاخام اليهود إلى آخر هذا الشعر التقليدى فى ذكر الخمر على طريقة القدماء .

# أسلوبه

اشتهر حافظ بين الأدباء والنقاد أنه كان جزل الأسلوب رصينه. وأنه كان فوق شعراء عصره جميعاً فى هذا.

وقد أسلفت أن الأستاذ البشرى . . كان يقدمه على شوقى فى الأسلوب. وقد تعرضت لهذا الرأى الخاطىء بالنقد فى كتاب حياة شوقى.

وقد ذكره مطران عند الكلام على الشعراء فقال: « إن حافظاً يقدم اللفظ على المعنى ».

ولا شك أن حافظاً كان جزل الأسلوب فخم الديباجة فى شعره، ولكن هذه الجزالة وتلك الفخامة لم تنتظما كل شعره.

وقد نظم أبياتاً كثيرة لا تلمس فيها جزالة ولا فخامة، بل قد انحط أسلوبه فيها انحطاطاً بعيداً.

وسأستشهد هنا بأبيات قالها وهو فى سن نضجه الفنى لكى لا أفتات عليه قال:—

عاصف يرتمى وبحر يغير * أنا بالله منهما مستجير

والشطر الثانى من هذ البيت ركيك عامى لا يحتاج إلى عناء لنقده.

وقوله فى استقبال أوجينى التى زارت مصر مرتين الأولى فى عهد إسماعيل وهى مالكة فرنسا والثانية سنة ١٩٠٥ وهى مخلوعة التاج .

كنت بالأمس ضيفة عند ملك * فانزلى اليوم ضيفة فى خان

ولكى ننصف حافظا نقول : رغم نظمه لهذا البيت الركيك فقد نظم فى هذه القصيدة أبياتاً بليغة رائعة الأسلوب .

وقوله عند زيارته المجمع العلمى بدمشق : —

شكرت جميل صنعكم بدمعى * ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفنى * على ما ذاقه دمع السرور

وقوله :

ما بال قومى لا ينزلون * بغير جروبى وبار اللوا
تراهم على نردهم عكفا * يبادر كل إلى ما غوى
ولو أنصفوا الجسم لاستظهروا * له بالمران وطيب الهوى

وقوله فى رثاء عبد الحليم المصرى :

لك الله قد أسرعت فى السير قبلنا * وآثرت يا مصرى سكنى المقابر
وقد كنت فينا يا فتى الشعر زهرة * تفتح للأذهان قبل النواظر

ومن حق حافظ أن ننوه له بأبيات من الشعر قالها بليغة رصينة قوية.

وهذا الضرب من البلاغة كثير فى شعره بل هو أ كثر من التركيك المتراخى . قال فى رثاء الدكتور شبل شميل : —

سكن الفيلسوف بعد اضطراب * ان ذاك السكون فصل الخطاب
لقى الله ربه فاتركوا المر * ء لديانه فسيح الرحاب
حزن العلم يوم مت ولكن * أمن الدين صيحة المرتاب
كنت تبغى برد اليقين على الأر * ض وتسعى وراء لب اللباب

والقصيدة كلها على هذا النهج البليغ .

وقال فى رثاء البارودى وهو لم يزل شاباً مرجو البلاغة والجزالة: —

ردوا على بيانى بعد محمود * إنى عييت وأعيا الشعر مجهودى
ما للبلاغة غضبى لا تطاوعنى * وما لحبل القوافى غير ممدود
خلنت سكوتى صفحاً عن مودته * فاسلمتنى إلى هم وتسهيد
ولو درت أن هذا الخطب أفحمنى * لأطلقت من لسانى كل معقود

وبلاغته فى النثر أقوى منها فى الشعر ، لأن النثر منطلق من القيود ، لا يعرف قافية ولا يلتزم وزنا فهو مرسل . وإن تقيد بسجع ،فانما هو قيد سهل مطاط .

وكان حافظ يختار من محفوظه، أعلى طراز من الأسلوب فيودعه نثره. وكان لايتعجل فى إبراز منتوجه . فهو قد سلخ فى تعريب جزأى

كتاب البؤساء عامين كاملين ، وهما لايتجاوزان مائتى وخمسين صفحة .

وكان يسوس الكلام على الطاعة ، فهو يختار ثم ينبذ ما اختاره ليختار مرة أخرى . فلا يزال هكذا حتى يقع على الطراز الرفيع بعد أن يعرضه على الناس .

وقد كان يمكث الأيام الكثيرة فى اختيار لفظ مناسب . عرض له لفظ « الشهود » الذين يذهبون للاستطلاع والتفرج ، فمازال ينقب حتى وقع على كلمة « النظارة » التى أخذها عنه الأدباء وأظهروها فى كتاباتهم .

وكان يبالغ أحياناً فيلجأ إلى كلمات مهجورة متعاظلة لا توائم الذوق ، فقد قال يصف الجواد الذى حمل جان فالجان إلى المحكمة فى آراس :—

عظيم السليل . سحير . أدك . أهنع . مفتوح اللبان . . .

وقد التزم حافظ فى البؤساء الأسلوب المرسل ، فلم يتقيد بالسجع الذى تقيد به فى كتاب ليالى سطيح الذى كتبه على نهج عيسى بن هشام لمحمد المويلحى .

وشهرته التى حصلها من بلاغة كتاب البؤساء جعلت الناس يقولون : « إن حافظاً فى النثر خير منه فى الشعر » . وأنا أقول مع الناس هذا القول .

## ثقافتــه

إن حافظاً بعد أن التحق بالوظيفة فى دار الكتب ترك الكتب . فكأن هذه الأسفار المتجمعة الكثيرة العدد وراء الزجاج السميك

فى مخازن لا أول لها ولا آخر ألقت فى نفسه السأم، فهو لا يقربها .

كالطباخ الذى يطهو أصناف الطعام ، وينظر إليها ويحركها بيده . ويضعها فى أوانيها . ثم لا تشره نفسه إليها ولا يشتهيها . لم يقرأ حافظ من عام ١٩١١ إلى ١٩٣٢ كتاباً ذا قيمة ، فكل ما قرأه فى هذه الحقبة إنما كان قصصاً تافهة المعنى والأسلوب ، لم أره يوماً فى يده صحيفة . ولم أره يوماً يقرأ فى كتاب .

ولولا ذاكرته العجيبة وقوة حفظه لما استطاع أن يتصيد هذا الكلام البليغ المرصوص فى شعره وفى نثره ، لأن عهده بالنظر فى كتب الأدب البليغة كان قد طال ومرت عليه السنون ، وهو لم يقرأ من عهد بعيد شعراً جزلا ولا كلاماً بليغاً .

ولكنه كان قوى الذاكرة كما قلت . وقد بلغ من قوة ذاكرته يوماً ، أنه اختلف هو وبعض الأدباء فى لفظ « تيامن » أى سار على يمينه ، فقال بعضهم .. إن هذا اللفظ خطأ ، فأسرع إلى قائلا : على بالأغانى لأبى الفرج السفر الخامس عشر تجد فيه ترجمة الكميت بن زيد ، فابحث فيها تجد هذه الجملة ... تيامنوا يافتيان .

فأجبته إلى طلبه فوجدت الجملة التى أرادها كما قالها .

وقد قرأ الأغانى مرات ومرات ، وقرأ كليلة ودمنة لابن المقفع

مرات ومرات . وحفظ من الشعر العربى الجزل الفخم الكثير الجم . فكان ذلك عدته فى فنه .

وكانت له كتب أخرى حية ناطقة استفاد منها الكثير .

كان يجلس مع كل طبقات المجتمع . فكان يستفيد من كل طبقة معلومها . كان يستفيد من الأدباء أدباً ، ومن الساسة سياسة ، ومن الظرفاء ظرفاً .

وإنى أحار عندما أتكلم عن ثقافته فى اللغات . فحافظ لم يتجاوز مرحلة تعليمه الإبتدائى ، إن أسقطنا من حسابنا مرحلته فى المدرسة الحربية التى لم يستفد خلالها علماً كما اعترف هو فى ليالى سطيح .

كما أننا نعلم يقينا ، أنه لم يختلف إلى معلم يلقنه اللغة الفرنسية . ولكنى رأيته يقرأ أمامى لغة فيكتور هيجو وينقلها إلى العربية فى كتاب البؤساء .

كما أعلم أن الأستاذ أحمد نجيب الذى كان يعمل مستشاراً اقتصادياً فى وزارة المالية كان يعاونه فى تعريب الجزء الثانى من الكتاب ، ولا نعلم شيئاً عن الذى عاونه فى تعريب الجزء الأول ، فذلك شىء غاب عنا لأنا لم نعاصره فى تلك الحقبة .

وقد قرأنا لبعض النقاد هذا : —

« إن الكتاب العربى مختلف جداً عن الأصل الفرنسى ، فليس فيه إلا رمزه وشخوصه ومعناه » .

أمام ما جاء فى قول حافظ : « نجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة » ، فهذا غير صحيح .

وقد يكون هذا من فقره فى اللغة الفرنسية ، فهو لم يستطع أن يناهض فيكتور هيجو فى بلاغته . فيعرف عن هذه البلاغة دقائقها ، فاكتفى بالاجمال ، وصاغ كتابه على غرار آخر يتصل بالأصل اتصالا واهنا ، ويختلف مع الفروع اختلافاً بعيداً .

فوضع كتاباً ترضى عنه البلاغة العربية ، وتنكره لغة فيكتور هيجو ، لأن عجزه فى اللغة الفرنسية حال بينه وبين الحسناء وخيالها فى المرآة .

## رأيه فى الشعراء

لقد امتدح فى تصـــدير ديوانه المطبوع سنة ١٩٠٣ أكثر الشعراء المعروفين :

امتدح بشار بن برد فى الرصانة ، وبناء القافية على الأساس المتين . وامتدح فى مسلم بن الوليد تأثره ببشار ، وامتدح فى أبى نواس الفكاهة وكثرة الإبداع وحسن الصياغة ، وامتدح فى البحترى جزالة ألفاظه ، وامتدح فى المتنبي حيوية شعره. وقال فيه أيضاً : « لو لم يكن أسلوبه عاقاً لأساليب اللغة العربية لكان أشعر شاعر فى الإسلام » . وامتدح ابن هانىء الأندلسى فى جزالة لغة العرب ورقة الأندلس . وامتدح ابن المعتز فى حسن

التشبيه ، وامتدح فى العباس بن الأحنف رقة الشعور وحلاوة التركيب .

وامتدح فى أبى العلاء صفاء الذهن ، وقوة الذاكرة وسعة الإطلاع وغزارة المادة .

وقدم على نفسه شوقى وصبرى ومطران، وجعل البارودى أستاذ الجميع.

## رأى لأدباء فيه

لم أسمع من واحد من الأدباء ثناء عليه . فقد كان حافظاً محسوداً . وقد قلت : إن هذا الفقير الذى لا عون له ولا سند ، زاحم الجميع بنفسه وبشخصيته حتى أثبت قدمه فى الطليعة . فظل يكافح حتى تطاول وطمع فى مكانة شوقى .

وقد قال فيه مطران : « إنه إذا نظم فكأنه ينحت فى صخر » . وقال فيه المنفلوطى : « إن اسمه فوق حقيقته » .

وكان جعفر والى الوزير الأديب سىء الرأى فى شعره وكان حافظ يعلم ذلك ، فكان يكره جعفر والى ويقول : «من عجائب مصر: شيئآن ضحكة جعفر والى وسعلة الملك فؤاد » .

لأن الأول كان إذا ضحك استغرق فى ضحكه طويلا ، وكان الثانى إذا سعل فكأنه يعوى ، وذلك للرصاصة التى استقرت فى رئته من يوم أن أطلق عليه سيف الدين الرصاص .

وقد قرظ ديوانه : البارودى ، والشيخ الكاظمى ، وحفنى ناصف ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ إبراهيم عبده ، وإبراهيم رمزى ، وحسن حمدى ، وأحمد عمر الأسكندرى ، وشوقى ، وأحمد الكاشف ، ومحمد إبراهيم هلال .

وتقريظ الأدباء بعضهم لبعض فى ذلك العصر ، لا ينبىء عن رأى ولا يفصح عن نقد صحيح ، إنما هو للمجاملة وللمجاملة فقط . فقد قرظ شوقى متشاعرين وقرظ حافظ أدعياء . وقد قال شوقى فى تقريظ بعض هؤلاء المتشاعرين بعد طول تلمسه وطول بحثه :

لا تعجلن على الربى * حتى تكللها السحب

وكانت الربى فى الخمسين من عمرها .

## ديوانه

طبع ديوانه سنة ١٩٠٣ وأعاد طبعه ثانية . وقد قدمه له وشرحه الأستاذ محمد إبراهيم هلال وهو يقع فى ١٨١ صفحة من الحجم المتوسط ، وقد جاء فيه بعض قصائد المديح ، وبعض قصائد الشكوى ، وقصيدة لقاسم أمين ، وبعض قصائد الاخوانيات ، وبعض قصائد الوصف ، وبعض قوله فى الخمريات ، وبعض قصائد الرثاء . وجاء فيه أغراض شعرية أخرى متناثرة . وقامت وزارة المعارف سنة ١٩٣٧ فأسندت إلى الأساتذة

أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابيارى بجمع شعره كله ووضعه فى ديوان . فجمعوا شعره من ديوانه القديم ومن الصحف ومن بعض أصدقائه ، وقاموا بمراجعته عند الطبع ، فجاء الديوان سفرين :

الأول : فى المديح ، والتهانى ، والأهاجى ، والأخوانيات ، والوصف ، والخمريات ، والغزل ، والاجتماعيات .

والثانى : فى السياسيات ، والشكوى ، والمراثى .

والسفر الأول يقع فى ٣١٨ صفحة من الحجم الكبير . ويقع الثانى فى ٢٤٨ صفحة من الحجم الكبير أيضاً .



# الغروب



هذا الرجل الذى لا يتقيد بالقيود الصحية فى طعامه وشرابه ، ولا يعرف للرياضة نظاماً واجباً يلزمه .

يشكو المرض وهو فى الخمسين ، إذا سعل وضع يده على بطنه متوهما أمراضاً لا تحتل من بدنه مكاناً ، ولا تسرى فى أعضائه ، إلا على مايراه خياله الحزين الأسود المنبعث من نفسه من اختلال أعصابه .

إن حياة إنسان بلا أسرة يأنس إليها فى كهولته ، وتقوم على رعايته لهى حياة موحشة تملأ النفس هما ، وتلفتا إلى الاستقرار .

وحافظ لم يستقر يوماً فى حياته الطويلة. فهو فى ديروط يتيما فى الرابعة من عمره ؛ وفى حارة الجنبكية فى حى المغربلين يأوى إلى دار غير دار أبيه ويتلقى الطعام من غير أمه ، والتوجيه إلى الدرس والتربيــة من غير والده .

وفى طنطا يخرج الفتى من دار خاله شريداً طريداً إلى الطرقات ، يلتمس الرزق وهو فى سن مبكرة ، فلا يجد إلا الفشل وزهد الناس فيه. ثم يغترب فى طلب القوت ، فيصطدم بالصعاب وتقف أمامه العقاب ويعيش فى بلد غير موافق . ثم يعود إلى التسكع فى الطرقات بلا عمل ولا رزق معروف الوجهة ؛ وإن من بلاء النفس وقلقها : الخوف من الغد المجهول . فحافظ لم يعرف لغده أمناً حتى بلغ الأربعين وحتى بعد الأربعين ، كان قلقاً على رزقه فى دار الكتب ، كان يتوهم أن كل رئيس يتولى

منصبه فى هذه الدار سيزهد فيه ، وسيسعى إلى فصله ، لأنه كان لايحسن عملا ، ولا يتقيد بالمواعيد المعروفة والمرصودة فى اللوائح الحكومية .

فهو قلق نافر فى كل مراحل حياته ، لاثروة تحميه من غده المجهول ولا عمل ثابت البقاء ، فهو فى خوف من الرجوع إلى حياة كحياة طنطا أو حياة سنة ١٩٠٠ حين نزل القاهرة مطروداً من السودان .

إن وساوس نفسه أنهكت أعصابه ، فعاش مريضاً وهو غير مريض .

وحافظ كان يضحك ويتنادر ويلهو ، ولكنه كان كالجنود فى ليلة المعركة الكبرى ؛ فهم يمرحون ويمزحون ويضجون ، ولكن أطياف المعركة كانت تنشر بين ضحكاتهم تهاويل مرعبة، يحاولون كبتها بضحكاتهم العالية وعبثهم الصاخب .

وحافظ يحب الحياة ، ويحب الراحة ، ويحب المال الذى لا يبقى عليه . وهذه أسباب كان يود حافظ التأكد من حيازتها تأكداً ثابتاً لاقلق فيه .

كان يستطيع هذا الرجل المتلاف أن يقى نفسه شر هذه الكوارث النفسية ،لو قبض يده عن هذا السرف السفيه الذى كان يباشره فى جميع أطوار حياته .

كان يستطيع أن يتقى هذه الكوارث لو ادخر شيئاً ، ولكنه لم يفعل . كانت طبيعته المسرفة المتلافة لاتخضع لوسواسه الجازع من الغد المجهول . كان لا يثق فى المعاش الحكومى ، ولا يراه موئلا يقيه العوز

فى الشيخوخة . لأنه كان يتطلب الكثير لكى يعيش على مايهوى ، فهو يكره عيش الكفاف . ولا يطيق الاقتصاد فى النفقة و يعدهما هما والفقر المدقع سواء .

فكيف يستطيع أن ينزل عن شرب السيجار الفاخر وعن أكل الطعام الدسم الشهى الذى كان يحبه دائماً ، وعن سكنى الضواحى فى البيوت المحفوفة بالحدائق . ثم هو بعد ذلك لا يستطيع أن يغلق غرفة مائدته فى وجوه أصدقائه . لأنه كان يجد فى هذا الكرم المسرف راحة نفسه وبغية هواه .

كل هذه الأطياف كانت تعذب حافظاً وتروعه . وكانت وطأتها فى الشيخوخة أقسى وأمر .

قد كان يستطيع فى شبابه بظرفه ولبقاته وحب الناس له... أن يحوز الكثير ، ويأخذ الكثير من أصدقائه الأغنياء الذين كانوا لا يضنون عليه بشىء .

ولكن هل يستطيع ذلك فى شيخوخته ، والشيخوخة مقعدة عن السعى . عاجزة عن ابتعاث الأسباب التى كانت تستهوى الناس فى حافظ. وكانت الحركة وكان العمل الوهمى فى الديوان هما الشعلة التى كانت تمد حافظا بالحياة ، فلما فقد الحركة بالركون إلى المنزل. وفقد العمل بذهابه إلى المعاش ، فقد أسباب الحياة فيئس .

وقد حاول جاهداً أن يقاوم . « لينتعش » بأبيات من الشعر قالها في الوطنية . وذم الإنجليز . وكان ينشرها في صحيفة الجهاد . وقد حاول أيضاً أن ينفض عنه الركون إلى المنزل ، بالذهاب إلى المقهى صباحا ليدخن نرجيلته الحبيبة إلى مزاجه دائماً ، ولكنه لم يستطع المداومة . فلزم داره مقهوراً عاجزاً .

هذا شهريار الشيخ المحال إلى المعاش حديثاً . قد اتكأ على كنبة اسطنبولى وقد وضع على فخذيه غطاء من الصوف السميك ، وقد جلست حياله على حشية من القطن لاصقة بالأرض شهرزاد العجوز الفقيرة التى لا تخاف القتل ولا تهاب الفتك ، لأن الملك الشيخ المتكىء لا يملك الموت لأحد ، ولا يملك ملكا .

كانت امرأة تتصل بقربى إلى خادمة شهريار . فكانت تحضر لتسليته بالرجاء وبالأجر .

كانت تقص على هذا الجالس على الكنبة الاسطنبولى أحاديث الشاطر حسن وجلدانه والساحر والتاجر السواح .

وتغادر شهرزاد شهريار بعد ساعة أو ساعتين من هذا السمر الذى يبدأ بعد العشاء دائماً .

وكانت لا تضطر لربط قصتها بأخرى ، لأنها تأمن الملك ، ولا تخاف بأسه وإن كانت ترجو عطاءه .

تنصرف العجوز عن حافظ إبراهيم المقيم فى الزيتون . فينظر الرجل إلى غرف الدار الخالية من الأنيس لأن الخادمتين قد آوتا إلى غرفتهما للنوم . فيسعى إلى مائدة صغيرة فى حجرة نومه ليحضر كتاباً طبياً قديماً عساه يجد فيه دواءاً شافياً . لعلله العديدة التى يشكو منها بحق وبغير حق .

يظل يقرأ فى كتاب تذكرة داود حتى يقع على دواء لعلته ، عناصره من أعشاب ، لا يعثر عليها الباحث أبداً لأنها لا توجد إلا فى مخيلة ذاكرها . ثم يلمح على المائدة كتاباً آخر فلا يمسه . لأنه مضى عليه أكثر من عشرين عاماً . لم يقرأ كتاباً فى الأدب . فيترك الجزء الوحيد الباقى عنده من كتاب الأغانى التى تبلغ أجزاؤه واحد وعشرين جزءاً . والذى كاد يستظهره كله لكثرة النظر فيه . وتنتقل يده إلى الكتاب الثالث وهو آخر كتاب موضوع على المائدة التى لا تحمل إلا هذه الكتب الثلاثة . وهى كل مكتبة حافظ إبراهيم . ينظر فى الكتاب لأنه رأى فى نومه حلماً يرمز إلى أشياء استوعبها الباطن ونسيها عقله الواعى . فيجد لحلمه تفسيراً يرضاه وهمه فتطيب نفسه إذا جرى نحو الخير . ويحزن إذا كان حلمه من تلك الأحلام التى تبعثها الأبخرة المتصاعدة من هذه المعدة المريضة . فقد كان سروره بيد رجل قد مضى على موته أكثر من ألف عام وهو ابن سيرين .

ويأوى الشاعر المريض إلى فراشه . فيذكر أباه الذى فارقه وهو

فى الرابعة فيحاول أن يتذكر وجهه ، فتعجز مخيلته عن استحضاره . فالعهد بعيد وسنه الصغيرة ، يوم مات أبوه لاتسعفه فى شيخوخته لاستحضار الوجه المحتجب من ستين عاماً ، ويسرح خياله نحو أمه التى جاهدت لأجله السنين الطوال وضحت بالكثير واحتملت الترمل والحاجة ، فيراها ماثلة أمامه تحنو عليه بوجهها الحنون وابتسامتها الرقيقة لأنها لم تفارقه إلا من سنين ثمان .

وينتقل به بعد ذلك الخيال إلى السيدة الكريمة التى أحبته كابنها . وكانت تقوم بشئونه وترعاه ثم طواها الموت من ثلاث سنوات فقط .

يطول أرق الشاعر المفرد فى هذه الدار الواسعة الغرف التى لا تضم إلا خادمتين عرفهما من عهد أمه . فهما بقية أهل بيته ، وتطول الليالى على هذا الشقى وحده ، الملول دائماً . ويعمل اليأس والملل فى نفسه عملهما المبيد . فيستأذن الموت طارقاً فلا يستطيع حافظ إلا أن يفتح له الباب فيدخل . ويطول الحوار بينه وبين الشاعر . فتسارع الخادمتان فى إسعاف سيدهما . ولكنهما تعجزان لأنهما امرأتان لا حول لهما ولا دراية .

فتنطلق إحداهما إلى صديقه عبد الحميد البنان لتدعوه عسى أن ينهى هذا الحوار ويدفع الموت عن سيدها .

فيسارع الرجل الوفى . فيجد أن الحوار قد بلغ غايته . فينادى حافظاً .

فيرفع الشاعر المسكين عينه . وينظر نظرة أخيرة إلى صديقه ، ولا يستطيع كلاماً . وينتهى الحوار بالاستسلام للموت .

ويموت حافظ إبراهيم الشاعر الظريف . ويمشى فى جنازته أصدقاؤه ومحبوه ، ويقبل محمد محمود العزاء فى الرجل الذى لم يرتض أن يتخذ له أسرة قط ، تقوم له بالمواساة فى حياته وتتلقى العزاء فيه عند موته .

---

## تصحيح لا بد منه

| خطأ | صواب | ص | س |
|---|---|---|---|
| البورصة | البورصه لى | ٩١ | ١٣ |
| أصغر | أظهر | ١١٤ | ١٦ |
| نوادرا | نوادر | ١٣٠ | ١٥ |
| قبلها | قبتها | ١٣١ | ١٥ |

# فهرس

صـ

## هو

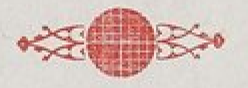


## فنـه



## الغروب





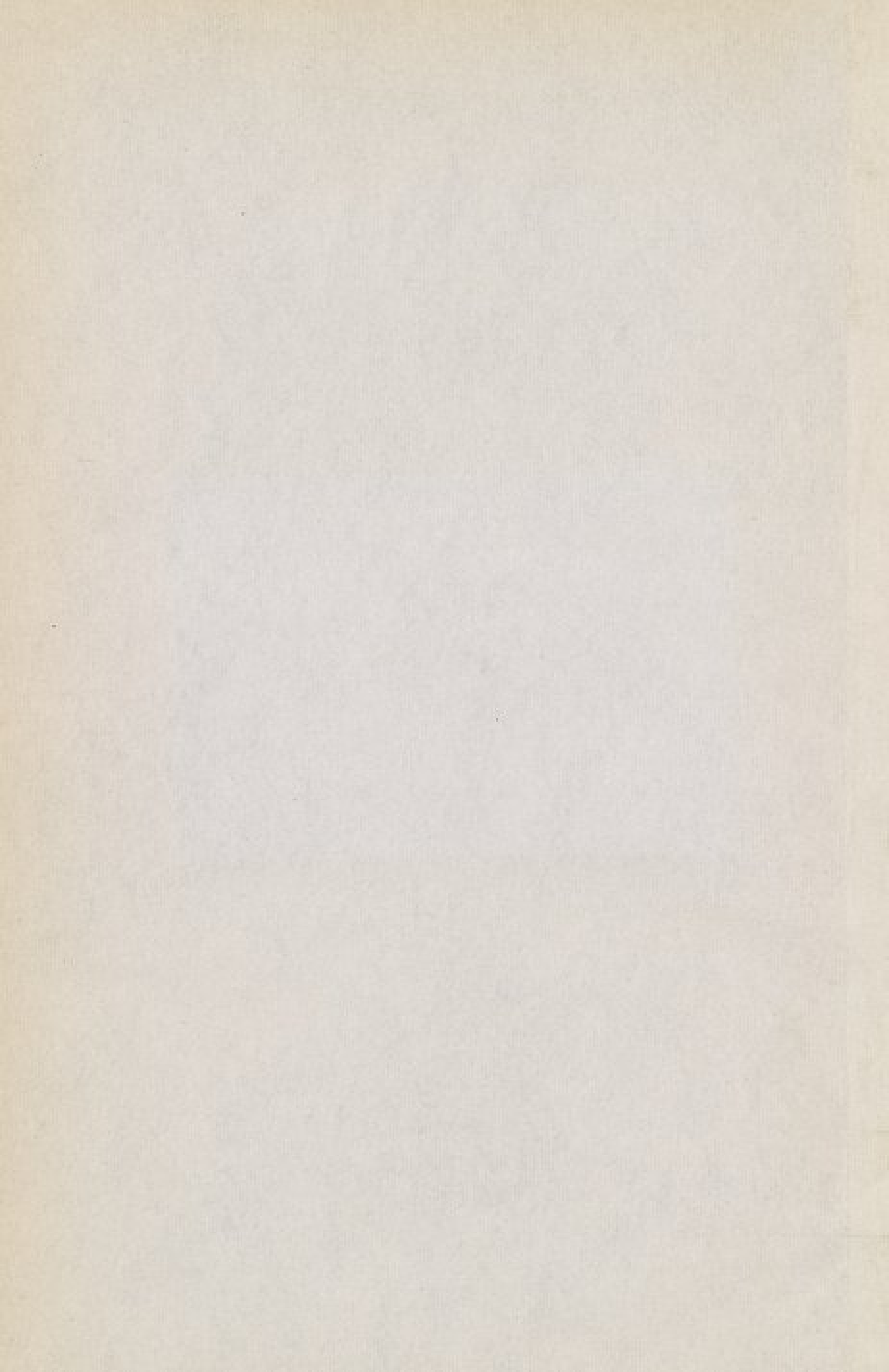
# كتب تحت الطبع

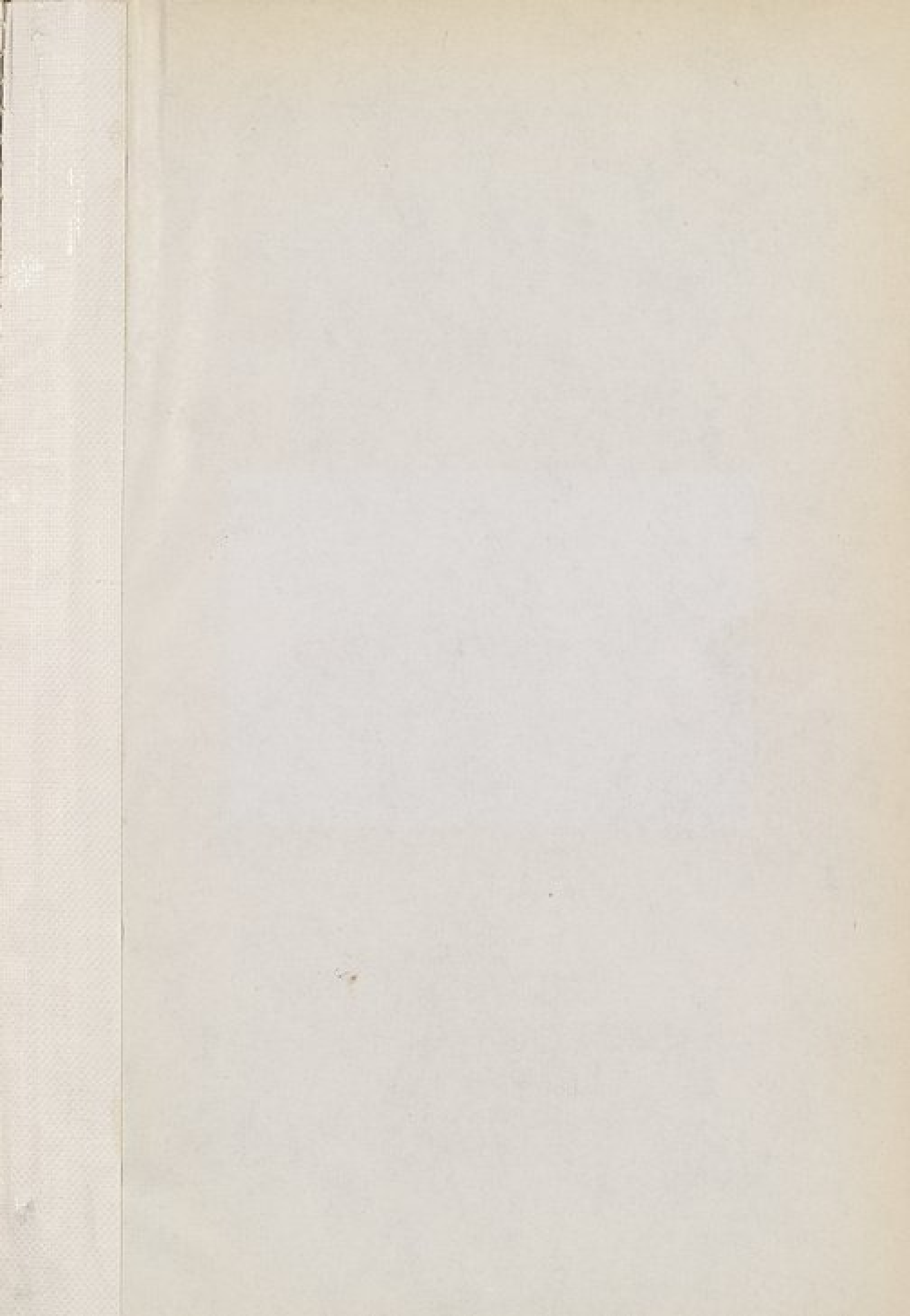
## للمؤلف

- حياة القاهرة .
- حياة البارودى .
- مشاهير القتلى فى الإسلام .
- ديوان محفوظ .
- بردة محفوظ .
- نادى النفاق . تمثيلية شعرية .

مطابع

الناشر العربي





ملتزم التوزيع والنشر :

الثمن ٢٥

مؤسسة نصار للتوزيع والنشر

٥٤ شارع عبد الخالق ثروت

ص. ب ١٣٦٠ القاهرة